

مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع

فلسفة الملابس

تأليف: تومي كاريل
ترجمة: طه السباعي



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الجمال الفكرية



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد السيوي

الإسكندرية

فلسفة اللاهوت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني : أزياء وزخارف

التقنية: كولا ج لصور الأزياء

المقاس: ٢٥ × ٣٥ سم

حينما يتعرض فيلسوف مثل كارليل لموضوع مثل الأزياء؛ فإن الأمر جد عظيم، وهو يحدثنا عن فلسفة الملابس، ويقدم الترجمة لنص الكتاب طه السباعي. ولعل هذا الموضوع لم يشغل أى منا على الإطلاق، ولم نعره أدنى انتباه أو التفات، لأنه يعد من الأمور البديهية التى لا تحتاج إلى التفكير؛ هكذا يخيّل إلينا.. لكن الأمر على العكس من ذلك تماماً، فإن للملابس والأزياء فلسفة، وإلاّ ما اهتم بها الأعداء، فسرّقوا الطرز الفنية للتفصيلات والزخارف والنقوش؛ ونسبوها إلى أنفسهم، سرقت إسرائيل الأزياء الفلسطينية والعربية، وباعوها فى أغلب الأسواق العالمية، ليدلّلو على مدى تقدّمهم فى هذا الفن الرائع، وهم لا فصل لهم.

محمود الهندى

فلسفة الملابس

تأليف: توماس كارليل

ترجمة: طه السباعي



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

فلسفة الملابس

تأليف : توماس كارليل

ترجمة : طه السباعي

الغلاف

والإشراف الفني :

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة، السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليصبح نهمة للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تترع فى صدارة البيت المصرى ببراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيدى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة، للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتلضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة، فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. امیر سرخان

فلسفة الملائكة

لواضعه

توماس كارليل

ومحرره

طه السباعي

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة البشلاوي بالقاهرة



طريق

إهداء 2005

أ/إبراهيم منصور تميم

القاهرة

فلسفة الاملايين

لواضعه

توماس هاريل

ومعربه

طه السباعي

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة البقلاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المعرب

«توماس كارليل» اسم غير جديد على مسامع القراء من أبناء العربية . فلقد سبقني أخى محمد السباعى الى تعريب كتابه «الابطال وعبادة البطولة» ولست أشك في أن كثيراً ممن أطلعوا على هذا الكتاب الممتع قد فتوا بطريقته المجدبة في التفكير ، وأسلوبه الاعجب في التعبير . ولكن «كارليل» قد اقتصر في كتاب الابطال على شرح مذهبه في فلسفة التاريخ ورأيه في تقدير عظماء الرجال ، فبقي علينا أن نعرف رأيه فيما هو أجل وأعظم : في الحياة ذاتها وموقف الانسان ازاء أسرارها الهائلة ومشاكلها العويصة . وذلك ما أحاول اليوم ان أفعله بتعريب كتابه « فلسفة الملايس »^(١)

يبدانى لا أدري أيها القارئ ، وقد جلوت عليك هذا الكتاب في ثوبه العربي ، أوفقت الى غرضي أم لم أوفق ، وأخفقت في محاولتي أم لم أخفق . لقد أردت ان أحدث في نفسك ثورة واتقلابا — أن أحل المصايب عن عينك ، واتزع السدادة من أذنك ، حتى ترى بعض ما يحيط بك من جمال ، وحتى تسمع بعض ما يصدح حولك من أنغام . أردت أن أغير ولو لحظة مألوف

(١) الاسم المعروف به هذا الكتاب في اللغة الانجليزية هو « سارتر ويزاتس » وهي عبارة لاتينية معناها : الحياط يرتع .

نسبتك الى الحياة ، وأبدل معهود وضعك في الكون ، لتتغير الاشياء في نور جديد ، وتأمل الدنيا من غير وجهها المعهود ، فتلمح بعض ماخفي عليك من صلات القرب بين المتباعدات ، وأواصر النسب بين المتنافضات ، وتدرك أن الكون كله وحدة مترابطة الاجزاء ، تمت وضياعها الى ربيعها بأمتن الاسباب ، وينتمى دقيقها الى جليلها بأقرب الانساب .

اتذكر اذ أنت غلام كيف كان يلذك أنك تنظر الى المراثيات من خلال بلورة تحلل الضوء الابيض الى عناصره الاولى ، فاذا الاشياء التي عهدك بها لا رواه لها ولا هجة قد اكنست حلة طلية من أصباغ زاهية وألوان هبية ؟ كذلك أردت أن أضنع في يدك من هذا الكتاب منشوراً بلوريا يحلل مظاهر الحياة المألوفة الى عناصرها الاولى من حقائق تبهر العيون روتقا ، وتسبي العقول جمالا .

تلك في الواقع هي الغاية التي قصدتها «كارليل» من وضع كتابه «فلسفة الملابس» . والحق ان هذا هو الغرض الذي يرمى اليه الادب في مجلته ، وعلى اختلاف فنونه . فالتما وظيفته ان ينفخ النبار عن وجه الحياة — أو بمباراة أصح أن يهتك التشاوة عن أعيننا — حتى نشاهد من روائعها وروائعها ، وعجائبها وغرائبها ، ما هو خليق بأن يستثير كوامن نفوسنا ، ويفسح مدى أبصارنا ، ويتبع خامل مشاعرنا ، فاذا حياتنا قد ارتفعت من ضمة ، واتسعت من ضيق ، وأثرت من فاقة ، واذا حظنا من الاستمتاع بها قد بورك وتضاعف . وأشهد لقد وفق «كارليل» الى ما ابتاعنا من اقامة دولة العجب أيما توفيق ، فاني لا أعرف كتابا كان له من بليغ الوقع في نفسى وعميق الاثر في حياتي ما كان لكتاب فلسفة الملابس هذا . ولقد أذكر اني في أول عهدي بقراءته ،

وقد أثار من كوامن نفسى ما أثار، وغير من طرائق تفكيرى ما غير
وحرك من ساكنات خواطرى ما حرك - كنت سائراً فى بعض الشوارع
أجول ، فوقعت عيني على قشرة برتقالة ملقاة على الأرض . لقد مضى الآن
على هذه الحادثة نيف وخمسة عشر عاماً ، ولكن هذه القشرة الدابلة الصفراء
لا تزال تتوهج فى خيالى . أتدرى لماذا أثارها القارىء ؟ لأن الورق الذى فى اذنى
والغشاء الذى على بصرى ، كانا قد رفعا عني فى تلك اللحظة المقدسة ، فرأيت
فى تلك القشرة الهيئته المطرحة مظهراً ألهياً - رأيت يد الله ، جلّت قدرته ،
تعمل فيها دائبة مبدعة ، متنقلة بها فى أثناء الأبدية وإنحاء الانهائية فى سلسلة
لا تنقطع من عجيب التطورات . فطوراً تكون فتاة من صخرة ، وطوراً
ثمرة على شجرة ، وتارة نسيجة فى عضلة حيوان ، وتارة ذرة فى مخ الإنسان
ففى فى رحلة لا نهاية لها تستغرق الزمان من مبداء الى انتهاء ، وتنظم
المكان من أقصاه الى أقصاه ، متخلقة فى سيرها مظاهر الكون اجمع ، من جوامده
ورواسيه ، الى سوائله ونواميه ، الى كواكبه ودراريه . ثم لا تسكن عن مبلغ
ما شاع فى صدرى من طرب ، وما استفاض بين جوانحي من أريجية ، وأنا
أسمع من فم قشرة البرتقالة هذا الحديث العجيب .

على أن كتاب فلسفة الملابس لا يقتصر على تناول الحياة من هذه الناحية
دون سواها ، بل هو يتناولها من جميع جوانبها ، ويعبر - كما أسلفنا - عن
رأى صاحبه فى كل ما تضمنته من عويص المشاكل وملغز المضلات ، وأحرى به
أن يسمى « فلسفة الحياة » لا « فلسفة الملابس » . ولئن كان الشأن بالنسبة
لاكثر الفلاسفة واصحاب المذاهب انك لا تستطيع الوقوف على رأيهم فى
فلسفة الحياة الا بالرجوع الى كل ما ألفوا ، واستيعاب كل ما صنفوا ، فالامر

لحسن الحظ ليس كذلك بالنسبة الى «كارليل». ذلك بأنه كان قد استوفى
نضوجه الفكري قبل أن يخرج للناس كتاب «فلسفة الملابس»، فلما وضعه،
وكان قد ناهز الاربعين، ضمنه خلاصة آرائه وأصول معتقداته، ثم مضى
بعد ذلك في كل ما أخرج من مؤلفات، وفي كل ما انتجت براعته من
ثمرات، يفصل ما أجل، أو يسهب فيما أوجز، أو يمد ويدى فيما قرر،
دون أن يأتى مع ذلك بشيء في فلسفة الحياة جديد.

ولئن اردت أن تجمل فلسفة «كارليل» هذه كما أوجزها وفصلها لاستطعت
أن تقفل في كلمتين من كلماته التي يصح أن ترسل أمثالا وهما: (ملكوتى
وسلطانى فيما أتيح وأصنع، لافيا أملك وأجمع) و(انما الدنيا كهف عجائب
وأحلام). في هاتين الكلمتين تتلخص الرسالة الكبرى التي جاء «كارليل»
يشرح للناس تفاصيلها، ويفرس في القلوب أصولها. فهو من الناحية
السلبية يريد أن يقف الانسان من الكون موقف الاعجاب والخشوع
والاجلال، وهو من الناحية الايجابية يريد أن يقبل الانسان على العمل في
الحياة بروح التفاؤل والنشاط والاقدام، محاولا بذلك أن يوفق بين استغراق
المتصوف في نشوته، ومضاء رجل العمل في همته، أو ببارة أخرى أن
يمزج مادية الحضارة الغربية، بروحانية الحضارة الشرفية.

ولقد نحا «كارليل» في وضع كتابه «فلسفة الملابس» نحا غريبا، فزعم
انه انما ينقله قلا عن كتاب ظهر حديثا لفيلسوف المانى، ومضى يطنب في
بيان خصائصه، ويردف ذلك بما زعم انه ترجمة حياته. ولسوف يفتن
القارئ. للاحالة الى أن هذه القصة الغربية التي يقصها علينا المؤلف عن كتاب
فلسفة الملابس وفيلسوفها ان هي الالتفيق محكم من قلم ماهر، واختراع بديع

لنهن خصيب ، وإن تيوفلسدروخ — تلك الشخصية العجيبة المألوفة — ليس
الاصورة رمزية ، إن لم تكن صورة شمسية ، « لكارليل » نفسه .
وما نظن بعد اذ يفطن القارئ الى هذه الحقيقة أننا في كبير حاجة الى
التعليق على الكتاب في ايجاز أو اطنا . والحق أن الناشر الاصلى — واعني به
« كارليل » كما يلقب نفسه — قد اغنى كل ناشر سواه عن معالجة هذه المهمة بما شره
شرافي تضاعف كتابه من تعليقات وملاحظات ، أفرغت أحيانا في قالب
أنيق من التهم ، ولكنها على كل حال لا تعدو أن تصيب الحقيقة في صميمها .
بقي أن نشير قبل ختام هذه الكلمة الى أننا لما خطر لنا ترجمة هذا
الكتاب فكرنا كثيراً ، وترددنا طويلاً ، ولولا تحمس كان يحفزنا حفزاً
لمباشرة هذا العمل ما كنا لنقدم عليه . ولعل من اطلع على الكتاب في لفته
الاصلية يجد لنا في هذا الاحجام بعض العذر ، فإن « لكارليل » وبخاصة في
هذا الكتاب ، أسلوباً غريباً يصح أن يوصف بأنه وحشي . وما ظنك بأسلوب
يحاكي الطبيعة ذاتها في أروع مجاليها وأهيب مظاهرها ، أسلوب يمج
عجيباً بما اكتظ به وبما احتشد فيه من تشبيهات واستعارات تشير الى كل
شيء في الارض والى كل شيء في السماء ، ويتدفق لا كالتهر في انحداره ، بل
كالسيل في استبحاره ، مرغياً مذبذباً ، متمزماً متلطمًا ، قد انقلبت فوقه
هالات من أقواس قزح ، وإن كان يحمل على صدره أحيانا ما لا بد منه من
غشاء وحشلة . ولا شك في أن جانباً عظيماً من التأثير الذي يحدته « كارليل » في
نفس قارئه يرجع الى سحر أسلوبه وغرابة . فاذا كنا قد أعربنا في صدر هذه
الكلمة عن ارتيابنا في ادراك الفرض الذي قصدنا اليه من تمريب هذا الكتاب ،
فلاننا نحشى ان تكون لطيفة ذلك السحر قد أفلتت منا في طريق النقل .

فان كنت أيها القارىء تخرج من هذا التعريب وأنت لا تشعر بانك بدلت
بنفسك نفساً سواها، فاعلم أن الذنب ليس بـ«كارليل» ولكن بـ«ذنب غيره».

٧ أبريل سنة ١٩٢٧

له الباهى

الكتاب الاول

الفصل الاول

مقدمة

إذا اعتبر المتأمل أى شأو طموح في الثقافة بلغناه ونظر الى سراج العلم - ذلك الذي ما برح منذ ذيف وخمسة آلاف من السنين يحمل عالياً ، طوراً وهاجاً وطوراً أخايكاً - كيف راح في وقتنا هذا يتوقد بشدة لم تمهد من قبل ، بل كيف أن شُعلاً لا تحصى قد فصلت منه ، وتطارت عنه ، منبثة في كل ناحية ، مندسة في كل زاوية ، حتى لم يبق في عالم الطبيعة أصغر ثقب ، أو في عالم الفنون أخفى ثقب ، الا أضاعت ثنياه ، وانكشفت خباياه - اذا تأمل المتأمل هذه الحقائق أدهشه أن لا يجد مؤلفاً وضع حتى اليوم في موضوع اللباس لا من قبيل الفلسفة ولا من طريق التاريخ .

ان نظرية الجاذبية تكاد تبلغ حد الكمال فهذا « لاجرانج »^(١) قد أثبت أن نظام الكواكب السيارة جدير بأن يثبت على تلك النظرية مدى الآباد بل هذا « لابلاس »^(٢) يرى أنه ما كان ثمة من سبيل لوضع ذلك النظام على أية نظرية أخرى ، ومن ثم أصبحت دلائلنا البحرية أكثر دقة وهداية كما صارت وسائل النقل المائية على اختلافها أجمع لاسباب الراحة . كذلك نحن قد أخذنا بالخط الأوفر من علم طبقات الأرض وعلم مواد الأرض حتى لقد أصبح كثير من الجمعيات الملكية يرى أن خلق أى عالم من العوالم لم يعد

(١) . (٢) عالمان من كبار علماء الفلك

سراً خفياً أكثر من صنع أية فطيرة من الفطائر - هذا عدا ما لدينا من المباحث الطوال عن عقد الاجتماع ومقياس النوق وهجرة الأسماك وعدنا ما اهتدينا اليه من نظريات القيم والأجور وفلسفات اللغة والتاريخ والخزف والأشباح والجنور - والواقع أن حياة الانسان بمخايفها وظروفه بأجمعها قد هتكت عن بواطنها الحجب وأميطت عن غوامضها الاستار حتى لا تكاد ترى قطعة أو نسيجاً من روحه أو جسمه أو مقتنياته وملكه الا قد سبرت واختبرت وشرحت وقطرت وجففت وحللت .

فلقاتل بعد ذلك أن يقول كيف كان إذن أن العلم قد أعرض كل الاعراض عن أعظم النساء شأناً وأكبرها خطراً ، عن النسيج الحقيقي الوحيد أعنى النسيج الثوبى الذى يحاك من الصوف أو ماعدها والذى تتخذه النفس الآدمية دناراً شاملاً تلفت فى أثناءه وتحتفى بحماه فيكون لها غلافاً ظاهراً يحجب ويحوى ما للانسان من سائر النسيج . نعم لقد نرى فى بعض الاحايين مفكراً مهيض الجناح يلقي نظرة كمنظرة البومة المشواء شطر ذلك الاقليم الغامض الارزاء ولكن معظم الفلاسفة والمفكرين يحلقون فوقه ضارين عنه صفحاً معرضين عنه كشحاً معتبرين الملابس للانسان خاصة خطيرة لا ظاهرة عرضية كأنها تخلق لنا غموراً ورهواً يحكم الطبيعة كما تنفطر الاوراق على لحاء الأغصان وكما ينبت الريش فى أجنحة الطيور . فهم يصورون الانسان ضمناً فى جميع مؤلفاتهم حيواناً مكسواً مستوراً والحقيقة أنه يحكم الطبيعة حيوان عار مكشوف ، لا يستطيع تغطية بدنه باللباس الا فى أحوال معلومة بعد أن يعتمد ذلك تمهداً فيتخذ له أهبطه ويدبر له حيلته . يقول شكسبير نحن خلائق نرى بأبصارنا خلفاً وأماماً . فيا للمعجب ففعل ذلك ثم لانهم

بالنظر حولنا قليلاً حتى نرى ما يقع تحت أعيننا وما يجري بين أقدامنا .
ولكن في هذا المقام - كما في سواه من المقامات - نجد الألمان أهل
الرأى والمرفان والمثابرة التي لا تعرف الونى والكلال - يتقدمون الى
موتنا وإسمافنا . وانما نعمة من الله أن يظل بين البلاد في هذا العصر
المضطرب والزمن العصيب بلد يحذ فيه البحث النظري مأوى وملجأ وأنه
بينما ضوضاء الفتن السياسية والقلق الدينية قد أصمت آذان الفرنسيين
والانجليز ، لا يزال الألمان قادراً على الوقوف في مرقبه العلمى ثابت الجنان
يعلمن للجواهر المتخبطة حوله في كل مكان كم تكون الساعة آنا بعد آن .
وكثيرا ما يلام الألمان على اجتهدهم في المباحث النظرية القيمة كأنهم
عدلوا عن سواها السبيل الى مفاوز قاحلة لا يجني سالكها غير وعثاء السفر
وكأنهم صدوا عن المناجم النهمية التي في المباحث المالية والاقتصادية وانطلقوا
من النظريات في فياف جرداء جل حظهم منها أن يرتطموا في بعض مناقمها
النائية . والحق اننا لا نستطيع الدفاع عن ذلك العلم الأحمق الذي يحصر
حمة كما يقول الشاعر الفكاهى « في تقدير احجام الدنان بالمقياس الهندسي »
كلا ولا نستطيع الدفاع عن ذلك النشاط الضائع الذي نراه مشيحاً مجدداً يدرس
تبناً محضاً . فان كانت هذه التهم في حق الألمان صحيحة فلنتركهم وشأنهم
يتحملون مغبتها . وانما نريد أن نقول كلمة من باب الملاحظة وذلك أنه ما من
مسرحة قفر الا وفيه بقع خصبة وأكلاء مربعة ، وهذه فيافي سبيريالى التي يضرب
المثل بأعمالها لا تعدم ما يزينها . من كل زهرة زهراء وبقعة نضراء ، وكل من بلد
تقتحمه العين على البعد ولا تحسب فيه غير صحار قفراء تحملها صخور صلاه
حتى اذا أقيمت اليه تكشف عن كل منظر رائع فتان وكل واد ناضر العشب

متزع التدران ، فيا للمعجب أترى فن النقد لا يكتفي بأن ينصب في طريق العقل
أعلاماً تهديه بل هو يريد أن يقيم حوله أسواراً ويضرب دونه أسدادات ؟ لقد
جاء في الكتاب المقدس « أن كثيرين سيقبلون ويدبرون ويضربون في
أكناف الارض ويطوفون وبذلك تزداد المعارف وتنكشف العلوم »
والقاعدة الجلية هي بلا ريب أن ندع كل انسان يخفى في سبيله وننظر
الى آية غاية تقضى به ، فلنكم رأيينا من مخاطر جوال سلقه الناس بالسنة التعذال
قد عثر في تطوافه على إقليم شاحط مهمل ولكنه من الخطورة بالمكان
الأرفع ، فكان ذلك المخاطر أول من استثار مكنون دقاته وما زال يعلن للملا
نبأ استكشافه حتى توجهت الانظار والمجهودات الى حيث يشير وبذلك
تم الفتح . فكانت هذه الجولات التي لم يكن لها في الظاهر غرض معلوم
سبباً في رفع أعلام جديدة وإنشاء مستعمرات حديثة في ذلك الاقليم الشاسع
الارجاء المحيط بنا من جميع الانحاء - اقليم المجهول . فله درك أيها
الحكيم حيث تقول « من حقوق العقل أن يكون مفسوح المجال لمحاول
العقل ينهب غير خائف ولا وجل حيثما شاء من مناحي الرأي ومذاهب التفكير »
وربما كان في اعترافنا معشر الانجليز لأول مرة بأن شيئاً من فلسفة الملابس
لم يخطر على بال أحد منا قبل اليوم دليل على ما وصلت اليه العلوم النظرية فيما
ينتنا من الوهن والاضمحلال وبرهان على أن عظمتنا التجارية ودستورنا
النفيس قد ضيقا على انفسك خناقه وشدا وثاقه . فأى ذهن انجليزى كان
يستطيع التعرض لهذا الموضوع الفلسفى صدفه و اتفاقاً ، بله تعمداً واختياراً ؟
والواقع أن هذا المبحث النظرى الدقيق كان على خطورته لاحالة يلبث أبداً الدهر
مهملًا لولا تلك العيشة الحرة الطليقة وان شئت فقل المحجة المعزولة التي

يميشها الالمان فنسمح لهم بل نحضهم على التصيد بجميع أصناف الشباك في جميع أنواع المياه.

وان ناشر هذه الصحف بالرغم مما يدعيه لنفسه من اعتياد التفكير الفلسفي والنفوذ في البحث المنطقي ليعترف بأن هذه الخواطر الجلية عن افتقارنا التام الى فلسفة الملابس لم تخطر بباله الا منذ عهد قريب ولم ترد الى ذهنه الا من مصدر أجنبي أعني من كتاب جديد ألفه الاستاذ «تيوفلسدروخ» في هذا الموضوع موردا كلامه في أسلوب لا أدري ان كان مفهوماً أو غير مفهوم ولكني أعلم أنه من الغرابة بحيث يستوقف أنظار العمى فضلا عن المبصرين ، ولقد تصفحت هذا الكتاب المعجيب المرة بعد المرة وتأملت فيما حوى من الآراء والنظرات فكان لها في نفسي أشد وقع وأبلغ أثر .

والكتاب مطبوع في مدينة « وستنشتو » حيث يقيم الاستاذ واليك بعض ما قال فيه مفرظه « تقدم الى القراء كتاباً من ذلك النوع الكبير الحجم الدقيق الحروف ، الدقيق الآراء ، الذي تقول ولا تغر ولا عجب ليس له مثيل في غير المانيا بل في غير « وستنشتو » وقد قامت بطبعه شركة « ستلشويجن » فاعتنت باتقان ظاهره كل الاعتناء أما باطنه فقد حوى من الفضل ما يرفعه عن منزلة الاهمال ويحمله قبله الخواطر والاذهان » ثم يتحدث المقرظ مقالاته بقوله « كتاب يلذ الباحث في العاديات كما يلذ الباحث في الفلسفيات ويفيد طالب الأدب كما يفيد طالب التاريخ وآية من آيات الاقتدار والجرأة ، وثقوب النظر والحدة ، وأثر من آثار الألمانية المستقلة المحضة ، لن يقابل ولا شك في المقامات العالية مقابلة خالية من الاعتراض ولكنه سوف يرفع اسم صاحبه الى أرفع طبقات الفلسفة في هيكل الشرف الالمانى »

وقد زعمى لنا مؤلفه - الأستاذ الفاضل - حق المودة القديمة فأهدى
الينا نسخة منه وشفعها بكلمة من الثناء يمننا من نشرها الحياء ولكنه لم
يردفها بطلب أو رجاء

الفصل الثانى

مصاعب فى سبيل النشر

إذا كان طالب العلم لا يرى أن فتحاً من الفتوح هو أعجب وأعلى وأشرف
وأسمى من الاطلاع على طريف الآراء وجديد الأفكار فجدير بنشر هذه
الصحف أن يمد يوم تسلمه كتاب الأستاذ يوماً أغر محجلاً ، والحق
انه كتاب كبير الحجم جم الملاحظات غزير المادة متنوع الأبواب : بحر زاهر
بالخواطر والفكر غير هادى ولا رائق ولكنه لا يمنع أجسر النواصين من
الغوص فى أعماق أغواره فيعود منها لا بمجرد الحثالة والنفاية بل أيضاً بصادق
الدروقيس الجواهر .

والواقع انى ما كنت أطلع على الكتاب لأول مرة بل ما كنت
أتصفحه لأول وهلة حتى تبينت بين يدي فرعاً جديداً من الفلسفة يفضى
الى نتائج بعيدة لم تظهر بعد للعيان ولم تدر قط فى خلد ولا حسابان وحتى
علمت انى قد عثرت على شيء لا يقل عن ذلك شأنًا وخطورة وهو شخصية
جديدة عذبة اللبيل وأخلاق غريبة منقطعة النظير ، أعني بها شخصية الأستاذ
تيوفلسدروخ . فمقدت العزم على بذل ما أوتيت من حول ومن طاقة فى
تعرف هاتين الطريقتين ولكن لما كان الانسان بحكم الطبع مولعاً باصطناع

الاتباع واتخاذ الاشياء فاني ما كنت أسرع في امضاء تلك العريضة حتى واجهتني مشكلة جديدة وهى : كيف السبيل الى إشراك الغير فيما حصلت عليه من الخير، وكيف يمكن تقريب فلسفة الملابس ووضوحها من افهام أبناء وطني وبني جيلتي ؟ فائن صح ما يقال عن الذهب الحديث المكتسب أنه يكاد يحرق جيب صاحبه ان لم يقذف به في مجال التعامل فأولى وأحرى بالحقائق الجديدة أن لا تدع مستفيدها يذوق طعم الراحة حتى يلقي بها في تيار الآراء .

يبد أنى ما لبثت حتى قامت العقبات في وجهي اذ رأيت انى لو خاطرت بنشر فلسفة الملابس دون ترجمة الفيلسوف ولو أقدمت على شرح مذهب الأستاذ وآرائه دون إيضاح تفسيره وأخلاقه لعرضت كلا الأمرين لسوء الفهم . وكنت كلما فكرت في انشاء ترجمة للمؤلف لم أجد بين يدي من المعلومات والمستندات مادة أعول عليها وذخيرة أرجع اليها ، وما كان لى في الحصول على شيء من ذلك أدنى أمل ، وكذلك مكثت برهة لا أجده سبيلاً الى نشر هذه الحقائق الغريبة والمبادئ المدهشة فجعلت أجعلها في أعماق ضميري وأقلبها في ظلام جراحي وأنا أعانى من القلق ما أعانى .

ومرت الأيام وانسلت الشهور وقد طالعت الكتاب المرة بعد المرة فشرعت معانيه الغامضة تتوضح وتتأرجح في غير موضع وجعلت شخصية المؤلف ترداد في نظري غريبة وشذوذاً والتباساً وتعقيداً حتى اذا كاد القلق الذى يخامرني يستحيل سخطاً مستقراً أو يأساً مستعراً لم يرعنى الاورود خطاب من المهر هفوات هشرك أعز أصدقاء الأستاذ أفاض فيه عما أحدثته فلسفة الملابس من الضجة في عالم الأدب الألماني وأسهب في وصف

ما لكتاب صديقه من الفضل الجزيل والخطر الجليل وما يرى اليه من بعيد
الاعراض وخفي المآرب ثم أشار تلميحاً الى إمكان التنويه بالكتاب والاشادة
بالمؤلف بين معشر الانجليز وقال ان صدور كتاب عن الامتاذ تيوفلسدروخ
أمر جدير أن يقابل بالهتاف والترحيب وحقيق أن يحدث ثورة فكرية يرحم
لها عالم الازهان ثم ختم خطابه مصرحاً بأنه اذا شاء ناشر هذه الصحف انشاء
ترجمة للأستاذ فهو مستعد لتقديم المستندات اللازمة .

وكما أن بعض المخاليط الكيميائية التي تكون قد مضت عليها برهة
من الزمن وهي تتباخر وتأتي التبلور - لا تلبث متى انغمس فيها السلك
أو ما عدها من المواد المثبتة أن تأخذ في التبلور وتسرع فيه حتى يتم على الوجه
الأكمل فكذلك كان مثلي ومثل المساعدة التي عرضها على المهر هفريات . فإني
نشبت خواطري ان تبدلت من الفرق والانتشار ، التجمع والاستقرار ،
فاتحد المثليل بمثيله والتأم النظر بنظيره وتهايم من المجموع صورة جليلة وفكرة
منظمة وتمثل أملى المشروع بخذافيه ان لم يكن في حيز الوجود المحقق
فعلی الأقل في حيز الأمل الممكن .

وليس هنا محل البحث في كفايتنا لتولى هذا العمل ومقدرتنا على
الاضطلاع به بل حسب القارىء أن يعين النظر فيما نحن مقدمون اليه وأن
يستمتع بما نحن عارضون عليه مستعينا على ذلك بكل ما أوتى من قوود
البصيرة وقوة التأمل وحسن النية وصدق الادراك ولينظر في هذا الكتاب
بذهن مبرأ من سوايق الاوهام وبقل طليق من قيود التضرع حاصراً فكره
في ذات الكتاب دون ناشره .

وليأمن القاريء أن يرى من جانبنا ميلاً الى الهابة فليس ما يتناوين

الأستاذ من صلات المودة بقادر على التأثير في حكمنا بحيث يدغمنا الى تلطيف
سبباته أو تجسيم حسناته . نعم انا لنحفظ له أطيب الذكريات وخير المهود
فأرأينا ولن نرى أمثال تلك الليالى الحسان والمجالس الكريمة اذ كانت
تفيض علينا الحكمة من ينابيعها الصافية وتشعينا الفصاحة بأنفاسها الرخيمة !
ولكن ما وراء ذلك ؟ اذا كان الأستاذ صديقنا فالحق ألهمنا وانا لنترجو أن
نكون في مهمتنا الحاضرة غرباء عن الناس أجمعين ليس لأحد عندنا حظوة
ولا في صدرنا عليه ضغينة وقد رأينا من المناسب أن تقدم هذه الملاحظة
بين يدي التمازى ، فقد بلغ النش والكذب والخداع في وقتنا هذا مبلغاً لم
تبلغه في زمن من الأزمان حتي أصبح من المحتم على ناشر الكتب أن يفعل
كما يفعل أصحاب الحوائت في بلاد الصين فيكتب على صدور مطبوعاته
« ليس هنا للنش مجال »

الفصل الثالث

ذكريات

لم يكن ظهور هذا الكتاب ليحدث في نفسنا من الدهش أقل مما
أحدثه في سائر أنحاء المعمور . والواقع اننا ما كنا لنشيء من الاشياء أشد
استبعاداً منا لظهور هذا الكتاب . فلقد عرفنا الأستاذ فكان في عهد
اتصالنا به رجلاً هادئاً ودعماً يؤثر الصمت والسكينة ، ويمنح الى العزلة
والطمانينة . ولئن كان بمباحث الفلسفة العالية كلفاً مولماً فلقد كان اعتقادنا
فيه أنه لا يميل الى النزول الى حومة التأليف فاذا نزل يوماً فأنما يكون ذلك

لتنفيذ آراء بعض الفلاسفة لا للاتيان بمنهب جديد لا يمكن أن يكون من شأنه الا تأجيح نار الجدال وتوسيع هوة الخلاف .

وما ننس لا ننس آخر كلمة سمعناها منه في تلك الليلة التي لا يزال عهدنا منطبعا في ذاكرتنا . كنا مع الاستاذ في ناد يختلف اليه كل عشية أفاضل القوم وصفوة أهل العلم فنهض وقد رفع الي فيه كأس الجمعة وقال بصوت خفيض يهز الاقنعة وبالحاظ تحسبها الحاظ بمعض الملائكة - وان كنت لا تدري بمد هل هو ملاك علوى أم ملاك سفلي - (أقترح عليكم أيها الاخوان أن تشربوا هذه الكأس في محبة الفقراء) فارتفعت ضجة عالية مزقت رداء السكون وتلاها صوت قرع الكؤوس ثم أصوات الهتاف والتهليل وكان ذلك في آخر السهرة فنهض الحاضرون وهم في ريمان الطرب وعنفوان النشوة ، وانقض المجلس بين منعقد سحائب البخان وقفل كل منهم راجعا الى وسادته الهاجسة ، عندئذ سمعت أحدهم يقول (اني لأخشى على الاستاذ هذه النزعة الديموقراطية وأخاف أن تسوقه الى المشنقة يوما من الايام) فتلقت بعضهم يفتقده فاذا هو قد تسلل في بمض الازقة . وكان هذا خاتمة عهدنا به وآخر مجلس ضمنا واياه .

في مثل هذه المواقف كانت حياتنا مع الاستاذ وبمثل ذلك الميعار كنا نقدر مواهبه وأغراضه . ومن كان يدرى اذ ذاك ما انطوت عليه جوانحك أيها الفيلسوف ؟ لقد كان تحت تلك الندائر الوحفة الضافية المشرفة على أوقر وجه رأيتاه في الوجوه ذهني مستديم النشاط . وفي تلك العيون الساجية الغائرة أو لم نلح وميض أنوار علوية أو نيران سفلية وهل لم يُخيّل إلينا أن ذلك المهود البادئ ليس الا سكينته الحركة الخالعة ونوم الخلدروف الدوار ؟ على

أن جسمك الضئيل أيها الاستاذ - وأنت جالس هناك بين ركم المفاتر والكتب في ثيابك المنيرة البالية تقني رياض أيامك في التفكير والتدخين كان يضم قلباً كبيراً . لقد كنت ترسل نظرك الثاقب في ألغاز الكون وأحاجيه فتبلغ من أعماقها ما لا يبلغه سواك ، وكانت تبليج لك أسرار الحياة عن معانيها المكنونة ؛ وينكشف لك حجاب الغيوب عن غبائته المصونة . نعم كانت فسفة الملابس هذه مودعة في صدرك وكانت هذه الخواطر الغريبة تجول في ذهنك ، فمن ذا الذي كان يتصور يومذاك أن سداة هذا الكتاب العجيب كانت منصوبة على النول وأن الوشائع كانت تضع اللحمة في صمت وخفوت ؟ ولكن الناس قلما يفهمون أعظم الرجال بل كثيراً ما يفهمونهم على غير حقيقتهم وهو شر وأدهى .

ولا ندرى بمدى كيف سيهتدى المهر هفرات الى جمع معلومات نبني عليها ترجمة حياة الاستاذ والحق أن هذه مشكلة معضلة ولكن من حسن الحظ أن الجواب عليها ليس من شأننا . ولقد حاولنا مراراً ونحن بمدينة وسينتشتو أن نقف على سيرة هذا الفيلسوف فما كان البحث في المحفوظات ولا سؤال الواقفين على حقائق الأخبار ليجدنا فتيلاً ، وكل ما اتضح لنا أنه غريب طرحته الى تلك المدينة مطارح النوى ، وشد ما تطلع الناس الى الوقوف على أصله ومنشئته وآماله وما ربه ولكنهم ما كانوا ليعثروا الا على بيانات غامضة وأجوبة مبهمه . وما برح الاستاذ يلتزم السكوت وينفر من التبسط والمخالطة فكان القوم يتهيبون سؤاله فاذا اجتراً امرؤ على ذلك أجابه في الحال جواباً لطيف التخلص جارج الحد يرد السائل عن تطفله ويعنمه من إعادة الكرة . وكذلك صار معظم الناس ينظرون اليه لا كأنه من أبناء آدم وحواء .

بل كأنه شيء من الأشياء اعتادوا رؤيته دون أن يفكروا بمد في شأن من شؤونه .

وقلما كان أهل المدينة يبصرون الأستاذ أو يشعرون به الا عند ظهوره مساء في النادي فهناك يجلس مكباً على صفحات الجرائد أو متأملاً في سحائب الدخان المنبعث من لفاثته وليس له في الظاهر شاغل سوى ذلك . وكان في كل أحواله موضع الإعجاب لوداعة أخلاقه وحلاوة شمائله لا سيما اذا فصر فيه للكلام ، فهناك تخفت الأصوات وتشخص الأبصار وتشرئب الأعناق ترقباً لما يفوه به من جوامع الكلم . وعندئذ ربما أطرد في حديثه فيفيض على السامعين من روائع القول تياراً متى ذابت ثلوج منابحه قطع الساعات الطوال وهو يتدفق تدفقاً وينهمر انهماراً . وكان مما يزيد حديثه وقماروعة صدره من رأس لا تخالها أشد به شعوراً أو أعظم به اهتماماً من رأس بعض الفوارات العمومية التي ترسل الماء من فوهتها النحاسية لكل من الرفيع والوضيع والشريف والخصيس لا تبالى بأى غرض يؤخذ له ولا فى أى وجه ينتفع به ، سواء عليها أجهز به الطعام أم أظنيء به الحريق ، بل هى لا تنفك تنظر اليك نظرة واحدة وتبدي لك هيئة متماثلة ، سواء تفجر منها الماء أم لم تفجر . وكان الأستاذ عنحننا من التبسط والإيناس ما يرضن به على أكثر الناس ، فليتنا أدر كنا يومذاك بعض ماله من فضل وليتنا تأملناه بالعين التي كان بها جديراً ! وقد تفضل علينا فأباح لنا من حى بيته ما لم يبحه الا لأعز أصدقائه وأخلص أصفياه ، وكان الذين يتمتعون بهذا الامتياز لا يتجاوزون ثلاثة أشخاص . شاهدنا مسكنه فإذا هو أعلى طبقة فى أعلى بيت بالمدينة يشرف على ما حوله من البيوت أشرف القمة الشاغرة على ما يكتنفها من الهضاب

والبجود ، وفي هذه الطبقة نوافذ تطل على الجهات الأربع فيظل ساكنها كأنه في مرقب علوى يرصد منه وهو وادع في كرسيه تيار الحياة متدفقا في انحاء المدينة ويشاهد معظم الشوارع والأزقة بما حوت من نشاط وحركة . ولقد نذكر فيما سمعناه منه قوله : « لى لأطل من هذا المرقب على تلك الخلية الجائشة بالنحل أو ذلك الوكر المثلئ بالزناير فأشاهدها وهى تفرز الشمع وتنجع الشهد وتخمر السم وتحتق بالكبريت . فن القصر الرفيع حيث تصدح الانغام الرخيمة والأمير الجليل يتناول النداء ، الى الزقاق الوضيع حيث تجلس العجوز الشمطاء على عتبة الدار تصطي شمس الأصيل وتمتصر من عمل أناملها مسكة الحوباء - كل ذلك أراه بعيني اذ ليس في هذه المدينة شىء هو أرفع منى مكانا غير مروحة الرياح التى تبصرها هنالك . فن هاهنا يصل عمال البريد حاملين الأفراح والأتراح محزومة فى الخفاف والعياب ، ومن هناك تأتي عربة « البارون » تعدو بها أربعة مطهات ، وهنالك ترى الجندي الأعرج يظلم بساقه الخشبية مستنديا للأكف - هذا الى ما لا يحصى من العربات والكرات ترد من الأرياف موسوقة بالأطعمة والخامات ثم تصدر مشحونة بالسلع والمصنوعات - فهل لك أن تخبرنى من أين يأتى وإلى أين يمضى هذا التيار المتلاطم الذى مازال يتدفق فى تلك الشوارع على مدى الأزمان وتماقب الأحوال ؟ من الأبدية الى الأبدية . هذه الأشباح التى تراها ان هى الا خيالات وأطياف . أليست كلها أرواحا أبرزت للعيان بفضل هذه الأبدان التى لا تكاد تتخذ هذا الشكل المنظور حتى يسرع اليها البلى وتتلاشى كالهباء المنثور ؟ بلى ان هذه الأشباح لتسير فى الحياة والعدم فاغرفه من تحت أقدامها ، والوقت الفضاء محيط بها من خلفها .

وأمامها ، حاسية أنها تظاً مهاداً وطيداً وما تظاً في الواقع الا صورة من صنع
الحواس وخيالاً من تهاويل الشاعر . أم هل تظن ذلك الضابط الذي يسير
هنالك وهو يقرع الأرض بنعليه ويبتيه على الناس بمطفيه ان هو الا ان اليوم
لا أمس له ولا غد وليس بينه وبين أبويك الأولين سلسلة متصلة الحلقات
عن الآباء والأجداد ؟ ليه يا صاح ان هذا الذي تراه هو حلقة حية في نسيج
التاريخ الذي يضم في لحمته وسداه كل مظهر من مظاهر الحياة . »

وسمناه مرة أخرى يقول في منتصف الليل وقد عدنا من الناحى الى
البيت « حقاً ان في السكنى بهذا المكان لرفعة وجلالا ، انى لأنظر الى تلك
الأشعة تنبعث من المصاييح وتعتز خلال سحائب الدخان وضباب الأقباس
حتى تقطع بعض الفراسخ في ملكوت الليل القديم فأسائل نفسي ليت
شعرى ماذا ترى النجوم الثواقب في هذا الشعاع الضئيل ، وماذا يدور في
خواطر الكواكب عن هذا الضياء الكليل ؟ وانى لأنصت الى ذلك
الدوى الخافت الذي يصعد من جوف الليل وقد هدأت حركة الأخذ والعطاء
في سبات عميق وانطلقت عربات الغرور تحمل أصحابه الى المقاصير ذات
الأضواء الرفيقة اللامعان والمضاجع الوثيرة الأكنان ولم يبق في خارج المنازل
غير البؤس والرذيلة فأقول في نفسي ان هذا الدوى الخافت - الذي كأنه
غطيط الحياة السقيمة في نومها المتقطع المذعور - ليتجاوز منطقة الجوزاء ،
ويصل الى مسامع السماء . يا لله ! أى خاية تختم وتغور تحت هذا الغطاء
البشيع المنعقد من أنواع الأبحرة والأقذار ، والغازات والأضار ! هنالك
الفرح الجذلان والحزين الأسوان ، هنالك يجود المحتضر بخاتمة زفراته ، وعلى
بضعة أشبار منه يستهل المولود بفاتحة عبراته ، هنالك الورع المتعبد يحيى

الليل بالتسبيح والدعوات ، والى جانبه الشق الملحد يقطع المزعج بالسباب
واللعنات : كل ذلك هنالك لا يفصل الضد عن ضده الاحجاب رقيق من
الخشب والمدر ، والطوب والحجر ، والليل الفضاء يحيط بالجميع فى ظلامه
الرهيب ، ويضم الكل فى صدره الرحيب . بلى يا صاحبي ما أعجب
ما يجرى تحت جنح الدجى من المتناقضات ، فأهل الترف والخيلاء يلهون
فى الحجرات ذات الأرج الوهاج ، أو يضطجعون على وثير الفرش بين ستور
المقس والديباج ، وأهل البؤس والشقاء يتوارون فى الأكواخ الخفية
الجافية ، وينطرحون على الفرش المقصّاة النائية ، مرتعدى الفرائس من لدغة
القرمليتهى الأحشاء من حرقة الجوع ، والعاشق يهمس فى أذن معشوقته ان
العربة متأهبة للرحيل فتنسل معه بين الخوف والرجاء ، الى بلاد الله الواسعة
الفضاء ، والشارق يتحفز فى خفة وخفوت لاقتلاع القفل من موضعه ،
أو يتربص غفلة الحارس فى مرقبه — وفى القصور البهيجة ذات الملاعب
الفيحاء ، والمراقص الروحاء ، ترى أهل النعيم بين الألحان الشجية ،
والأنوار البهية ، يتدفق من جوانبهم ماء الطرب والفرح ، ويطمح فى عروقهم
دم الشباب والمرح ، وفى غيايات السجون ، يقيم الأشقياء والمجرمون ،
تتناوبهم من الجزع دواعيه ، وتساورهم من الفرع أفاعيه ، وقد باتوا بقلوب
وانية النبضان ، حسيرة الخفقان ، يقلبون خلال الغيايب المحدقة بهم من
الظاهر ، والظلمات المنتشرة فى ضامئهم من الباطن ، عيوناً قريبة الأماق ،
دائمة الاحداق ، تترقب مطلع الفجر المكفر . ان نيفاً ونصف مليون من
الحيوانات المرط ذوات القائمتين يرقدون حولنا فى أوضاع أقيية :
دروسهم ملفوفة فى قبعات المنام ، وأدمغتهم محشوة بأسفن الأحلام .

هنالك في مواخير الفجور وبؤر الفساد تصيح المربة بأعلى صوتها وهي
تترنخ يئنة وشمالاً ، وتمايل وقاحة واختيالاً ، وفي غرفة المرض فوق سرير
الموت تحنو الأم المولمة على طفلها المصفر المحتضر مسترسلة الندائر تبتل
بدموعها المستمرة وجنتها لذابتين وشفته اليابستين . كل هذه المخلوقات
مكدسة أكداساً مكومة أكواماً لا يفصل بينها الا القليل من الأبنية
والأخشاب ، فاهي في ازدهامها الا كالسك المملح في البراميل ، وماهي
في تموجها الا كالأفاعي المحبوسة في القناني ، كل منها يحاول أن يرفع رأسه
عن أقرانه ، ويسمو بهامته عن أخدانه ! فيالله كل ذلك يجري تحت هذا
السراق المنفقد من اللخان والبخار ولكني أقيم هنا في عزلي وصفائي وورفتي
وسنئي وحيداً فريداً أراعي نجوم الليل وأنجي كواكب السماء ! »
فتأملنا في حيا الاستاذ كي نرى ما يرسم عليه من أمرات الافعال وهو
ينطق بهذه الخواطر الغريبة والهواجس الرائعة ولكننا لم نبصر غير السكون
المألوف والوقار المهود .

في هذه الاوقات وأمثالها كان يطيب الحديث الفيلسوف أما في غير
ذلك فقلما ينبس الا بالألفاظ فرادى وربما التزم الصمت التزاماً وأخذ في
التدخين تاركاً لرائحه الحرة المطلقة فيما أن يقول ما يريد دون أن يتلقى من
الاستاذ جواباً غير مهممة تصدر منه الحين بعد الحين وإما أن يتلقى حواريه
برهة ثم ينسل في صمت وسكون . وكان الاستاذ يقيم في غرفة غريبة الشأن
عجيبة المنظر : مكتظة الفناء بالكتب والدفاتر ، ممتلئة الفضاء بالأقلام والأوراق
والخابر ، في كل ناحية قصاصات من كل مادة تصورها العقل ، وفي كل جهة
دوات من كل نوع يتناوله الوم ، يضم الجميع عنصر شامل من الغبار ، ويمتد

على الكل ظل عيم من الاهمال ، كتب فوق المكاتب وكتب تحت المكاتب ،
هاهنا قرطاس يخفق ، وهناك منديل ممزق ، في هذا المكان حذاء مطروح ،
وفي ذاك الموضع ابريق مبطوح . وكان للاستاذ خادم عجوز تسمى « ليسخن »
تقوم له بجميع المرافق فكان له منها طاهية وكناسة ، وغسالة وعصارة ،
ومدبرة وقهرماته ، وكانت مجبولة على حب النظام والنظافة ولكن الاستاذ
كان لا يبيع لها الدخول في غرفته الخصصة وهي حرمة المحرم وقنسه
للقلمس ، بيد أن ليسخن كانت تقتحم عليه هذا الحصن الحصين مرة في كل
شهر ، فتزبل بالكنسة والمنفضة جانباً من كتيان النفايات ، وفي أثناء ذلك
يكون هو قد أسرع الى انقاذ قراطيسه ومؤلفاته ، وهرع الى التقاط أوراقه
ومصنفاته . وكان الاستاذ يسمى هذه الهجمات « نوبات الزلازل » وكان
يخشاه أكثر من السيل الجارف والوباء الدريع ، غير أنه كان يستسلم لها
استسلامه للقدر المحتوم . وبوده لو أتيح له أن يقيم على النهر سابحاً في
خواطره وأحلامه غرقاً في تأملاته وإبحائه ، لا تفكر حوض صفائه مكنسة
ولا تقطع تيار آرائه منفضة الى أن يخرج من الغرفة ركام الكناسة ولكن
ليسخن كانت يده اليمنى ومعينه الكبرى وقوام حياته ومهاديته . فلما
كان يستطيع أن يرفض مطالبها رفضاً باتاً ونحن لا نزال نذكر تلك العجوز
الشمطاء ، نحسبها لفرط الصمت خرساء ، وربما حسبتها كذلك صماء ،
فاتها ما كانت لتخدم أحداً من الخلق ولا لتحتفل بأحد من الناس غير سيدها ،
وكانت تتفام وإياه في أكثر الأحيان بالوحي والايام ، ان لم تكن تهتدى
الى مطالبه بنوع من الالهام الخفي . لك الله آيتها العجوز ما كان أشدك مضاه

في العمل ودؤوباً ! لقد كانت تقضى اليوم في الكس والتنظيف والترتيب والتنسيق من غير أن تكدر السكون بأخفت جرس ، وكنت ترى كل شيء مع ذلك علي أتم نظام ، وفي أحسن ترتيب واحكم : تأتيك القهوة في ميعادها ساخنة سوداء ، وتقف أمامك المرأة في صمتها وسكونها تنظر اليك من تحت قبعتها بوجه تبرق أساريره وضاعة ونظافة ، وبعين تم عن فطنة وذكاء بل عن كرم ومروءة .

وكان بيت الفيلسوف كما أسلفنا حتى مصوناً لا يفشاه الا القليل من الغمراء ، وما كنا نجد عنده أيام تردنا عليه غير « المهر هفرات » وقد سبق تعريف القراء به . وكنا نرى فيه يومئذ أحد أولئك الأفراد الوديعي الأخلاق الطويلي الأعناق المزروعي الأفواه النظيفي الثياب الذين يمتازون بين أفراد المجتمع بأنهم لا يتركون استعمال المظلة لا في الصيف ولا في الشتاء . ولولا عملنا بأي مقدار طفيف من الحكمة تسير في هذه الدنيا الأمور ، وبأي جزء زهيد من الفطنة تحكم الجماهير ، وبأن الأمر في ألمانيا لا يختلف عنه في سائر أنحاء الدنيا وذلك أن تسعة وتسعين في كل مائة من أولى الحل والعقد ليسوا الا اتباعاً للفرد الباقي وغاشية ، وأذناباً له وحاشية - تقول لولا علمنا بذلك لهالنا أن يكون هذا « المهر هفرات » مستشاراً في مجلس المدينة . عجباً والله أية نصيحة يستطيع أن يسديها ذلك الانسان الذي لم تأملت قامته للمسترخية العرجاء وسحته المجفء وتذبذب وجهه واضطراب رأسه لم تتبين غير الارتباك والاختلاط ، والجبن والاحجام والاختباط ؟ غير أن الرجل كان لا يخلو من بنور الفضل وقد أحسن الاستاذ ما شاء في وصفه حيث قال « إن له قلباً ومقدرة أو كان له شيء من ذلك في وقت من

الأوقات على الأقل ، ولكنه لم يوفق الى اظهار ملكاته أو لم يساعده الحظ على استثمارها ، فنصفه قد أصبح الآن متصدعا ونصفه لا يزال متجمدا « ولتصور القارئ ما سوف يحول في خاطر « المهرات » عند اطلاعه على هذه الأقوال ولكن ذلك لا يمننا ما دنا معتصين بمروءة الصدق في اثبات التاريخ ، متحصنين بمقل الأمانة في تدوين الاخبار .

يبد أن الذي يهمننا في هذا المقام هو تعلق المهرات بالاستاذ فقد كان شغفه به واحترامه إياه لا يقلان عن شعور « بوزويل ^(١) » نحو الدكتور « جونسون ^(٢) » وربما كان الجزء في الحالتين على حد سواء . فان الاستاذ كان لا يظهر لصاحبه الا قليلا من الاعتبار وكان حبه إياه من قبيل الشكر والاعتقاد . أما « المهرات » وكان أكبر من صاحبه سنا وأعز جاهها وأكثر نشبا فقد كان يحنو على معبوده الفيلسوف بماطفة كلها اعظام واجلال ورعاية أبوية وحنان ، فكان الفيلسوف لا يكاد يفرقه حتى ترى المهرات قد شحاه فمكانه قد فتح بابا على مصراعيه ثم يلبث مرهقا أذنيه ، محمقا بيمينه ، كأن له في كل عضو وجارحة أذنا واعية وعينا نافذة ، حرصا على كل كلمة تقال وحفظا لكل حرف يلفظ .

في هذه البيئة كان يعيش الاستاذ في عهد اتصالنا به ، ولعله لا يزال كذلك حتى الساعة . ففي ذلك البرج المشرف والمرصد المنيف وتحت أعين النجوم الساهرة وفي سكون العزلة السائدة قد غامس هذا البجاعة القهار كل

(١) . (٢) الدكتور جونسون من كبار أدباء الانجليز في القرن الثامن عشر شغف به المستر بوزيل هذا فاقطع لصحبته وتبعه عنه كل آبهة وشاردة من أباديته وكناته ثم ضمنها كتابا موصفه في ترجمة حياة ذلك الأديب الكبير يد في باب من خير ما أخرج للناس

ما غلب من الممارك مع شيطان التباوة والجهالة، وأكبر الظن أنه في ذلك
الموضع بعينه قد وضع كتابه المدهش عن فلسفة الملابس .
ولو شئنا لأرسلنا القلم في وصف الكثير من عاداته وأحواله وأشبعنا
القول في ذكر العصر الذي كان يعيش فيه والثوب الذي كان يرتديه ، إلى
غير ذلك من التفاصيل ، ولكننا نمسك عن كل هذا . لالأنها أمور غير
جذبة بالذكر ولا حقيقة بالنشر ، فقد أصبح من المقرر في الازدهان أن
أصحاب المظلة الصادقة هم أولو الرأي والعرفان لا أولو الصولة والسلطان
وبذلك أخذ اهتمام الناس ينصرف بالتدريج عن الامراء إلى الحكماء .
ولكن هبنا تقدمنا في بيان تلك التفاصيل أيظن القارئ أن ذلك يدنيه
إلى معرفة الأستاذ ويكشف له عن أسرارها قبل أن فصل إلينا المستندات
الموعودة ؟ ان حياة الفيلسوف لا تزال سرّاً محجوباً ، كل ما نعرف عنها
لا يتجاوز الظن البعيد والتخمين الغامض . ولكن أليست روحه مودعة
في هذا الكتاب القيم ؟ إذن فلنصرف ههنا مؤقتاً إلى اجتلاء روحه ونفسيته ،
ونعرف آرائه وعقليته .

الفصل الرابع

مميزات ومفاهيم

من القروير والملقى أن ندعى لكتاب فلسفة الملابس الغلو من الشوائب
والتزهد عن العيوب ، وأنه ليس كسائر ثمرات المبقرية خليطاً من الوجد
والكشف والالهام مع ما ينافضها من الغباوة والغشاوة والعمى . وكيف

يسوغ هذا الادعاء ونحن نرى الشمس وهي أجل ثمرات المبقرية وأرفع
مظاهر الخليفة لا تخلو من كلف تشوب رونق لآلائها ، وسفع تشين
بهجة بهائها ؟

وحسبنا أطناباً في مدح الكتاب القول بأنه قد حركنا الى العمل
وأمدنا بروح من النشاط ، وهذا خير ثمرة لأفضل مؤلف ، بل انه لم يكف
بذلك حتى أحدث تغييراً في أسلوب تفكيرنا وحتى فتح لنا من العلم باباً
جديداً واقتض من البحث منجماً بكرة جديراً بأن ينقب فيه الباحثون الى
أعماق لا ينال قرارها ، وبأن يستثيروا من دقائمه طبقات لا تسبر أغوارها .
والواقع أن الكتاب في ذاته بما حوى من عجيب المتناقضات أشبه
شيء بمنجم جديد تجد فيه بجانب الكريم من الركنز والفزات ، كثيراً من
الأخبار والنفايات ، فيناله يروع القارئ بما أودع من آثار بارع المقدر
ونادر المواهب وطول الصبر على الفحص والاستقراء ونفوذ البصيرة وبعد
النظر وحسن السبك واشراق الديباجة ، اذاه يضجره بما تضمن من مواضع
الركاكة والاسهاب ومظاهر التعقيد والجفاء .

والظاهر أن الفيلسوف قليل الاختلاط بالطبقات الراقية أو هو قد
نسى جل ما رآه وتعلمه بينها ، فانه ينظر الى العالم بنوع من السذاجة المدهشة
ويسمى كثيراً من الأشياء بأسمائها الحقيقية الواردة عنها في القواميس اللغوية ،
فالمنجد مثلاً ليس في اعتباره رئيساً ريانياً بل صانعاً عادياً ، وأبهاء الاستقبال
ليست في عرفه مهما راع أثمانها ونغم رياضها معابد مقدسة ، بل هي في نظره وان
حوث كل موقن بديع من البسط والتمارق والمرآئ والأرائك لا تمدو كونها
«طقماً من الفضاء العديم النهاية يجتمع فيها طائفة من الأشباح المخلوقة من

روح الله فتقضى بين جوانبها ساعة من الزمن « وما النجمة التي تتلألأ على صدر الأمير بأجل في نظره ولا أحقر من الزرار الحديدي الذي يراه في شملة الفلاح « وأى فرق بينهما وكلاهما في باب أدلة وكلاهما يؤيدان عملاً واحداً هو شبك متفرق الأجزاء ذلك فضلاً عن أن كليهما قد أخرج من باطن الأرض وأحماه الحداد في كوره وطرقه على مسندانه « وكذلك ترى الاستاذ ينظر في وجوه الناس قاطبة بنظرة واحدة غريبة وبحرية علمية مدعشة ، كأنه لا يعرف من عادات الخلق وأوضاعهم شيئاً وكأنه قد سقط بين الناس من بعض الاجرام العلوية . وإذا تأملت حق التأمل ألفت هذه الخبيصة المللزمة لتيار أفكاره المتغلغلة في مطاوي سريره وطباعه منشأ كل ما يؤخذ عليه من وجوه الافراط والتفريط وضروب المغالاة والتقصير ومظاهر الاغراب والشذوذ اللهم ان لم يكن لهذه الصفات مصدر آخر - وهو أيضاً قريب الاحتمال - نعتي نزعاته الفلسفية العالية وولوعه باعتبار المادة وكل الأشياء المادية : معاني روحانية .

فالى عشاق العلم وأهل التفكير من هذه الأمة تقدم هذا الكتاب ونحن على ثقة بما سوف يحدثه من جيل الوقع وصالح التأثير . ومن ذا الذي يدري فقد يكون له أيضاً بمض النفوذ بين أهل المجون وعشاق الملاحى ، فما يؤثر عن الاستاذ قوله ان في كل « ياقة » مهما صلبت وغلظت من معالجاتها بالنشاء قسبة هوائية وان تحت كل صدار مهما أثقل بصنوف الوثى قلباً خفاً . فليس من المستبعد أن تخلص الى بعض هذه الأفتة المحجبة بلاغة هاتيك المعاني السامية ، والحق أن هذا الفيلسوف قد أودع قوة خشناء لم تقلها رياضة وقدرة مستكنة لا تشعربا فيها من بطش وقوة . وهى

صفات قل أن تجد لها - الا في أرفع مراتب الأدب - مثيلاً . فكم له في أسرار الطبيعة وسريرة الانسان من لمحات نفوس على الحقائق غوصاً ، ونظرات تقتنص الشوارد قنصاً ، وكم له من ألفاظ ماضيات ، تحز مفاصل المعضلات ، ثم تراه اذا رى غرضاً لم يكفه أن يمسه مساً ، بل ينحى عليه بقوساحقة حتى ينبس السهم في اللباب ، ويهتك عن الصميم كل غشاء وحجاب .

يبد أن لا تنكر مع ذلك أن صاحبنا الفيلسوف أبعد الكتاب عن اعتدال الوتيرة واستواء النفس ، فكثيراً ما نراه بعد الفراغ من إحدى هذه الفعلات المجيدة ينهب متمسكاً متخبطاً في صحائف عدة طوال ، يهذر بكل ناقه من السفاسف وسخيف من الأقوال .

كذلك أسلوب الكتاب قد جمع الى صادق البراعة ورائع المقدرة ما يشوه محاسنه من خشوة وجفاء وتنافر وشدوذ . فينما يكون طرفك رائداً في أثرى بستان من ألفاظ متخيرة ، وترا كيب محبرة ، وعبارات مشرقة الديباجة تقيه السبك ، وإشارات كوحى الملاحظ وخطف البرق ، وتشبيهات يقطر منها ماء الفصاحة ، ويتوقد فيها لهيب الشعر ، وتخلصات تسترق الخاطر وتسحر اللب - تقول ينما تكون رائداً في أحسن ما شئت من روائق وروائع ينجيها خيال وثاب وحشي ، مقترن بذهن وقاد جلي ، اذ يهجم بك على كثير من الفقرات المجذبة المملة ، والاستطرادات المطولة المحلة . والواقع أن الاستاذ ليس من ذوى الأقلام المنقحة واليراعات المهذبة . على أن أسلوبه لا يخلو حتى في أسوأ حالاته من سحر عجيب ، وانك لتسمع منه نفمة غريبة تتخلل جميع مناطقه ، كأنها مفتاح نفمة ومنظم صوته . فتارة ترتفع نبراتها الى ما يشبه تهليل الملائكة أو عويل

الآبالسة ، وآنا تنخفض رئاتها الى المقام المعتاد ، وهناك لا يوافق أذنك
الاطنين عمل لا تزال منه حتى اليوم في حيرة لا ندرى هل هو رنة المزاح
الصحيح الذي يعد بحق من أرفع مزايا العبقرية ، أم هو صدى الجنون المحض .
كذلك نجد أنفسنا في مثل هذه الحيرة ونكابد مثل هذا العناء آزاء
عواطف الاستاذ وميوله . فآنا نراه يفيض برفيق أنوار الحنان والمحبة ،
ويتدفق برفيق أنات العطف والرحمة ، حتى يخيل اليك أنه لو استطاع لضم
العالم بمخافيره الى صدره الحنون واحتضنه بين جوارحه المشفقة وأن تحت
هذا الظاهر الجافى الغليظ ملاكاً طاهراً كريماً . وآنا نراه قد أبدى صفحة
المكر والدهاء ، ولبس قناع العبوس والجفاء ، وراح ينظر بعين الاستخفاف
بل الاحتقار الى كل ما يسمى الناس اليه ويتقاتلون عليه ، وقد تراءت على
محياه تجسيدة خفية هي من دلائل المزاح المر والتهكم القارص — ان لم تكن
من دلائل البلادة والنباء — حتى يكاد الناظر اليه يرعش ويرتجف كأنما هو
ماثل بين يدي شيطان مجسد لا يرى في العالم الأرضى والعالم السماوى الامر قصاً
هائلاً رحيماً تختلط فيه الملوك بالصعاليك ، والملائكة بالشياطين ، وكواكب
السما بكناسى الأزقة ، فيدورون جميعاً في رقصة حقاء هوجاء لا تلد غير
الأطفال وصغار الأحلام . ولقد ذكرنا آنفاً أن للاستاذ نظرة ربما كانت
أوقر ما عهد الناس من النظرات ، بيد أن وقارها ليس من ذلك النوع
الحديدي اليابس الذى يشاهد فى ألحاظ أرباب السياسة وعشاق المناصب ،
بل هو أشبه بوقار بعض البحيرات الجليدية التى تراها مكنونة بين أسوارها
الشائعة ومماقلها الباذخة ، والتى لعلها كانت فوهة بركان خامد الأحشاء ،
فأنت توجس خيفة من النظر فى أعماقها السوداء . ومن يدرينا فقد تكون

الأضواء الثلاثة في تينك العيتين شواطئ النيران الجهنمية ، كما قد تكون معكوس أشعة الكواكب السماوية !

حقاً ان طبيعة الاستاذ لسر ملفز وطلسم معجز تحسر دون تعرفه الافهام ، وتكل دونه استجلائه الأوهام . بيد أنا نذكر بعز يد الارتياح أننا رأيناه يضحك مرة : مرة فذة لعلها الاولى والأخيرة في عمره ، غير أنها كانت ضحكة ولا كسائر الضحكات : ضحكة صاخبة مصلصلة مقعقة جذيرة بايقاظ أهل الكهف من عميق سباتهم ! وكان أول ما شاهدت من أمرها وميض خفي لاح في محيا الاستاذ وعينه فما زال ينتشر ويستفيض حتى صار نوراً ساطعاً وهاجاً ، وبريقاً ساحراً مبهجاً فكان ألهاً في ريق الشباب ورواق الصبا راح يطل عليك من تلك الملامح المعتمة ، والتقاطيع المتجمعة . ثم تقجر بقرعة عالية متدافعة متواصلة ، كأنما انطلقت بالصهيل حلبة حافلة ، واحمدت اللعوم على خديه صبيهاً وتعلقت قدماء في الهواء صعداً : ضحكة لا من التي تقتصر على أعضاء الوجه وعضلة الحجاب بل من التي تتناول الانسان بجملته ، وتنظم كيانه برمته ، فقسرى في جميع جوارحه من ذؤابة رأسه الى أخمص قدمه . فلما رأيت ذلك -- وكنت قد شاركته في الضحك ولكن بقدر واعتدال -- شرعت أوجس خيفة على الاستاذ بيد أنه ما لبث أن استجمع نفسه ووثاب الى سكونه المهود فكنت لا تبين شيئاً في صفحة محياه المبهم الامسحة خفيفة من الخجل . فمن كان من القراء له أدنى دراية بعلم النفس كان خليقاً باستنباط ما تنطوى عليه تلك الضحكة من العبر والحقائق وجديراً بأن يعلم أن المرء الذي يكون قد ضحك ولو مرة واحدة من صميم قلبه وبجميع جوارحه قين بأن لا يبت الرجا من اصلاحه ويقطع الأمل

من تقويته . لله در الضحك ما أوضح منازيه وما أبين معانيه ! ان هو الا
الدليل الذى يكشف عن الانسان أسراره ، ويهتك أستاره ! ان بعض الناس
ليقتنئون وجوههم بابتسامة جديدية غيبة سخيفة ، وانك لتجد فى ابتسامة
غيرهم لمعاناً بارداً كلمان الثلج ، وقليل هم الذين يضحكون الضحك الصحيح
الصادق - الضحك الذى ينبعث من قرارة النفس ويرن فى طيات الجوامع .
أما أكثر الخلق فانما يعمثون من الحلاقيم الى جويات الأشداق ضروباً من
المهاقة أو الككررة أو على الأكثر نوعاً من القهقهة المبحوكة كأنهم
يضحكون خلال طبقات من الصوف المنفوش ، وكل هؤلاء لا خير فيهم
ولا فائدة منهم ، فان المرء الذى لا يستطيع الضحك ليس صالحاً للناس
والخيلانات والمفاسد فحسب ، بل حياته باجمها هى فى ذاتها وأصلها خيانة
ودسيسة .

وللاستاذ من حيث كونه مؤلفاً عيب لا يكاد يغفر ونسبي عدم اعتداده
بالنظام والترتيب ، فالكتاب يقع بطبيعة الحال فى قسمين : قسم وصفى تاريخى
وقسم نظرى فلسفى . بيد أنك لا تكاد تجد بينهما حداً فاصلاً بل لا يزال
كلاهما يتعدى على صاحبه ويتحيفه ، ويتطرق اليه ويتخلله ، حتى يظل القارئ
بين هذا الخليط فى حيرة عمياء ، كأنه فى ولية هوجاء ، اختلطت بها
الأطعمة من كل صنف ونوع ، وكل شكل ولون ، فالجوامد والسوائل ،
والبوارد والسواخن ، واللحوم والأسمك ، والتوابل والمریات ، والحلوى
والمخللات ، والأنبذة والأشربة ، كل هذا قد ألقى جملة واحدة فى دسيسة
ضخمة ثم دعى اليها الجمهور الجائع - فتحويل هذه القوضى الى شئ من
النظام ذلك بعض ما نحاوله .

الفصل الخامس

الدنيا في الملابس

يقول الاستاذ في فاتحة كتابه « كما وضع مونتسكيه كتاباً عن روح الشرائع أضع أنا كتاباً عن روح الملابس . فإن الانسان لا يجري مع الصدفة العمياء لا في سن الشرائع ولا في خياطة الملابس ، بل لا تزال اليد العاملة مهتدية بنور العقل تنقاد بزمامه وتدعن لأحكامه . وانك لتجد فكرة فنية كامنة في كل ما ينسك من الملابس على اختلافها وفي كل ما يبذل من المساعي في سبيلها . وما جسم المرء وملابسه الا البقعة التي عليها ، والمواد التي بها ، يشاد ذلك الهيكل الرائع الفخم : شخص الانسان ! فسواء أرايته يرفل في البرود المسبلة الأذيال ويختال في رفاق النعال أم أرايته يسمو بالقنسوة العالية من خلال الأوشحة والمناطق والأحزمة والقراطين أم أبصرته متفتخاً في الأطواق المنشأة والحشايا المشمعة أم ألفتة قد شد نفسه وقسمها أجزاء متميزة وخرج الى الملا بمجموعة من أربعة أعضاء : كل ذلك يتوقف على نوع هذه الفكرة الفنية وهل هي اغريقية أو غوطية قديمة أو غوطية متأخرة أو حديثة مولدة . ثم تأمل أي معان جلية تنطوي عليها ألوان الملابس ، فمن الاسود التقاتم الى الاحمر الوهاج أي خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان ! فاذا كان التفصيل ينبئك عن طبيعة النهن والقرمحة فإن اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج . ولا بدع فهذا كله يجري بين الشعوب كما بين الأفراد يفعل الاسباب والمسببات : ذلك الفعل الذي لا ينقطع عمله ولا ينكر أثره وان كان في غاية التعقيد والالتباس ، فلا

من حركة من حركات المقص الا وهى منظمة مدبرة بمؤثرات دائبة عاملة ليست بالخبفية ولا بالمبهمة لتبوي البصائر الجليلة والافهام النافذة»
ثم يأخذ الاستاذ في ذكر منشأ الملابس وتاريخها وما ورد عنها في أساطير الأولين وخرافات الغابرين مما لا داعي الى نشره ، بيد أنه قد تخلل هذه الابحاث نظرات فلسفية ثاقبة ، وصور للحياة مؤثرة ، تثبت منها ما يأتي :
يزعم الفيلسوف أن أول ما بعث الانسان على ارتداء الملابس لم يكن طلب الدفء أو داعي الحياء وإنما حب الزينة ، وذلك حيث يقول « حقاً ما كان أنس عيش المتوحش الفطري وأبأسه ! تدبر محاجره شهابى لظى يتأججان تحت غداثره الوحشة المشبعة ، ويتخذ من شعوره المسئلة على منته ولحيته المسبلة الى بطنه ما يشبه العبادة الملبدة ، أما سائر بدنه فستور بغطاء كفيف من زغبه الطيعي . ثم تراه إما متسكماً في شعاب الغابات ، يصطلى جمره النهار ويقتات من ثمار الأشجار ، وإما مقعياً في بعض المستنقعات ، يتربص فريسته البهيمية أو الآدمية ، أعزل من كل سلاح مجرداً من كل عتاد اللهم الا كرة ثقيلة من الصوان قد ربطها بحبل من الجلد المصفور ، مخافة أن يفقدها وهى سلاحه الوحيد في الدفاع والهجوم ، فهو بذلك الحبل يستردها كما يقذفها بمهارة صائبة وإصابة قاتلة . بيد أنه متى فرغ من اطفاء حرقه الجوع وارواء غلة الانتقام كان همه الأكبر وشاغله لا التماس الراحة بل طلب الزينة ، ولا غرو فانه متى احتاج الى الدفء وجد منه ما شاء إما في جهاد الطرد والبناء ، أو بين الأوراق الجافة في شجورته الجوفاء ، أو في حظيرة التخنة من اللحاء ، أو في منارته الطبيعية للمساء ، ولكن لأجل الزينة والزخرف لا سبيل الا للملبس . بل لقد وجدنا بين الشعوب العريقة في الممجيعة ان الوشم والطلاء

أسبق عهداً حتى من الملابس . فأول حاجة روحانية يشعر بها الانسان التوحش .
هي الزينة كما هو الواقع الى اليوم بين الطبقات المتوحشة في البلاد المتعدية .
« بلى أيها القاريء ان الشاعر المنرد الملهم ، والملك الأصيل المعظم ، بل
ممشوقتك الحسنة المكنونة في صدف الخلدور ، المصورة من بهاء ونور ،
التي تكلم من فرط الخفة والرشاقة والصفاء ، تنساب كاللاك على أجنحة الهواء ،
والتي تمسقها وتبدها كأنها حضرة آلهية ، كما هي في الواقع اذا اعتبرت
الأمر من الوجهة الرمزية — أقول كل هؤلاء قد انحدروا — كما انحدرت
أنت أيها القاريء — من صلب ذيك المتوحش الأغبر المتزمل بشعوره
الشعواء ، المتسلح بالصفات الصماء . وكذلك تخرج الخلاوة والرقعة من البطش
والقوة ، أي ضروب عجيبة من التغير وأي مظاهر مذهشة من الانقلاب
والتبديل تحدث — لا بفعل الزمان — ولكن على مره ! فالتنوع البشري
وحده بل أيضاً كل ما يفعله وكل ما يشاهده هو في نمو مستمر وحياته
متجددة لا تزال ترمي الى الكمال الأسمى ، وتسعى نحو المثل الأعلى . الق
بملكك . أو بقولك في هذا العالم الدائم الحياة والحركة فاهو الا بذرة حية
لا تموت . ولا تقنى ، ان لبثت اليوم خاملة مدفونة فلسوف تشاهد بعد
آلاف السنين خميلة غناء من رائع السنديان ، أو مع الأسف غابة غيباء من
خيبت الشكران .

« هل كان يدري أول من اختزل عمل النساخين باختراع فن الطباعة
أنه يفض جيوشاً ، ويثل عروشاً ، ويقضى على نظام الحكومات المطلقة ،
ويحل مجلس الأعيان الموقرة ، وينشيء عالمًا جديدًا بمخايفه من الديمقراطية
والحرية ؟ لقد كان مفعول أول حفنة من مسحوق التطرون والكبريت

والفحم أنها أطاحت مدق الراهب حتى اخترق سقف الغرفة التي كان بها ، فإذا ترى سيكون مفعول آخر حفة ؟ لاشك أنها ستفضي الى احراز النصر المبين للقوة التحنية على القوة المادية ، وللشجاعة الروحانية على الشجاعة الحيوانية . ثم تأمل كيف كان اختراع النقود في أول أمره شيئاً هيناً بسيطاً ، اذ خطر ببال الراعي القديم - وقد مل التطواف في مناكب الأرض بثوره البطيء ابتناء مبادله بقمح أو زيت - أن يأخذ قطعة من الجلد فيحفر فيها أو يطبع عليها صورة الثور (بيكس) ثم يضمها في جيبه ويدعوها (بكيونيا) أو قدماً - ومن ثم صارت المبادلة مبادعة وتحولت النقود الجلدية الى نقود ذهبية فورية فرأينا من آثارها وفعالها ما فاق المعجزات إعجازاً ولطوارق إدهاشاً : فهناك المصارف المالية والديون الأهلية وأصحاب القطاير المقنطرة والملايين المجمعة ، ومن آثارها أن صار كل امرئ يملك ولو درهماً واحداً أميراً مطاعاً وسلطاناً مسلطاً على جميع الناس بمقتدار هذا الدرهم : يأمر الطهارة فيطمونه والفلاسفة فيعلمونه والملوك فيحرسونه - بمقدار الدرهم . وكذلك الملابس التي نشأت بأديء ذئب بدء عن حماة الشنف بالزينة أي للبالغ لم تبلنها وأى الغايات لم تدركها ! لسرعان ما استفاد الانسان منها مزيد الوفاة ولتذيد الدفء والحرارة ، ولكن ما هذه بجانب غيرها ؟ ظللابس هي المصدر والنشأ لفضيلة الحياء ، ذلك الهيكل الظليل المنجب الذي يضم بين جوارحه كل مقدس في الانسان . والملابس هي التي جعلت لنا شخصيات مستقلة ومميزات تفضلن بها وسياسة تجري عليها وضفوة القول أن الملابس هي التي تجعل الفرد منا انساناً وهي التي تنذر اليوم بحمله مشجياً تعلق به الثياب وتمرض عليه الأردية .

ثم يستمر الاستاذ البليغ فيقول « على أن جملة القول ان الانسان حيوان يستعمل الآلات ، فهو ضئيف في نفسه ضئيل في جرمه يقف قلقل مضطرباً على قاعدة لا تتجاوز نصف قدم مربع مهما كان عرض قدميه . ويضطر أن يفتح بين رجليه ثلثا تنفخه الريح فيطيح : ما أوهنك أيها الانسان لأنك أضعف ذئ قاتئتين . يضحك حمل الثلاثة القناطير ويلايك ثور الغاب فيقذفك صعداً في الهواء كأنك خرقة بالية . غير أنك بالرغم من ذلك تستطيع استعمال الآلات واختراع الأدوات وفضل هذه تذوب من يديك الجبال السماء والجلامد السماء ، حتى تصير تراباً كالغباء ، بفضل هذه يلين لك الحديد القاسى فتصور منه ما شئت من صور متائلة ومتباينة ، كأنه عجينة لينة ، بفضل هذه صارت لك البحار سبلا معبدة وأصبحت لك الريح والنار جياداً حذلة لا ينالها السأم ولا يمتورها الونى ! وكذلك مهما بحثت قلنى تجد الانسان بدون آلات اذ هو بنير الآلات لاشئ . وهو بها كل شئ » .

« الانسان حيوان يستعمل الآلات وما للملابس في الواقع الا أحد الشواهد على هذه الحقيقة . ولئن تأملت البون التاسع بين أول معزقة خشبية صنعها الانسان وبين هذه القاطرات البخارية والمجالس البرلمانية التي بنت مبلغ التقدم الذى أدركه . يقطع الانسان من جوف الأرض بضعة أحجار سوداء فيقول لها (اقلبنى ومتاهى بسرعة خمسة وثلاثين ميلاً فى الساعة) فلا يكون منها الا أن تصدع بأمره . ثم يجمع جزأها ستائة وثمانية وخمسين فرداً محتلفي المذاهب والمشارب فيقول لهم (مروا هذه الأمانة أن تبذل فى سبيلنا جهادها وتسفك من أجلتنا دملها وتتصلب آلام الجوع والحزن وهواقب الجريرة والاثم) فسرطان ما يلون طلبه ،

الفصل السادس

في المبالذ والملايس التاريخية

من أغرب فصول الكتاب وأعجبها الفصل الذى عقده الأستاذ عن المبالذ وأودعه من عبارات الاستخفاف والازدراء ، ما يقارب صريح الهجاء ، فعمرك الله ماذا يعنى المؤلف بأمثال الأقوال الآتية ؟:

« المبالذ دروع واقية يتخذها الانسان للمحافظة على النظافة أو السلامة أو الحياء ، وأحياناً للمحافظة على العذر والسفالة . وقد تفنن الناس في هيئات هذا النوع من الملابس كل التفنن ، وتصرفوا في وجوه استعماله كل التصرف ، فمن قطعة الديباج الرقيقة الحواشى المشرشرة الأطراف تضعها الحسنة على صدرها الرقيق فتصحبها من فرط الحسن واللطافة طيف المبذلة الأنيق — الى ذلك الأديم الغليظ يشده البناء بسيور من الجلد حول خصره حتى اذا جاء المساء أثبت فيه أداة عمله — الى تلك المبذلة العالية الضليل المتخفة من صفائح الحديد التى يرتديها القيين وهو يطرق المطائل على السندان أو يذيب السبائك في التيران — أليس في كل ذلك شاهد صادق على التفنن في هيئات المبالذ والابتداع في وجوه استعمالها ؟ لله در المبالذ كم من أمور تستر عن العيون ! وكم من أمور تصون من المخزور ! بل تأمل حق التأمل وحدثني عن حقيقة هذه الجيوش والشرط والأساطيل ينفق عليها ما لا يقدر من الملايين ؟ أليست هي أيضاً كمبذلة ضخمة يرتديها المجتمع الانساني (فلا يزال فيها مزهقاً مضايقاً) وهو يعمل في ذلك المصنع الهائل الذى نسميه الدنيا فيبقى بهله نفسه بما يرفض هنالك من الشرر ، وتطالير حوله من القدر ؟ »

أوهل أتيج لأحد القراء أن يطالع أمثال العبارات الآتية :
« انى أعد تلك المبادئ التى يتخذها طهارة باريس من الورق المطبوع
منفذاً جديداً - وان يكن محدوداً - يندفع منه سيل المطبوعات الزاخر .
وهي من هذا الوجه مظهر منشط لهضة الآداب ، جدير بها أن تنال كل
ثناء مستطاب . وقد سررت أياً سرور عندما أثبتت أن متجراً شهيراً في
لندن قد عزم على ادخال تلك المادة فى بلاد الانجليز » . لا ندرى من أين
وصل هذا الخبر الى الاستاذ مع أننا معشر الانجليز لم نسمع به قط وحقيق
بنا أن نحمد الله على أن آدابنا لم تقتصر على وفرتها الى منفذ من هذا القليل -
ثم يستمر الاستاذ فيقول « ولكن أليس من المعجب الطريف أن نرى
خمسة ملايين قنطاراً من الخرق تلتقط من المزابل فى كل عام وبعد أن تمزق
وتكس وتذاب ، وتهبأ ورقاً وطبع وتباع ، تعود الى المزبلة مرة أخرى ،
فككون فى أثناء هذا الطواف قد أطمعت ألوفاً من البطون الجائمة ، فكانت
المزبلة بما حوت من الخرق البالية إن هى الا بطارية كهربائية عظيمة
تلبثت منها وتعود اليها تيارات المعاملات والمجهودات بعد أن تجول فى دوائر
صغيرة وكبيرة خلال ذلك السديم المضطرب المعاج ، المصطفق الرجراج ،
الذى يظل بفضل هذه التيارات جائش الحركة مفعماً بالحياة ؟ »

بعد هذا الفصل المعجب عن المبادئ يورد الاستاذ فصلاً عن الملابس
التاريخية حافلاً بأوصاف الملابس فى متابع المصور ، وما طرأ عليها من التنوير
على مر الدهور ، بيد أننا نكتفى منه بهذه الملاحظة الجديرة بالتأمل :

« لو تبسر لأبناء هذا العصر من الألمان أن يشاهدوا الملابس التي كان يرتديها أسلافهم في غار الأزمان لتبسموا استغراباً لها واستخفافاً بها ، كما أنه لو أتيح لأولئك الألمان الغابرين أن يبعثوا من قبورهم ويعانوا ما نرتديه الآن لصنعوا بأيديهم علامة الصليب وتعوذوا بالعذراء . ولكن من حسن الحظ أنه لا يتاح ولن يتاح في هذه الحياة الدنيا لأحد أولئك الألمان الغابرين أولاً أحد الناس على الإطلاق أن يبعث من رقدته وينشر من حفرة . وكذلك ترى الحاضر لا يرتبك بالماضي ارتباكاً لا داعي له ، بل هو يخرج منه وينمو كما تخرج الشجرة من بطن الثرى فلا تنو اشج اعراقها بأغصانها ، بل تذنب غده صاعدة في السماء وتستقر تلك تحت الأرض في سكون وأمان - بيد أنه من بواعث الحزن (وإن كان الأمر لا يخنو من الفائدة) ان أحب الناس الى قلوبنا وأعظمهم شأنًا في عيوننا اذا عُد الى الحياة بعد مدة وجيزة من وفاته أتى محله شغولاً ولم يجد لنفسه في الدنيا مكاناً . فهذا نابليون ويرون على ما كان لهما في النفوس من المكاة السانية قد أصبحا في بضع سبع سنين من الطراز القديم وصارا عن أهل أوروبا غريبين أجنيين ، وبهذا قضت شريعة التقدم والارتقاء فلن تجد غطاً يبقى على الأزمان لا في الملابس ولا في سائر الأشياء : ظاهرة على الإطلاق ،

الفصل السابع

الدنيا مجردة من الملابس

لئن كان الأستاذ قد أدهش كثيراً من القراء بما أورد في القسم التاريخي الوصفى فأجح به أن يكون كلامه في القسم النظري الفلسفي أدعى الى الدهشة

وأدخل في باب العجب . والواقع أن الناشر قد أخذ منذ الآن يشعر بثقل العبء وضغطه ، فمن هنا تبدأ فلسفة الملابس العالية ، وانها لمفازة سحيقة الارزاء ، محتجزة عن الادلاء ، لا يدري المخاطر فيها أى المسالك يسلك ، وأى الوجهات يأخذ ، بل لا يعلم أين تثبت مواطىء قدميه فتحتمله ، وأين تسيخ به فتبتله . لقد أخذ الاستاذ على نفسه أن يشرح ما للملابس من الآثار الأدبية والسياسية والدينية ، وأن يوضح غوامض تلك النظرية العظيمة : وهى أن مصالح الانسان فى هذه الحياة الدنيا مترابطة الأجزاء متماسكة العرى بفضل شىء واحد هو الملابس . وهو يعبر عن هذه الحقيقة بقوله طوراً « بنى المجتمع على الملابس » وتارة « ان المجتمع ليسبح فى فضاء الانهاية على الملابس كأنه سابح على بساط سليمان ولولا هذا البساط لسقط فى أعماق الهاوية وغاله الفناء »

ولن نحاول هنا بيان حلقات التفكير التى اهتدى بها الاستاذ الى كشف هذ النظرية العظيمة والى استنباط ما يترتب عليها من النتائج العملية الكثيرة ، فان هذه المحاولة تعد منا ضرباً من الجنون ، ولا غرو فالاستاذ لا يتبع طريقة المنطق المدرسى حيث تجرد الحقائق واقفة جميعاً فى صف مرصوص أخذ بعضها برقاب بعض ، بل هو يسلك طريقة اللقائاة واللوذية والالهام ، فيتخطى بنظرة واحدة من ثاقب نظراته مجاميع كلمة من المقدمات والنتائج ، ومن ثم تجرد فى فلسفته نوعاً غريباً من رائج الاختلاط كالنبي يشاهد فى مجالى الطبيعة فتشعر كأنك فى متاهة هائلة ولكن قلبك يحدئك بأن هذه المتاهة لا تعدم نظامها المحكم . وقد نشاهد أحياناً يجانب هذا الاختلاط

الشريف اختلاطاً خبيساً يصح أن يدعى ارتباكاً وحينئذ شد ما نتمنى من صميم القواد لو كانت تلك المستندات الموعودة على جبل ذراعنا ، إذ يظهر أن إيضاح كلام المؤلف يتوقف في كثير من الأحوال على إيضاح شخصيته ، كأن الأستاذ قد تلقى تلميحه لا من طريق البرهان النظري بل من طريق الاختيار الشخصي . على أننا نجتزئ الآن باقتطاف شذرات من هنا وهناك ثم نجمع منها صورة تؤدي إلى القارىء ياناً مجملًا عن مذهب الفيلسوف .

لهذا نحن ندعو أهل الفطنة والذكاء من القراء إلى استجماع خواطرم وحشد أذهانهم . ونسألهم أن يخبرونا بعد انعام الروية أفلا يلحوف على حاشية الأفق الأقصى أعلام أرض جديدة ، وبشارٌ جزائر مديدة ، تدعو إليها كل من يخطى صهوة اليم ، وينامس حومة الخضم ؟ وهاك أيتها القارىء مثلاً : -

« يأتي على أهل التأمل والتفكير أوقلت حلوة هاجسة ولكنها جليلة رائعة يوجهون فيها إلى أنفسهم بين الدهشة والوجل هذا السؤال المفحم الرهيب : من أنا ؟ ، ماهو ذلك الشيء الذي يقول أنا ؟ في هذه الأحيان يشعر الانسان كأن الدنيا بصخبها ولجها قد تراجعت إلى الوراء قصياً ، وكأن بصيرته قد فقت من خلال بطائن الورق وجدران المدروم من خلال المشاغل التجارية والسياسية ونسائجها الصفيفة الطيات المترابكة الطبقات ومن خلال تلك الأغشية النامية والجامدة التي يتألف منها الجسم والمجتمع والتي تحدد وجودنا - أقول في هذه الأحيان تنفذ البصيرة خلال هذه الأشياء كافة حتى تصل إلى أعماق النيب . وهناك يقف الانسان وحيداً

فريداً بين يدي حقيقة الكون يتاجيها مناجاة خفية ، كما يتناجى الروحاني ويتفاوض السراني !

« من أنا ؟ صوت أم حركة أم ظاهرة أم خاطر من خواطر العقل الأبدى جسم وأبرز إلى حيز المنظور ؟ مهلاً أيها الفكر المسكين فقلما يجدى عليك هذا التفكير . حقيقة انك موجود ، وحقيقة انك لم تكن منذ عهد قريب ، ولكن من أين أتيت ؟ وكيف جئت وأيان تساق ؟ أسئلة تجمد الجواب عليها منشوراً حولك في عرض السموات والأرض ، مكتوباً بكل لون وحركة ، ومسموعاً في كل أهزوجة وعوالة ، ولكن أين العين الثاقبة التي ينكشف لها ذلك السفر المقدس المكتوب بالقلم الأعلى عن مدلولات مفهومة ومعان مبدئية ؟ نحن من هذه الدنيا مقيمون في كهف عجائب وأحلام ، ومعرض خيالات وأطياف ، بئس الانحاء شاسع الارجاء ، يقصر عن أقرب مداه أنعمض الكواكب وأبعد القرون - توفي إلى آذاننا أصوات ونغمات ، وتمثل لميوتنا صور جمّة الألوان وخيالات ، ولكن الأصل المبدع الذي لا تأخذ سنة ولا نوم ، والذي أنشأ الحالم والحلم ، مغيب مكنون ، لا تراه العيون ، بل لا يخطر وجوده على الأوهام ، الا في لحظات نادرة بين اليقظة والنائم . قال حكيم من الحكماء (مثل الكون كمثل قوس غرغ يترامى أمامنا في حسنه وبهائه ، وجماله وسنائه ، ولكن الشمس التي نقشته فأبدعت ، وصورته فأحكمت ، تحتجب وراءنا في مطاوي النعام بحيث لا تنالها الأبصار) . وكذلك نظل في هذا الحلم الغريب نحاول امساك الخيالات الطائفة نحسبها أجساماً جامدة ، ونفط في عميق السجلات إذ

نحسب أنفسنا منتهين أشد الانتباه ! بالله خبرني أي مذهب من مذاهبنا الفلسفية الا وهو أضغاث أحلام في أضغاث الأحلام ، الا وهو خارج قسمة صاف أخرجته وأنت واثق بصحته جد الوثوق مع ان كلا من القاسم والمقسوم عليه مجهول ؟ بل ماهذه الحروب والخطوب ، والحوادث الجسم ، والثورات العظم ، الا هذيان المضطرب في منامه ، وحركات المروّع من مزعجات أحلامه ؟ هذه الأحلام وهذا الهذيان هو ما نسميه الحياة حيث أحكم الحكماء وأعلم العلماء هم أولئك الذين يعلمون انهم لا يعلمون شيئاً .

« أسنى على أن علوم الأصول والكلام لم تثبت حتى الآن غير عقمها المفرد وعجزها الفاضح . فهذا سر الحياة لا يزال كسر أبي الهول : لغز مبهم مغلق لا يستطيع الانسان له حلاً ، وقد قضى عليه لعجزه عن حله بشر أنواع الموت : الموت الروحاني . ماهذه التي نسميها بدهيات ونظريات ومذاهب ومبادئ ؟ كلام في كلام ؟ قلاع هوائية شاهقة قد بنيت أبدع بنيان بقراميد الألفاظ وتماسكت بموتة المنطق ، ولكنها خالوية الروع من العلم ، خالية الحجرات من العرفان . الكل أكبر من الجزء ، كلام ما أصدقه ، الطبيعة تمقت الفراغ ، قول ما أكذبه ! لا يستطيع شيء أن يتحدث تأثيراً الا حيث يكون ، نعم هذا حق ولكن أين يكون ؟ لا تكن عبد الألفاظ ، ألا ترى أن ما هو بعيد عني ، أو ما هو ميت قد انقطعت الصلة بينه وبينني ، هو في الحقيقة قائم « هنا » وقريب مني قرب هذا البلاط الذي أنا واقف عليه ، مادمت أحبه وأحن اليه وأحزن عليه ؟ بيد أن ذينك المنصرين عنصر الزمان وأخيه المكان ما برحا منذ أقدم القدم وهما اللونان الرئيسيان المصبوغة بهما جدران كهف الأحلام ، بل ان شئت فقل هما السدي

واللحمة لتلك النسيج المنقوشة عليه أحلام الحياة ورؤاها . ولكن ألم يجبرنا أولو النظر الثاقب في كل عصر ومصر أن عنصري الزمان والمكان المتصلين بخواطرنا أمتن الاتصال ، المتزجين بنفوسنا أشد الامتزاج ان هما الا زوائد أجنبية عالقة بالفكر ، وعوارض سطحية لاصقة بالنفس ، وأن المتأمل البصير يستطيع أن يلح موضع الاتصال بينهما وبين الأبدية والانهاية . ألم تر الى كل الشعوب والأمم ، كيف تصورت الله جل شأنه موجوداً في كل زمان وقائماً في كل مكان ؟ أنعم النظر ملياً يتضح لك أيضاً أن الزمان والمكان ان هما الا من وتساوير الحواس ، وأنهما في الحقيقة لا وجود لهما ولا أثر ، واننا نحن — بماذا أقول — ذرات من النور ، سابحة في سبجات أنوار العلي التدبير !

« وكذلك ما هذا الكون بكونا كبه ودراريه ، ودعائيه الجامدة ورواسيه ، الا صورة وخيال لاحقيقة فيه الا هذا الصوت الناطق بلفظة « أنا » . وما الطبيعة بما عوت فيها وما يحيى ، وما يستجد فيها وما يبلى ، الا صورة معكوسة عن قوانا الباطنة ، وخيال يترامى لأحلامنا الهاجسة ، أو هي كما يقول روح الأرض في رواية فوست « رداء الله وثوبه الظاهر الحى »

« في حالة من تلكم الحالات ، وقد غادرتني هذه الخواطر العالية والافكار العميقة نضواً حسيراً ، متعباً مهوراً ، خطرت يالى مسألة الملابس لأول مرة . فأدهشتني تلك الحقيقة القائمة وهي وجود الملابس والخياطين . عجباً والله ! هذا الجواد الذى أمتطيه قد كفته الطبيعة مؤونة اللباس ، وأعدت له كسوة من الجلد والشعر ، فلو انى جردته من سرجه ولجامه ، ولبدنه وحزامه ، لبقى الحيوان النبيل مكثفياً بذاته ، قد هيأت له الطبيعة من نفسه

غزالا ونساجا وخياطًا، بل أعدت له كذلك حدّاء وصائنًا ووشّاء. فهو يجمع ويمرح في بطون الوديان وعليه من اهابه الطبيعي كسوة خالقة، لاتلوحها أشعة الشمس، ولا يؤثر فيها وابل المزن، بل لا ينقصها ما يزينها من محاسن الوشي، فهي تروق العين بالغرر والأوصاح والشيآت والدارات والحل والهداب والألوان المشرقة والأصباغ الموثقة. فيالله كل ذلك وأنا قد تلففت في جزر الاغنام وألحبة النباتات وامعاء الديدان وجلود الثيران وفراء ذوات الفرو من الحيوان، وعلى هذه الهيئة أخرج الى الملاأفا أنا الامشجب متحرك قد كوم عليه ركام من الاسمال انتشلت من مقبرة الطبيعة حيث البلى قائم لها بالرصاد وروكت على جسدى كى تبلى على بسرعة أقل وفي زمن أطول. وكذلك يمر اليوم أثر اليوم وأنا لا أجد مندوحة عن تغطية بدنى بالخرق والاهدام، كذلك يمر اليوم أثر اليوم، ولا بد لهذا النطاء الحقير أن يفقد من نخاعه طبقة تكسح الى المزبلة، حتى يلحق بأوله آخره، وينضم الى بمضه سائر، فأعمد أنا ذلك المخلق المبلى الى اتخاذ مادة جديدة أبلها وأفنيها - باللقبح وباللشاعة أو لم يرزقني الله اهابًا شاملًا، أبيض الصبغة أو أسمرها، ناصع البشرة أو أكرها؟ عجبًا لى ولشاني! هل كنت اذن كتلة مرقعة من مزق الخياط وقرع الاسكاف، أم أنا شخص دقيق الاجزاء، متجانس الاعضاء، محكم النظام أيق المهندام ذو حركة ذاتية بل روح حية؟

« لشد ما أعجب والله من أمر هذه المخلوقات الآدمية تطيق عن أئين لغنائق عيونها، ثم تستطيع لابتشء سوى جود البلاة وذهول النسيان، أن يش آمنه مطمئنة في وسط الروائع والرواق. على أن الانسان كان ولا يزال

ذلك الحيوان النبي الأبله الذى هو على أن يشعر ويهضم أقدر منه على أن
يمتبر ويفكر . فالوم الذى يتظاهر بكرامته ويتشدد باحتقاره هو أمره المطاع ،
والمادة هى التى تقتاده من أنفه حيثما كان ، فلو أنه شهد مطلع الشمس أو بدء
الخليقة مرتين لمادت تلك المناظر فى عينه غير خليقة باثارة العجب ، بل غير
جديرة باستراء النظر . ولعلك لا تجد واحداً من أبناء آدم من أي قطر أو
فى أى عصر سواء أ كان أميراً يرفل فى حلى الارجوان ، أم صعلوكاً يتضائل
فى خرق الكتان ، قد خضر بباله ولو مرة فى العمر أن نفسه ولباسه ليسا
شيئاً واحداً وجزءاً لا يقبل التجزئة ، وأنه لا يزال يفطرته عريان مجرداً حتى
يتحصل على الملابس اما شراء واما سرقة . وحتى يوفق بعد أعمال الروبة الى
خياطتها وزرها .

«أما أنا فلا أكاد أفكر فى أمر هذه الخرق والاهدام التى تغفل
تقومها الى سويداء قلوبنا وراح يفسد من أخلاقنا حتى يتولانى الرعب
ويأخذنى الوهل . واعتقضى انه ما أجل الساعة التى ينزع المرء فيها عن نفسه
لأول مرة هذه الفضلات الغريبة فىرى انه خلق عرياناً وأنه وإن كان ،
كما قال سوفيت ، حيواناً مفروج القامتين معوج الساقين ، لا يزال سرّاً
ملتزماً من أسرار الكون ونفحة مباركة من روح الله »

الفصل الثامن

فى النجود

لايهولن القاريء ما أبداه الاستاذ فى خاتمة الفصل الأخير من غريب

الآراء التي ماكدنا نطلع عليها لأول مرة حتى قلنا في نفسنا : عجيباً لا مَر
هذا الفيلسوف أترأه يريد أن يظهر في هذا القرن قرن المدينة والحضارة
بمظهر عدو الملابس ونصير التجرد !

مهلاً أيها الاستاذ الأحق تذكر ما للملابس على الانسان من عميم
الافضال وجزيل الأيادي ! انظر الى نفسك وأنت طفل رضيع حديث
العهد بالقوم الى هذا الكوكب السيار ، تتقلب في حضن مرضعتك ظاهر
المعز عديم الحيلة ، تمتص أناملك ، وتقابل الدنيا بنظرات شاخصة والمحاظ
ذاهلة ، ماذا كان يكون شأنك لو لاتفك اللفائف والأقطة ، والملاحف
والأربطة ؟ أم هل نسبت اليوم الذي استبدلت فيه بتياب البيت ثياب
المدرسة ، فطار النبا في أنحاء القرية ، وأقبل الجيران واحداً بعد واحد يقبلون
وجنتيك المتوردتين ، ويمنحونك العيدية من دراهم فضية أو نحاسية
في أول عيد لك في هذا الوجود ! أم هل غاب عن ذكرك عهد الشباب
والغرور اذ كنت تعنى كل العناية بتزيين شخصك وتأنق هندامك ؟ بل
تذكر حالك اليوم وقد تقضى ذلك العهد أو تبدل شأنك فاصبحت لاتتخذ
الملابس للزينة بل للوقاية ، أنراك تلبسها كارها بحكم الضرورة ، وتعتبر
اتخاذها عاقبة مشثومة من عواقب سقوط أبويك الأولين من الجنة ، أم
أنت تغتبط بها منشرح الصدر مبهج النفس شاعراً بأنها بيت دافئ متحرك
يل جسم ثان حول جسمك ، تقيم فيه نفسك العجيبة آمنة السرب لاتبالي
بتقلب الاجواء ، ولا تمأ بتصرف الأنواء ؟ بفضل الملابس قد استطعت
أن تمتطي ذلك « الجواد الذي امتطيته » فتخرج به ولو في صبرة الشتاء ينهب
بك الأرض نهباً ، ويختال بك فوق ظهرها ترقاً ومرحاً ، كأنك أميرها

وسيدها، عبثاً ما تلطم صدغيك عواصف الجليد، فاتها لن تلتقي إلا بطبقات
الصوف الصفيق، وعبثاً ما ترجز حولك الرياح وتقصف، وتتجاوب اصداء
الغابات وتغزف، وتتكور الزوابع وتقصف، ثم تنقلب أغصاناً يلفح
فينسف: فانك لاحالة مارق في وسطها مروق السهم، تقتدح الشرر من
قارعة الطريق، وترن في أذنيك موسيقى العناصر المتصارعة، وتضيء
سبيلك البروق الساطعة. فناشدتك الله ماذا كنت تفعل بغير الملابس،
وماذا كان يفعل بغير السرج والاحجام جوادك السابح؟ الطبيعة كريهة ولكنها
ليست أكرم الأكرمين، فهنا ينتصر عليها الفن ويتفوق.

وكانني بالقارئ يقول: أهمل نسي صاحبك الاستاذ ما ذكره اتفاقاً عن
ذلك المتوحش المتسكع في الغابات وعن حاله التبعة الأسيئة؟ أترام يريد أن
ينقض كل ما قال، ويرجع بنا الى عهود التوحش والهمجية؟

روبيك أيها القارئ، ان الاستاذ عليم بكل ما يقول، وكلانا قد تعجل
في لومه. لئن لم يكن للملابس اليوم وقد شرعت تستبد بنا وتفسد من
أخلاقنا فضيلة تشفع لها، أفليس في الامكان استخدامها فيما هو أصلح
وأفنب؟ أفلا بد من نبذها نبذاً؟ ان الاستاذ لا تخفى عليه مزايا الملابس
ومنافعها، بل لعله يرى بنا فذ بصيرته من خفي فضائلها ومآثرها ما لا يظهر
قط لغيره وهالك مثلاً من ذلك:

« ترى شخصين أحدهما في ثوب أحمر فاخر ضاف، والآخر في ثوب
أزرق سخيف جاف. فيقول الأحمر للأزرق « حكمت عليك بالشنق
والتشريح » فترتعد فرائص الأزرق، ثم (يا للعجب العاجب) يدلف الى
للشنقة كتيباً حزينا، فيشنق هنالك ويتلى ساعة من الزمن، ثم يشرحه

الأطباء ويهتئون من عظامه هيكلًا يستعمل في المقاصد الطيبة . كيف كان ذلك ؟ أم ماذا تصنع بقولهم « لا يستطيع شيء أن يعمل الا حيث يكون » ؟ ان هذا الأحمر لم يكن قابضاً على الأزرق ، بل لم يكن ملامسه بحال من الأحوال ، ثم أولئك الشرطة والمأمورون وسائر الذين يصدعون بأمر الأحمر ليسوا متصلين به اتصالاً يمكنه من تحريكهم من هنا الى هنا والتصرف فيهم بحسب هواه ، بل كل منهم مستقل في موقفه ، منحصر في اهابه . ولكن مع كل هذا لا تكاد تخرج الكلمة حتى يحققها الفعل ، لا تكاد الكلمة المفروضة تفصل من فم قائلها حتى تنطلق الايدي بالعمل ، فيعمل الجبل فله ، وتؤدي أدوات التشريح مهمتها .

« أيها القارئ ، المفكر اني أرى السبب في ذلك يرجع الى أمرين : أولهما ان الانسان كون روحاني تربطه بجميع الناس روابط خفية ، وثانيهما انه يرتدى الملابس وهي العلامات الظاهرة الدالة على تلك الحقيقة الباطنة . ألا ترى أن صاحب الثوب الاحمر قد اتخذ شعاراً مخصوصاً وارتنى رداءً مخصوصاً بحيث يفهم جميع الناس أنه قاض ؟ بلى يا صاحبي هذا المجتمع الانساني ، الذي كلما زدته تأملًا زادني حيرة ، انما هو مؤسس على الملابس .

« كثيرًا ما أطالع وقد تولاني الملل والاكتئاب أخبار الحفلات الرسمية والمقابلات الملوكية والتشريفات السلطانية ، وكيف تتقدم الوفود بين صفوف الحجاب والنبلاء ، والقواد والأمرأ ، حتى تنتهي الى السدة العلية بين مجالى التظيم والاجلال ، ومظاهر الأبهة والاحتفال ، فينا أجهد خاطرى في تخيل ذلك الموقف ، وأكده ذهني في تصور ذاك المنظر لاروعنى الا املاس الملابس عن أفراد الجمع برمته . فأبروح آتخيل الحجاب والأمرأ ، والأماقفة

والنبلاء، والأعيان والقواد، بل الحضرة العلية بجلالة قدرها، وكل ابن أمهم وافقاً هنالك عارى الجسد لا تستر خرقه، فأظل لا أدري أأضحك من ذلك ألتنظر أم أبكى .

« ترى ماذا يصنع صاحب الجلالة لو أن هذا الأمر وقع فعلاً : ماذا يفعل القوم لو أن الازرة كلها طاحت من مواضعها وتبخرت أنسجة الملابس بالفعل كما خيل لي في اليوم ؟ لله أبوم ! كيف كان كل منهم يتسلل لو أذاً الى أقرب نجأ ، وكيف كانت تنقلب حفتهم المبيية رواية مضحكة ، وكيف كانت نظام الحكومة برمته ، بل كيان المجتمع يجمته ، يتداعى معهم ويتلاشى بين عولات العمار وصيحات الفناء ! »

هل يستطيع القارىء أن يتصور خطيباً عرباناً يخاطب برلماناً عارياً ؟ ان الخيلة لتعجز عن تمثيل هذه الصورة ، وتقف دونها حسيرة مبهورة ، بيد أن الأمر ليس من الاستحالة بحيث نظن . أو لم يكن كل فرد من أولئك الحارسين لحقوقنا ، الساهرين على حرياتنا ، عارى الجسد أو يكاد ليلة البارحة وماذا يتمتع - لو جرى بذلك محتوم القدر - من أن يتمشى عارياً الى ندوة البرلمان ، كما يتمشى عارياً الى غرفة النوم ؟

الفصل التاسع

المادية والروحانية

الآن حصص الحق وبرح الخفاء ، وظهر ان صاحبنا الاستاذ من أغلى غلاة المنظرين ، لا يكاد يرى في روائع الحياة وزخارفها الا أسماً بالية وأناس كحفاة عراة ، فخرى بنا أن لا نتلوم بين هذه المباحث طويلاً ، وحسبنا

أن نعلم هذه الحقيقة البسيطة وهي أن تحت هذه الدنيا الكسبية دنيا عارية .
لهذا نضرب صفحاً عن كثير مما يذكره الاستاذ عن « مصارعات الملوك
المرأة مع الخوذية فوق الكلا حيث يسقط الفريقان مجدلين » وذلك حيث
يقول « شرحهم بالمشارط تجدد في الفريقين مظهرًا متملاً من الأوعية
والأحشاء ، والأنسجة والامعاء ، ثم اخص تركيبهم الروحاني تجدد في الفريقين
مظهرًا متملاً من الشراة الكبيرة ، والهمة الصغيرة . بل لملك تجدد
الخوذية بما يعلم عن غرائز البهائم وتأطير المجلات ، وقانون التوازن والاختلال
وما شا كل ذلك من فن جر العربات ، وبفضل ما مارس من العمل في مناحي
الطبيعة والكبد في مذاهب الحياة ، أخصب الفريقين ذهنًا وأوسعها حيلة .
لذن فذا السرفيا ينهما من هذا البون الشاسع ؟ السريا صاحبي في الملابس »
كذلك نفعل كثيرًا مما ذكره الاستاذ عن اختلاط الطبقات واختفاء الميزات
واستحكم الفوضى واضطراب الأمن الى ما شابه ذلك من الأمور التي هي
جدرة أن تخطر بالبال . حتى تمثل الفكر صورة « المجتمع العريان » على أنا
نسكن من كل ذلك بالكلمة الوجيزة الآتية :

« هل نحن من ذوات الأكياس ، قد جهزتنا الطبيعة بأكياس طبيعية
كالتى لليربوع ؟ أم كيف كنا نستطيع بنير الملابس تجهيز أنفسنا بذلك
المعضو الرئيسى : مقر الروح ومركز النفس ، بل الغدة الصنوبرية لجسم
المجتمع : أعني كبس النقود ؟ »

يبد أن الانسان لا يستطيع مع كل ذلك أن ينفذ الاستاذ ، بل غاية
ما فى الأمر أن يبق لا يدرى أيجبه أم ينفذه . ولا عروفاته اذا كان الاستاذ
عند التأمل فى بديع كسوة الحياة وما حوت من شريف التصاوير ورائع

التهاوليل لا يقتصر على إجابة النظر في وجهها بل لا يزال يقلبها على ظهرها ويفتش مواضع الخياطة الجافية والخرق المتدلية وسائر ما حوى ذلك الجانب التقيج من المشوهات - فإن فيه مع هذه النزعة السفلية نزعة علوية لا تقل عنها قوة وشدة . ولئن رأيتَه يحط من مكانة الانسان وينزله في بعض الاحيان عن سائر الحيوان ، فانك لتراه في أحيان أخرى يرفعه الى أعلى عليين ، ويجعله في صف الكرام المطهرين : ومن هذا القبيل العبارة الآتية : « ما الا انسان في عرف المنطق المادى ؟ حيوان ذو قائمتين يأكل اللحوم والأعشاب . وما هو في عرف المنطق الروحاني ؟ روح لدية وصورة آلهية ، يحيط بنفسه ، تحت هذه الأطوار الصوفية والقطنية ، ثوب من اللحم (أو من الحواس) منسوج على نول السماء ، وبفضل هذا الثوب الاحي يظهر الانسان لأخيه الانسان ، ويمش معه في اجتماع وإقتراق ، ويرى بعينه وبهيمه لنفسه علماً ذا مسافات مترامية من لازوردى الفضاء ، وآلاف مؤلفة من متطاوّل السنين . وكذلك يقضى المرء حياته في هذا الثوب المعجيب منموراً ملففاً ، مدفوناً مكفناً ، بيد أنه ثوب طاهر شريف جدير أن يرتديه الملائكة بل الآلهة . ألا يقف الانسان بفضلُه في منتصف الانهيايات ، وملتقى الأبديات ؟ لقد منح الانسان ملكة الشعور ، وأوقى القدرة على العلم والايان ، بل ألا ترى أن طيف الحب قد يطل في قلبه بساحر بهائه ، وباهر لآلائه ، وإن كان هذا لا يقع الا في مسترق اللحظات ؟ لله در القديس إذ يقول بشفتيه الذهبيتين « ليس في الأرض محراب مقدس غير ابن آدم » والا فأن تتجلى الحضرة اللدنية لبصائرنا فضلاً عن أبصارنا كما تتجلى في أخينا الانسان ؟ »

في أمثال هذه الشذرات - النادرة لسوء الحظ - تتجلى باطنية
الفيلسوف ساطعة باهرة ، وتفجر نزعة الصوفية كالينبوع الدافق والسيل
الجارف ، وعندئذ يخيل إلينا أننا نلمح من خلال ما يحيط بظاهره من مستقذر
الأنجزة بوكريه الأوضار بحراً صافياً من النور والمحبة . لكن - وآسفاه -
حينئذ ما تلتم فروج المجاجة المعتكرة ، فتحجبه مرة أخرى عن الأنظار .
إن هذه النزعة الباطنية لا تزال واضحة الأثر في جميع حركات الفيلسوف
وسكناته ، فهو لا يكاد يرى شيئاً من الأشياء حتى يتبين فيه غير معناه الظاهر
المكشوف معنى خفياً مستوراً ، ولئن كان يرى في صولجان الملك وريدة
الخلافة كما يرى في عكاز الصعلوك ومدرة الشحاذ معنى من الضعة والبلل
والضلالة ، فإنه ليرى في كل منهما أيضاً معنى من الرفعة والروعة والجلالة .
ولا غرو فإن المادة مهما حقرت وانضمت لا تزال مظهراً من مظاهر الروح ،
ومما شرفت وارتفعت فهل يمكن أن تكون أفضل من ذلك ؟ إن الشيء
المريء ، بل الشيء الموهوم ، إن هو الاثوب ورداء للروح الباطنة الخفية ،
القدسية السماوية التي لا يحيط بها فكر ، ولا يحدها شكل ، والتي قد أغلست
من شدة اللاألاء ! والآن فلنسمع كلام الأستاذ :

« أساس الحكمة وأصلها أن تحدد النظر إلى الملابس إما بعينك المجردة
أو بعينك المسلحة حتى تعود سرابية شفافاً . قال أحكم الحكماء في هذا العصر
(ينفي على الفيلسوف أن يتعرف أوساط الأمور ويتخذ هناك مكانه)
كلمة ما أصوبها وحكمة ما أصدقها ! الفيلسوف هو الذي إليه يتضع الرفيع
ويرتفع الوضيع ، هو الذي يكون لجميع الناس على السواء أخاً باراً وصديقاً وفيّاً
« أليق بنا أن نقف على القرائن مضطرب الجوانح بين يدي أنسجة

الملابس وأنسجة العناكب سواء أ كانت من نسج معامل الأتوال الصاخبة ،
أو من نسج عناكب الأوهام الصامتة ؟ أم هل تظن أن في العالم شيئاً
لا يستحق المحبة والاحلال، مع أن كل ما في الوجود من صنع البارئ
المتعال ؟

« طوبى لمن يستطيع أن يستشف بثاقب نظره صنوف الملابس
« ملابس القطان وملابس اللحم وملابس الأوراق المالية والمناصب
الحكومية) حتى ينفذ ببصيرته الى نفس الانسان ، وهناك يتبين في الأمير
الكبير والصعلوك الحقير آله هاضمة واحدة غير ذات كفاية ولا مقدرة ،
كما يتبين في كليهما سرّاً الهياً ملفزاً ، وطلسماً عجيباً معجزاً »

ثم يأخذ الاستاذ في الكلام على عاطفة العجب ، وفيض في وصف
عظيم فضلها وحيد أثرها ، قائلاً أنها أحق ما يستشعره المقيم في مثل هذا
الكوكب المملوء بالعجائب والمدهشات ، وذلك حيث يقول « العجب أساس
العبادة . وأن دولة العجب في الانسان لباقية دائمة ، لا يزول حكمها ، ولا
يأفل نجمها ، وان كانت تأتي عليها فترات قصيرة من الانحطاط والتضعف ،
شأنها في عصرنا الراهن . ان الانسان الذي لا يستطيع استشعار عاطفة
العجب ، الانسان الذي ليس العجب (وبالتالي العبادة) من شأنه ودأبه ، ليس
بشي نظري - وان كان رئيس ما لا يحصى من المجامع والمحافل وصاحب
محال يحرص من المصنفات والمؤلفات - الا مجرد نظارة ليس وراءها عين
بصيرة . فلينظر من خلاله أصحاب البصائر ، هنالك يصبح ذا فائدة ومنفعة .
جل ان الفكر وحده غير مقترن بماطفة الخشوع والعجب جدير أن يكون
عقياً قاحلاً ، بل ساماً قاتلاً . وكل علم تمثله الرأس دون أن يتشربه القلب

علم لاخير فيه . أفتحسب أن من العلم الصحيح تلك المعلومات التي يستطيع أن يستوعبها دماغ كدماغ الطبيب في ألف ليلة مفصول عن مجتمه موضوع في إناء يحفظ فيه روق الحياة دون أن يكون له بالقلب أدنى اتصال ؟ كلا ليست هذه من العلم في شيء وانما هي بعض الحرف المتهنة التي يجدر بالرأس الشريفة أن تربأ عنها بنفسها وتترفع ! »

الفصل العاشر

نظرة الى الامام

لقد تبين الآن للقراء ماتبأنا به وأخذت فلسفة الملابس تتكشف عن مفاوز شاسعة الانحاء ، محجة السماء ، لا يدري سالكها اتقضى به الى جنات زاهرة ومزوج ناضرة ، أم لا يزال منها في مهالك يلعب آلهام ومهامه يخدع سرايها .

وكذلك لا يزال الامتاذ يخرج بنا من فدفد الى فدفد ، ويسعد بنا من حلق الى حلق ، ولا تزال نظراته وطمحاته تزداد نفوذاً وثقوباً ، واتساعاً وشمولاً ، فمن ذلك رأيه في الطبيعة وانها ليست ركماً متراكماً ، بل نظاماً متلائماً .

« الله در صاحب الزامير اذ يتغنى ويقول (لواني استعرت أجنحة الصياح وسكنت في أقصى أنحاء المعمور لوجدت الله هناك) ، بل خبرني أيها القاريء المستنير المهذب الذي لا يعرف الله الا بالوراثة والتقليد : أستطيع أن تدلني على ناحية في هذا الكون ليس للقوة فيها أثر ؟ ان قطرة الماء التي تنفضها عن يدك البلولة لا تستقر حيث تقع ، بل انك لتجدها في غدك قد ترحلت

عن مكانها وامتنطت صهوة الشمال واقتربت من مدار السرطان . كيف تأتى لها أن تتبخر ، ولماذا لم تجمد في موضعها ؟ اتحسب أن في هذا العالم شيئاً عديم الحركة ، عديم القوة ، جامداً ميتاً ؟ »

« بينما كنت راكباً جوادى أسير في بعض السهول قلت لنفسى (تلك النار التي تتلأأ كالنجم الثاقب وتلوح لمينك خلال الغسق على مدى البصر - حيث يكب الحداد الأغبر على سندانه ، وحيث ترجو أن تركب حذاء لجوادك - أهى شرارة منفصلة منعزلة لا صلة لها بسائر العالم ، أم هى قطعة من الكون متصلة به اتصالاً موثقاً ، وملتحمة به التحاماً محكماً) أيها الجاهل الأحق تلك النار التي تراها الآن مشتعلة وهاجة قد اقتبست أول ما اقتبست من جرة الشمس ، ثم هى لا تنفك تتغذى بالهواء الذي يجرى تياره حول الأرض من قبل طوفان نوح ومن وراء الشعري العبور . هنالك في ذياك المكان قد اجتمعت قوة الحديد وقوة الفحم مع ما هو أعجب وأغرب أعني قوة الانسان ، فنشأ بين ذلك المجموع ارتباطات فتازعات فاتصارات . ذلك المكان هو غدة أو مركز عصبي في هيكل الكون ، أو سمه ان شئت منسكاً رفوعاً على صدر الوجود الكلي ، قريانه الحديدي ودخانه الحديدي وتأثيره الحديدي : جميع ذلك ينفذ ويسرى في كيان الوجود الكلي ، وما ذلك الحداد الا كاهن يشرح سر القوة لا بالكلمة واللسان ، ولكن بالمصعب والجنان ، بل هو يشرح فقرة صغيرة من انجيل الحرية - انجيل القوة الانسانية - الذي ان يمكن له الآن بعض الأمر ، فسيكون له يوماً من الأيام كل الأمر .

« منفصل منقطع ! ليس في الوجود شيء ينطبق عليه هذا الوصف -

وما كان شيء من عناصر هذا الكون لينعزل عن سائرهِ وينتبد جانبا ، بل الأشياء كافة ، حتى الورقة المصفرة الجافة ، تتعاون وتتصافر ، وتتفاعل وتتآزر ، يحملها من الحياة تيار زاهر ، عديم القرار عديم الساحل ، ولا تزال في أحوال متقلبة وأطوار متعاقبة . فالورقة الذابلة ليست بضائعة ولا ميتة ، لأن قوى عديدة تؤثر فيها وفيما حولها ، وانما على أسلوب معكوس ونظام مقلوب ، والا كيف كان يتأتى أن تتفنن وتنفى ؟ ألا لا تحقرن الخرقه البالية التي يصنع الانسان منها الورق ، ولا اللمنة القذرة التي تصنع الارض منها القمح ، فانك ان أمنت النظر لم تجد في العالم شيئا حقيراً ، بل ما من شيء الا وهو كنافذة تطلع من خلالها العين البصيرة الى أسرار الغيب وأعماق الأبدية»

ترك الآن هذا السهل بمحداده وسنلذه ، ومنسكه ومحراه ، ونظر الى هذه السفن الهوائية المحلقة في عنان الفضاء متسائلين الى أية غاية تجرى بنا ؟ « كل شيء منظور انما هو رمز ، وما تراه بعينك وتلمسه يديك لم يوجد لذاته ومن أجل نفسه ، بل هو اذا دقت البحث غير موجود أصلا . ذلك بان المادة لا تكون الا بفضل الروح ولا توجد الا لتصوير فكرة . ومن هنا صارت الملابس على احتقارنا ايها واستخفافنا بها ذات شأن رفيع . فانها من حلال الملوكة الى اطمار الصعاليك رموز ودلائل ، تشير لالى الحاجة خاصة بل ايضا الى فوز مبين على تلك الحاجة . ثم ترى من جهة اخرى أن جميع الأشياء الرمزية ان هي في الحقيقة الا ملابس نسجتها الملكة الخيلة أو اليد العاملة . فلما الخيلة فعلينا أن تنسج ثيابا منظورة - أو قل اذا شئت أجساما مرئية - ترتديها مبتكرات الفكر الخفية ، فتجلى للاذهان ، كما تجلى للارواح

في هياكل الإبدان . وأما اليد العاملة فتتقدم الى مساعدة الخيلة ، ثم بفضل المنسوجات وما شاكلها من الملموسات يظهران هذه المبتكرات الخفية للعيان ، فضلا عن الازدهار .

« لقد صدقوا حين يقولون : فلان عليه ثوب الهيبة والوقار ، وفلان ينشاه رداء الحسن والجمال ، وفلان عليه ثوب من مقت الله وغضبه ، الى ما شاكلها من الاقوال . بل تفكر في الامر مليا ثم حدثني : ما الانسان ذاته ، بل ما حياته الدنيا باجمعها ، ان لم يكن رمزا وإشارة ، وان شئت فقل رداءً منظورا تسربلته النفس الآدمية الالهية الهابطة من أعالي السماء الى وهاد الارض كأنها ذرة من النور ، أولحة من الأثير ؟ ومن هنا جاز القول بأن الجسم رداء الروح .

« يسمون اللغة رداء الفكر . والحق أن المعنى روح واللفظ جسم ، أو ثوب من اللحم يرتديه الفكر . لقد قلت أن الملكة الخيلة هي التي تنسج هذا الرداء ، أو ليس الامر كذلك في الواقع ؟ أجل انها تفعل ذلك وتتخذ مادتها من المجازات والاستعارات ، فانك اذا استئنيت من اللغة بعض عناصرها الاولى (وهي التي تحكي الاصوات الطبيعية) لوحدت سائر استعارات ومجازات ، بعضها لا يزال غضا زاهيا ، وبعضها قد أصبح جافا ذابا . واذا كانت تلك العناصر الأولية بمثابة الهيكل العظمي في جسم اللغة فلا استعارات والمجازات هي لحم وعصبه ، وجلده وعضله . ولن تستطيع مما أطلت البحث ان تجد اسلوبا خاليا من الاستعارات سليما من المجازات . وانما تفاوت الأساليب في أن بعضها هزيل نحيل قد جف عصبه حتى صار أشبه بنظمه ، وبعضها مصفر مكفر قتله الجوع وترأى على وجهه الموت ، وبعضها يشرق في بشاشة العافية والصحة ويمتثل في عفوان

النماء والقوة . ثم هنالك من الاستعارات ماهو كاذب مزيف وحشو مبهرج
يتراكم على جسم الفكر (وحقه أن يكون عاريا) كما تراكم على البدن
الأكسية الموشاة الكثاف، والزخارف المبهرجة الثقال »

عمرك الله أيها القارىء هل عثرت في جميع مطالعاتك على عبارة هي
أحفلى بالتشبيهات وأحشد بالاستعارات من هذه النبذة التي يتكلم فيها الاستاذ
عن التشبيه والاستعارة ؟ ولكن ماهذه بظلامتنا الوحيدة ولا بشكايتنا
الكبرى فهناك ماهو أمر وأدهى : فلنرجع الى حديث الفيلسوف .

« أى حاجة نل الى الاكثار من الشواهد ؟ لقد جاء في التنزيل (سوف
تبلى الارض والسماء ، كما يبلى الرداء) وكذلك هما بلا ريب : رداء من الزمن
تجلى فيه الأبدية . فكل شيء يوجد في عالم الحس وكل شيء يظهر الروح
للروح انما هو في الحقيقة ثوب وملبس يرتدى لاجل معلوم ثم ينزع . وكذلك
تري أن مبحث الملابس ، اذا فهم على حقه ، مبحث خصيب يتضمن كل
ما فكر فيه الانسان وما حلم به ، وكل ما فعله وما كانه ، فاعلم الظاهر وجميع
ما يحويه الأرداء ، وما لباب العلوم وجوهرها الا في فلسفة الملابس »

الى هذه الآفاق المترامية الانحاء ، المتغيرة الارحاء ، وجد الناشئ نفسه
متجها في حذر وعناء . وقد كان يهز عليه الامر أنه ما برح يرى في الوثائق
المتروكة ورودها من الهر هفراث كوكبا من كواكب الامل ، ولكن هذا
الكوكب قد أخذ يتوارى - لا في ضوء الصباح المسفر ، بل في غبش قاتم
أغبر ، ليس يدري أهو فجر النهار الضاحك ، أم مقدمة الظلام الخالك . والواقع
أن تلك الوثائق التي طالما تشوقنا اليها قد وصلت الينا منذ اسبوع فسرعان

ما فضضنا غلافها ، وتصفحن بنافذ الصبر محتوياتها ، ولكننا وآسفاه لم نلبث أن القيناها بين أيدينا وقد خاب الظن واخفق الرجاء .

ولقد بعث المهر هفراث مع هذه الوثائق بخطاب مطول جعل يذكرنا فيه بما نعلمه علم اليقين فيقول أنه كيفما كان الامر بالنسبة للعلوم النظرية المجردة التي لا منشأ لها الا من الدماغ ، فالواقع بالنسبة لفلسفات الحياة التي تدعى فلسفة الملابس هذه انها منها والتي تصدر عن الخلق كما تصدر عن الرأس - الواقع بالنسبة اليها انها لن تنكشف عن جميع معانيها ولن تؤدي الى أقصى مراميها الا اذا تنكشف الخلق الذي هو مصدرها ، « الا اذا تبين للقارىء رأى المؤلف فى هذه الحياة واتضح له بآية كيفية ، من سلبية وإيجابية ، توصل الى تكوين هذا رأى - أو بالاختصار الا اذا كتبت ترجمة المؤلف بطريقة فلسفية شعرية ، وقرئت كذلك بطريقة فلسفية شعرية » ثم يقول صاحبنا على سبيل الاستطراد « كلا بل لو أن الحقيقة العلمية المجردة ذاتها قد تجلت لناظريك لما اكتفيت بمطالعتها ، بل لانشأت تسأل نفسك من أين جاءت ولماذا وكيف ؟ بحيث لا يستريح لك بال حتى يصوغ لك الوهم - ان لم يضع لك الواقع - جوابا يرضيك ، وحتى تجد بين يديك صورة كاملة لمنشأ الانسان ومساعيه ، ومجهداته ومراميه ، سواء أ كانت هذه الصورة قد نقشت بألوان الحقيقة الصادقة ، أم بالوان الخيال الملفقة ، ولكن مالى أسهب فى بيان ما لترجمة فيلسوف الملابس من فوائد وفضائل ؟ أو لم يقل حكيمنا الكبير جوتا « ماعنى الانسان حقا الا بالانسان » وهلم الا حظ بنفسى أن كل ما يمرى بيننا من الاحاديث ان هو الا ضرب من التراجم ؟ حقاً ان التراجم لهى من دون سائر الاشياء اجز لها فائدو أعظمها متاعا لاسما تراجم الممتازين من الافراد »

ثم يستمر المهر هفراث في عبارة بليغة لعله قد سرقها من كلام الاستاذ
أو لعل الامر كله خدعة من تمويه نيو فلسدروخ وذلك حيث يقول « ولا
اخالك يا صاحبي الا قد توغلت الان في غابة فلسفة الملابس وجملت تتلفت
حواليك متعجبا مندهشا ، فكم هنالك من نبذ ناحرات ، وفقرات رائعات ،
جديرة بان تستثير في نفس كل قارئ تطلعا غريبا الى معرفة تلك الرأس
التي أنجبها ، الى اكتناه تلك الآلة العجيبة المنقطعة النظير التي في مقدورها
اتاج أمثال هذه الطرف البديعة والتحف الممتعة ، أكان لنيو فلسدروخ كما
لسائر الناس أب وام ، وهل ركسائر الناس بدور الطفولة فكان يلف في
الإقطة ، ويجمع الطعام بالملعة ، هل ضم الى صدره بين خفقات الطرب
وعبراته صدر صديق ، وهل ينظر نظرة المتعظ المتأمل في دهايز مقابر الماضي
حيث لا يجيب النداء الا انين الريح ورجع الصدى ، بل ليت شعري كيف
حاله في مواقف الغرام ، وجملة القول من أى سراديب ومعارج ، ومن أى
اتفاق وثنيات ، قد اطلع الى هذه القمة القدسية العجيبة حيث هو الآن مقيم ؟
« تلقاء هذه الاسئلة كلها لا يزال التاريخ صامتا لا يبحر جوابا ، فكل
ما يعلم عن صاحبنا علم اليقين أنه رحالة آت من سفر بعيد قد نال منه الآين ،
وبات يشكو الوجى ، وانه قد سطا عليه كثير من اللصوص وفارقه في الطريق
الكثير من الرفاق ، ولكنه تمكن في كل مرحلة من دفع ضريبة الجواز (والأ
لما تركوه يمتازها) ولكن اين كل ما يتعلق بخط سيره من التفاصيل ، وماذا
عساه أخذ في رحلته من الارصاد الجوية والمناظر الطبيعية ؟ كل ذلك لا سيبل
الي معرفته ؟ أكل ذلك قد فقد بحيث لا أمل في العثور عليه ؟ أهنا صحيفة
اخرى من ذلك السفر الضخم (سفر الدائرة الانسانية) تركت لكي تطير

في مهب الرياح من غير أن تطبع وتنتشر وتجلد وتحفظ ؟
« كلا يا صاحبي إني الله أن يكون ذلك ، فما أنا أبعث اليك - بفضل
مالك عند الفيلسوف من مكانة - ترجمة حياته مكتوبة بقلمه ، أو على الأقل
المادة اللازمة لإنشاء هذا الترجمة ، وكذلك ستكشف فلسفة الملابس وفلسوفها
لأعين الجمهور المتعجب في بلاد الأنجليز ومن ثم تنتقل الى امريكا فالحند
فاليابان ، حتى تنتشر على الجانب الاعظم من هذا الكوكب السيار ! »
وليتصور القارىء بعد ذلك شعورنا وقد وجدنا ، مكان هذه الترجمة
التي ستسيطر اللام عن فلسفة الملابس وفيلسوفها ، ستة أضياف ضخمة
عنى بلفها وحزمها وختمها ، وفي داخل كل منها كمية هائلة من الصحائف
والقصاصات مكتوبة بخط الاستاذ ، وهو لا يكاد يقرأ ، وقد تعرض فيها
لكل موضوع في الارض والسما لا ترجمته الشخصية ، فانه لم يتناولها الا
لما في عبارة هي منتهى الغموض وغاية الالتغاز .

ففي حزم بحذافيرها من هذه الأوراق لا يكاد الاستاذ يشير الى نفسه
أدنى إشارة . ثم تراه في مواضع أخرى يبناه يحدثك عما وراء الطبيعة أو عن
آرائه في الآلات البخارية أو عن إمكان اتصال جبل النبوة يلقي اليك عرضاً
نبأ حادثة من حوادث حياته الخصوصية لا تعلم حظها من الأهمية . وفي
بعض الصحائف يقص علينا أحلاماً يعلم الله حقيقة هي أو مخترعة ، بينما
وقائع يقطتها وتصرفات انتباهه قد أغفلت اغفالا . وفي بعض القصاصات
السائبة تقرأ حكايات صغيرة ولكنها في أكثر الأحيان خلو من كل إشارة
الى زمانها أو مكانها . أما تنقلاته ورحلاته فلا دليل عليها الا ما يصادفك في
كل حين من اعلانات الشوارع التي زار الاستاذ مدنها في مختلف أسفاره ،

ولعل هذه الأضابير قد حوت من هذه الاعلانات المكتوبة بكل لسان مجموعة ليس لها في الدنيا نظير . هذا وقد تثر الفينة بعد الفينة على بيانات مطولة عن شيء من تفاصيل حياته ، ولكن في غير ترتيب ولا تنسيق ، وفي تدقيق لا موجب له واسهاب لا فائدة منه . وهكذا تجد جذب المعلومات يتناوب مع الأسراف فيها ، وأحمال الأخبار يتداول مع الإفراط منها ، كأنما هذا الفيلسوف لم يسمع في حياته عن شيء اسمه النظام أو حسن الاختيار ، اذ كل ما في الوثائق فوضى فوق فوضى .

واذ كان في نيتنا أن نودع هذه الأضابير الستة المتحف البريطاني فانا نوفر على نفسينا كل أطناب في وصفها ، وحسبنا الآن القول بأنه لا أمل البتة في أن نستخرج منها ترجمة لحياة الاستاذ بللمنى المفهوم من الترجمة ، بل كل ما نطمح فيه أن تنشأ بين الناشر والقارىء بمجهوداتهما المشتركة من كد الذهن وإجهاد الخيال صورة قريبة الشبه لهذا الفيلسوف الغريب .

وكذلك شرع الناشر يواصل ليله بنهاره في استجلاء غوامض هذه الوثائق المدهشة ومقابلتها بمحتويات الكتاب الذى لا يقل عنها إدهاشاً ، محاولاً بكل جهده أن يبني للقراء فوق هذا السديم المضطرب الموار ، للتلاطم القوار ، جسراً متيناً . وأكبر ظني أنه منذ قام أول اثنين من بناء الجسور - الموت والخطيئة - بيناء ذلك القمد الهائل الممتد من باب الجحيم الى حافة الأرض لم يأخذ أحد قط على عاتقه مثل العمل الذى يحاوله الناشر . والحق أن العاملين من حيث الضعوبة يتشابهان ، وإن كانا - فيما نرجو - من حيث الغاية يتباينان . فانا نحن أيضاً مضطرون الى التقاط مواد البناء ، من أعماق الهاوية ومن أجواز الفضاء ، آخذين من هنا كتلة ومن هناك كتلة ،

عاولين بكل مالدنيا من مهارة أن نلصق القطعة بالقطعة ، ينما العناصر تنلى تحتنا وتقور ، ونصطفى وتغور . ذلك الى أننا لم نؤت قوة خارقة للطبيعة تؤدى بها هذا العمل ، بل كل عدتنا تنحصر فيما رزقه ناشر انجليزى ضعيف من قوة اجتهاد وملكة تفكير ، يحاول بهما أن يخلق « دنيا » مطبوعة من « سديم » مطبوع ومخطوط . وانها لمحاولة - علم الله - وشك أن تفتك بملكاته ، بل تكاد تودى بحياته .

ولقد أخذ الناشر - تحت تأثير هذه الجهود المتواصلة العنيفة - ينظر صابراً متجلاً الى بنيته القوية تهزل وتنحف ، والى حظه من النوم ينقص ويتحيف ، والى جهازه العصبي يضطرب ويضعف . وأي بأس فى ذلك ؟ ما فائدة الصحة ، بل ما فائدة الحياة ، ان لم تستهلك فى تأدية عمل من الأعمال ؟ وأي عمل هو أفضل وأنبل من غرس الافكار الأجنبية ، فى التربة القاحلة الأهلية ، اذا استثنينا طبعا غرس بنات أفكارك وتلك موهبة لم يؤتها الا الأقلون ؟ ان فلسفة الملابس هذه تبشّر ، اذا استطعنا أن نصل الى صميم معناها ، بأن تفتتح فى تاريخ الانسانية عهوداً جديدة - بأن تسفر عن تبشير عهد أعبد وأعلى ، وأشرف وأسمى . فهلا تستحق هذه الغاية أن تتسابق اليها ونهافت عليها ؟ فالى الأمام معنا أيها القارىء الشجاع ، لتكن العاقبة ما كانت : فشلا وخفاقا أم فوزاً ونجاحاً ! فان تكن الأخرى فان لك نصيبك منها ، وان تكن الأولى فان الذنب كله علينا .

الكتاب الثاني

الفصل الاول

النشأ

غير محقق ان كان كشف الستار عن غوامض مولد الانسان ومنسبه
يهدد كثيرا في تعرف حقيقته . بيد انه لما كان مبدأ كل شيء في الكون
لا يزال يمد أخطر لحظة في حياته كان الناس عند النظر في ترجمة البطل من
الابطال لا يستريحون أو يزاح لهم النقاب عن جميع الظروف المحيطة والتفاصيل
المتعلقة بمقدمه الى هذا الكوكب السيار . سواء أ كان لهم في ذلك فائدة علمية
أم لم يكن . لذلك قد أفردنا هذا الفصل الاول للبحث في منشأ فياسوف
الملابس ، ولكن يظهر لسوء الحظ أن صاحبنا غامض الأصل ، ان لم يكن
مجهول النسب ، فهو لا يعرف له مولد ولا منسب ، وكل ما يعرف عنه انتقال
من عالم الغيب الى عالم الشهادة ، وذلك حيث يقول :-

« في قرية انتبهل كان يقيم اندريا قترال وزوجته في عزلة وسكون
. واعتباط وان كانا قد أشرفا على الشيخوخة ولم يرزقهما الله بمولود . وكان اندريا
منابطا ومعلما عسكريا في عهد فردريك الأكبر . بيد أنه قد استعاض المحراث
والهجرفة من الرمح والمصا ، واعتكف في تلك القرية يزرع حديقة صغيرة

يعيش على ريمها شأن « سنسيناتس »^(١) في عزة وقناعة . وكان يقضى
العشيات بالتدخين أو المطالعة ، ويقع على جيرانه أنباء الماضي من وقائمه
الحرية وحوادث حياته العسكرية .

أما زوجته جرتشن ، وكان قد ملك فؤادها كما ملك عطيل فؤاد ديدمونا
يمجد أفعاله لا بسحر الحظ ، فكانت تحبه حباً جما وترى فيه المثل الأعلى
للشجاعة والحكمة ، كأنه في نظرها « سيسرو » خطيب الرومان و « سيد »
فارس الأسبان ، ولا غرو فان الذي تراه ولا يستطيع فترك أن يتعدها هو
بالنسبة اليك بمنزلة أقصى غايات الكمال ، وأبعد مطامح الآمال . وبعد أو لم
يكن أندريا في الواقع رجل نظام وشجاعة وجد واستقامة جديراً بالحب
والاجلال ؟ وهكذا كانت جرتشن تتماهم وترعاه ، وتحنو عليه وتحفى
به ، شأن الزوجة الصالحة ، لا تفتر لحظة عن القيام بشئون بيته من
طهي وتنظيف وخياطة ، فلم تكن عنايتها مقصورة على الاحتفاظ بسيفه
التقديم وخودته العتيقة ، بل كان البيت كله وجميع ما يكتنفه بروق العين بحسن
روائه وبشاشته ، ويشرح الصدر بجمال ترتيبه ونظافته . وكان كوخاً
فسيح الغرف مزدان الجدران ، تظله أشجار العلب والفاكهة ، وتحتضنه
أغصان المتسلقات ذوات الخضر الدائمة ، وكلها صاعدة ، في اختلاف ألوانها
والثقاف أفتانها ، من حياض الكلال المقصوص والعشب المسوى ، قد تكاثرت
زهرها حتى راح يطل في جوف الكوخ من خلال نوافذه . ثم ترى تحت
دقارف السقف أدوات الفلاحة مكومة على أجمال نظام لوقيتها من المطر ،

(١) قائد من عظماء نواد الرومان وزعيم من كبار زعمائهم اعتزل الحياة العسكرية
والسياسية في أغريبات أبلمه واعتكف في مزرعة صغيرة له

وعدة مقاعد نظيفة لو رآها ملك متوج لئن أن تكون له ولا شئى أن يضطجع عليها ذات ليلة من لىالى الصيف ، مبرأ من أكدار الهموم ، منغمساً فى صفاء النعيم .

« فى ذات عشية ساجية الأصيل ناعمة النسيم ، وقد توارت الشمس عن أهل القرية ، وإن كانت لا تزال تسبح مشرقة باهرة فى أبراجها العلوية ، دخل ذلك المش الآدى الظليل انسان غريب الهيئة ذو وقار وهىة . فلم على ساكنيه ووقف حيالهما وقد عرتهما دهشة ، وكان ملتفعا بعباءة سابغة فخر طياتها وهو لا يفس يننت شفة ، وأخرج منها سلة تفشاها رقعة خضراء من الديباج الفارسى ، ثم قال (يا أهل الخير والتقوى انى أضع بين أيديكما وديعة لا تقوم بضمن فابذلا فى صياتهما والا تنفاج بها كل عناية وورعاية واعلما أنه سيكون يوم تطالبان فيه بردها فتتابان على ما أسلفتما أحسن الثواب ، أو تماقبان أشد العقاب) ، قال ذلك بصوت جلى جهورى لا ينسأه السامع آخر الدهر ، ثم انسل فى خفة وخفوت . وما كاد أندريا وزوجته يفقان من الحيرة ، وعسحان عن عيونهما نظرة الدهشة ، ويجدان من الوقت متمسكا للسؤال أو الجواب حتى كان الغريب قد اختفى عن النظر ، فى أسرع من لمح البصر ، فنظرا فى خارج الدار علهما يققان منه على خبر ، فوجدا السكون سائداً وباب الحديقة مطلقاً . ولم يكن فى كل ما يحيط بالبقعة شئ . نيم عنه أو أثر يدل عليه وقضى الأمر فى ثوان معدودات وفى غبس الشفق وسكون المساء فى غير عنف ولجبة ، بل بكل رفق وتؤدة ، حتى خيل صاحب الدار وزوجته أن الأمر كله خدعة من خدع الوم ، أو زورة من غف ، لولا أن السلة ذات الرقعة الخضراء كانت لا تزال قائمة على المائدة

تنظر بالعين وتلمس باليد ، وما عهد قط أن وهما أو طيفاً حمل مثل ذلك الحمل .
فبادر الزوجان الى فحص السلة ومعهما شمعة موقدة ، فرفعا النطاء الأخضر
لينظرا ما حوت من كنز قديس ، فلم ترعهما درة يتيمة ولا ملسة نخمة ، بل
طفل غض الأهاب أحمر اللون نائم بين لفائف ناصعة من الرغب الناعم
والخز الوثير ، والى جانبه صرقتان الدنانير لم يشهر للملأعدة ما فيها . ووجدوا
أيضاً شهادة التعميد ولكنها مطموسة كلها غير الاسم ، ولم يكن مع
المولود شيء غير ذلك من الوثائق أو الدلائل .

« وما كان التعجب والتخمين لجديان ، في ذلك إلا وإن أو بعد ذلك
الأوان . فقد اتقضى الغد وتاليه ولم يسمع عن الغريب أدنى خبر ، لا في
القرية ولا فيما جاورها . وفي أثناء ذلك كانت المسئلة الكبرى التي تواجه
أندريا وزوجته (ماذا يصنعان بهذا الطفل النائم المحمر اللون ؟) فقر رأيهما
بين الدهشة والتعجب على التكفل به وإرضاعه حتى يبيض لونه ، بل حتى
يكبر ويشتد أزرقه اذا استطاعا الى ذلك سبيلا . وقد أمدهما الله فيما حاولا
بموهنة وتأنيده . وهكذا أتيج لتلك المجهول الأصل أن يأخذ من هذا العالم
مكانه ، وهما هو الآن بعد أن امتد جسمه طويلاً وعرضاً ، واتسع علمه بالأشياء
خيراً وشرّاً ، قد أصبح معروفاً بين الناس باسم الهر دياجونيس تيوفلسدروخ
أستاذ « علم الأشياء كافة » في الجامعة الجديدة بمدينة وستنتشو »

وهنا يصرح الفيلسوف بأن أول علمه بهذا السر كان عن لسان الصالحة
جرتشن فتال في الثانية عشرة من عمره ، ذلك حيث يقول :-
« وقد غادر هذا النبأ في قلبي الصغير أثراً لا يمحوه كرايم وماراليلي ،
وجعلت أسأله نفسي : تري من كان ذلك السيد المهيّب ، التي أنسل الى

الكوخ والشمس جانحة للغروب ، ثم اتلس منه املاس الخيال في الفضاء؟
وقد تملكني منذ ذلك الحين شوق لا يوصف وحنين ممزوج بالحزن والوله
الى معرفة الحقيقة. وما زلت كلما تأو بفتي الهموم والاشجان ، وأوحشتني العزلة
والقطيعة ، اتجه بمخيلتي لتلقاء ذلك الوالد المجهول الذي ربما كان قريباً مني ،
وربما كان بعيداً عني ، وهو في الحالتين غير منظور ، فأتلطف على لقائه كيما
يعنني الى صدره الحنون ويحميني هنالك من لواعي الآلام ... أيها الوالد
المحبوب أفلا تزال تروح وتغدو بين زحام الاحياء لا يفصلك عني الاستار
شفاف رقيق من الغشاء المكاني ، أم تراك قد أسدلت بيني وبينك تلك
الاستار الصفيقة - أستار الليل السرمدي ، أو لعلها أستار النهار الابدي ،
التي عبثاً ما أحاول ان استشفها بنظري أو أتقذ فيها ذراعي؟ ويلاه ! ويلاه !
لست أدري وعبثاً ما أحاول أن أدري ! لعلما حدثني فؤادي المخدوع انك
هذا الغريب النليل أو ذلك ، حتى اذا دنوت منه أمعن فيه النظر واتقرس
منه عاطفة الحنو فأى عنى يجانبه ، فاعلم انك لست به »

وهنا تأخذ الفيلسوف بعض نوباته الفجائية فيصيح قائلاً « ومع كل
هذا خبرني أيها الانسان المعروف الأيون : بماذا اتفردت حالي عن حالات
سائر الناس ؟ اتحسب انك تعرف أباك أكثر مما أعرف أبلي ؟ ان آدمك
وحوايك اللذين جاءا بك الى هذه الحياة حيث لبثا حيناً من الدهر يرضعانك
ويربيانك والذين تدعوهما أبويك ان هما بالنسبة لك الا كاندريابو جرتشن
بالنسبة لي : مجرد مرضعين ومرييين ، اما أصلك الحقيقي وأولك في السماء
لا يرى بعين الجسم بل بعين الروح »
ثم يستأنف الاستاذ قصته : « ولا أزال محتفظاً بالقناع الاخضر وأشد

من ذلك احتفاظي بالاسم: دياجنيس تبوفلسدروخ . فلما القناع فلا سبيل الى استنتاج شيء منه ، وما هو الا قطعة بالية من الحرير كالآلوف من أمثالها . وأما الاسم فكثيرا ما أجلت فيه الروية ، ولكنني لم أقف منه على دلالة اهتدى بها الى الحقيقة المنشودة .

« وكأني بك تعجب من قولي هذا أيها القارئ . ولكن مهلا ! اني مازلت أنظر الى الاسماء نظرة اكبار واجلال ، قلن فيها من عميق الملقى مالا يحطرك يال ، وما الاسم الا أول رداء ترتديه النفس ساعة قدومها الى هذه الحياة ، ثم لا تزال متشبثة به حتى يكون لها أبقى من أهائها وأدوم ، فانا لنعرف من الأسماء ما عمر نيفا وثلاثين قرنا . الأسماء وما أدراك ما الأسماء ! أما لو استطعت أن أريك خفي تأثيرها وبميد قفوها لأرتك العجب العجيب ! ليس مجرد الكلام المعتاد بل العلم كله ، والشعر ذاته ، كلاهما لا يمدو كونه تسمية صائبة . لقد كان أول ما فعل آدم في هذه الحياة أن تعلم الأسماء : أسماء الظواهر الطبيعية ، فمرك الله ماذا نحن فاعلون حتى اليوم الا مواصلة ما بدأه ، سواء أكانت تلك الظواهر زراعية أو عضوية أو آلية أو فلكية (وذلك هو العلم) أم كانت وجدانات وشهوات أو فضائل ومكررات أو كوارث وآفات (وذلك هو الشعر) ؟

« في أثناء ذلك كان الرضيع ، وهو في باكورة عهده بالحياة وفي جهله بكل ما أحاط به منها ، قد أخذ يفتح عينيه لكريم النور وشرع يدجو أروحه ، ويتلمس بأطرافه ، ويتسمع ويتنوق ، ويحس ويشعر ، وجملة القول أنه جعل يستعين بحواسه الجسدية أو إذا شئت فزد عليها حاسة الجوع وقل بحواسه الستة مع مالا يحصى من الحواس الروحانية الباطنة ، تلك التي قد اخنت تنبيه في

نفسه ، محاولا بكل ذلك أن يعلم شيئا عن هذا العالم الغريب الذى نزل به ، كائنًا ما كان واجبه فيه . ولشد ما كانت سرعة تقدمه ، فقد استطاع فى بضعة عشر شهراً أن يؤدي تلك المعجزة المعجبة : معجزة الكلام . عجبوا الله أليست تربية الروح الغضة أشبه شئ بترية بيضة (سماوية) غضة ، كل ما فيها لا يزال عديم الصورة عديم القوة ، ولكنها لا تلبث حتى تنبت بالتدرج فى زلالها المائى عناصر عضوية وألياف حيوية ، ثم ترى غامض الاحساس يتمخض عن الفكر قليلال فالقوة ، ومن ثم تنشأ المبادئ الفلسفية والأسر الملوكية بل القصائد الشعرية والمذاهب الدينية !

« الى هذه الغايات القصوى جعل دياحونيز الصغير يتقدم بخطوات لينة حثيثة . وقد أراد آل قترال ، ان يتقيا القيل والقال ، فلشاعا فى القرية ان الرضيع يمت اليهما ببعض صلات القرابة ماتت عنه أمه فارسله اليهما أهله ، إذ كانا هما أحق الناس بكفالتهم . وجعل الرضيع يتنذى ويترعز ، غير مكثرت لشيء من ذلك . ولقد سمعت بعض أهل القرية يقول أن الطفل كان هادئاً ودعماً قليل الكلام قليل الحركة ، وأنه لم ير البتة يصيح ويبكى . لا غرو فانه قد بدأ يشعر بأن الوقت غين ، وبأن لديه من المهام مالا يسمح له بالمويل أو الأثين ! »

الفصل الثانى

عهد الطفولة

« ألسناك النيث يا عهد الطفولة ورعاك الله يا زمن الصبا ! وأنت أيتها الطبيعة الرحيمة هل كنت الأما رؤوماً لجميع هذا الخلق ، تروين كوخ الفقير بساحل ضيائك ، وبارع لألائك ، وتلفين رضيعك الضيف بلقافة لينتمن وثير الحب وسابغ الامل ، فلا يزال فى اثناها ينمو وينام ، ترقص حوله مفرحات

الاحلام ؟ ولئن حببتنا لاذ ذاك دار الأبرين بين جدرانها ، فإن لنا فيها لمقلدا
ومأوى ، ولنا من الوالد بنى واملم ، ومؤدب وساطان ، نلقى اليه من الطاعة
ما يهدى لنا نعمة الحرية ، وتؤدى اليه من الخشوع ما يقينا ذل العبودية .
يومئذ تكون الروح الصغيرة حديثة العهد بالتيقظ من الابدية ، فهي
لا تعرف معنى الوقت ، ولا تدري أنه ذلك التهر الجوح ، ذو التيار الطموح ،
بل تراه مجراً فسيح الأرجاء ، يلعب الموج على متنه ، ويتكسر الشعاع على
ثبجه . تتمر السنين على الطفل كأنها احقاب ، ذلك بان تصرف الدهر لا يزال
سراً مكتوما ، وعوامل البلى ومعاول الفناء - تلك التي لا تنفك تقدح على
عجل أو مهل في هيكل الكون من صخره وصوانه الى حيوانه وانسانه
الى هوامه وديدانه - لا يزال أمرها مخفياً ، وأثرها مطويا . هنالك نذوق من
حلاوة الراحة في ذلك السكون القرير ، والعيش الغرير ، ما يحرم علينا ابدا
مذاقه متى انكشف لنا العالم عن جليلة أمره ، فعلنا أنه تلك الرحي العنيفة
الحركة المستمرة الدوران . ألقم هنيئا أيها الطفل الجليل ، فما قليل يؤذن
موذن الرحيل ، ويسار بك في رحلة شاقة وسفر طويل ! أجل ان هي
الا لحظة حتى تحرم لنة هادي النوم ، وحتى تنقلب احلامك المفرحة
خيالات مزعجة لما تمناه في يفتلك من مر الكفاح وعنيف الجهاد . نعم
سوف تقول كما قال الاول في صبر وجلد : (أي حاجة في اليوم الى الراحة ،
والأبدية كلها أملي وفيها من الراحة ما يكفيني ؟) أها السلوان المريح ! هذا
بيروس قد فتح الممالك ودوخ الاقطار ، وهذا الاسكندر قد ملك الارض
ودانت له الامصار ، ومع ذلك فقد اعجزتها مثالا ، ولم يستطيعا لك رامما ،
ثم نراك تأتي من تلقاء نفسك وبعض هواك فتقع على اجفان الطفل نوما

ندبا ، وتنزل في فزاده رَوْحًا هنيا ، ذلك بأن النوم واليقظة عنده سيان ،
وجنة الحياة الضاحكة تمتد حوله الى غير نهاية في حفيف أوراقها الناعمة ،
وتقايل اغصانها المائسات ، تبعق بذكي الأرج أقاسمها الطلة ، وتنفطر
عن براعم الأمل أفنانها الخضلة ، تلك البراعم التي إن تفتحت في عهد
الشبيبة عن نوارها النض فلن تؤثى في عهد الكهولة قطوفا جنية يانة ، بل
ثمرة صلبة شائكة ذات قشرة صفيقة الغلاف مره اللذائ لا يهتدي إلا الأقولون
الى لبابها وشحمتها !

من خلال هذه الاوار البهية والاضواء المتلألئة ينظر الاستاذ الى
عهد طفولته شأن الشعراء . ثم تراه يفيض في تفاصيل ذلك العهد بتدقيق
واسهاب يكاد يبلغ حدا الملل ، يتخلل كل هذا قطع خطائية وبذخ شمرية ،
ثم وصف مغاى صباه ومعاهد طموه . فن ذلك وصفه للوحة التي كان يختلف
اليها أهل القرية كل عشية فيجلس الشيوخ في ظلها يتحدثون ، ويضطجع
الى جانبها العمال المتعبون ، ويظل الاطفال النشيطون يرحلون حولها ويلعبون ،
ويروح الفتيان والفتيات على ايقاع الموسيقى يرقصون ويتنازلون ، وذلك
حيث يقول « فيالهامن أصائل ناعمت ، إذ يعم السكون وتخفت الاصوات ،
والشمس قد ولتنا ظهرها وجنحت للمغيب ، كأنها ملك أصيد مهيب ، على
اعطافه أرجوان الملك مزخرفا بباخر العقيان ، وحوله موكب حرسه
مؤلفا من بديع الالوان . وقد أمكنت الفرصة عمال هذه الارض من
اختلاص لحظة يستريحون فيها قليلا ، بعد كد النهار وتعبه ، ويلهون بسيرا ،
غب عناء اليوم ونصبه ، على ثقة بأن تلك النجوم الوديمة الرفيقة لن تشي
بهم ولن تم عليهم »

ثم يقول الاستاذ على ذكر ملاعب صباه « وأنت إذا تأملت في ألعاب الأطفال ، حتى ما كان منها كله ائتلاف ، لرأيتها جميعا تتم عن غريزة انشائية ، مما يدل على أن الطفل يشعر بأن وظيفته في الحياة هي العمل والانشاء . وأحب الهدايا اليه آلة أو أداة من أى نوع كانت ، للهدم أو البناء ، للتدمير أو التخريب ، فاتها على كلا الحالين صالحة للعمل والتشجير . ثم تراه باشتراك مع اترابه في اللهو يمرن نفسه على التعاون والتضامن ، للسلم والحرب ، للطاعة والامر .

« ولقد كان من أوقع المناظر في نفسي أن أشاهد الراعى في الصباح الباكر ينفخ في بوقه ، فتوارد اليه من كل حذب وصوب تلك الاغنام الجائعة السعيدة ، تتعاضى وتتراكض بحثها أمل الفطور ، بالرعى التضمير . ثم تراها وقد آبت في الرواح كأنها تسير على نظام عسكري ، ينفصل كل منها عن رفيقه ، متجها يميناً أو شمالاً الى زقاقه ، لا يخطئ . مرماه ، ولا يشتهى في مأواه ، حتى اذا وصل الراعى الى نهاية القرية ولم يبق معة من القطيع بهيمة نفخ في البوق آخر نفخة وعاد الى بيته . لقد اعتدنا معشر البشر أن نحب النعم في صورة الشواء والقتير ، والحمر والتقديد ، ولكن أليس فيما تظهره هذه العجاوات المرححة من الفطنة والدكاء والميل الى العناية والمزاج وحسن الطاعة والثقة بالإنسان ما هو جدير باستثارة اللطف والمحبة ؟ »

ينهب فريق من الفلاسفة الى أن الناس جميعاً يولدون متكافئاً المواهب لافرق البتة بين ذكيتهم وغبيتهم ، ورشيدهم وغبويهم ، وإنما هي ظروف عجيبة ومؤثرات مدعشة تصادف ذلك فتفتح ملفه من قوي ومواهب وتخطئ . هذا فيظل منلقاً مطرباً ، ويميش دهره مغفلاً غنياً . ذلك - على زعمهم - هو

السرفيا تراه من البيون الشاسع بين المبقرى النابغ والأبله الماتق ، احدهما قد لقيت نفسه من كريم الظروف ما نالها ورقاها حتى زكت وترعرعت ، والاخر قد انسحقت نفسه بتأثير قواه الحيوانية وضغط آتله الهضمية ، فهي إما قد تبخرت وانغسلت ، وإما قد غاضت إلى قرار معدته فاستقرت هنالك في غمرة لا تتيق منها . هذا مذهب القوم . أما صاحبنا الاستاذ فيري غير ذلك حيث يقول « لأسهل على من الاخذ بهذا الرأي أن اوافق القائلين بأن بذرة الكرنبة اذا لقيت تربة كريمة ومناخا صالحا قد تصير سنديانة رائعة ، وان بذرة السنديانة اذا منبت بظروف سيئة من مناخ فاسد وتربة سيئة قد لا تنبت الا كرنبة مشوهة .

« بيداني لست انكر ما للترية والتهذيب في با كورة الحياة من بليغ الاثر ، فانه على صلاح الترية افسادها يتوقف مصير بذرة الكرنبة كرنبة ممتلئة ورقية ناضرة أو كرنبة جوفاء صفراء ذابلة ، ومصير بذرة السنديانة سنديانة باسقة ظلية لفاء ، أو سنديانة قصيرة نحيفة عجفاء . لهذا كان خليقا بكل انسان ولا سيما معشر الفلاسفة والحكماء ان يدونوا بالدقة كل ما احاط بتربيتهم من الظروف الخاصة ، ملائمة أو معاكسة ، منشطة أو مشبطة . وقيامما بهذا الواجب اذكر الامور الآتية من جملة ما كان له في نفسي وقع واثار : « كما أن الملامى الصبانية تبعث في الطفل الذكاء والنشاط كذلك كانت القصص والاحاديث التي طالما سمعتها من الاب اندريا تستثير في نفسى ملكة الخيال وحب التاريخ . ولشد ما كان شغفى بتلك الروايات والاحاديث إذ كان جيراننا يلتفون حول الموقد كل عشية . وينصتون الى الراوى بأذان صاغية وقلوب واعية وأنا بينهم مقبل عليه ، متوجه بكل جوارحي اليه ، يخيل اليّ انه

بطل من أبطال الاساطير وأن ملاقاته في اسفاره من حوادث ومخاطر كان في عالم وهمي بعيد. وكلما أمعن في قصصه تفتح في نفسه ملكوت الخيال وانفسحت بين جنبي أقطار الوجود. كذلك ما كان أكثر ما تعلمت واستفدت بوقوفي الى جانب شيوخ القرية تحت ظل السوحة . لقد كان عالم اللانهاية لا يزال كله جديداً في نظري ، وهؤلاء الشيوخ المجلون الثرثارون أولم يقضوا ثمانين حولاً يذرعون جانباً من فضائه، ويمسحون طرفاً من فناءه ؟ ولشد ما كانت دهشتي إذ جعلت اثنين ألف قرية انتبھل قائمة وسط قطر بعيد الارجاء وفي وسط دنيا شاسعة الانحاء ، وأن هناك شيئاً يسمى التاريخ، وأنى أنا أيضاً لا بد أن اؤدى يوماً من الايام نصيبي منه باللسان وباليد .

« على هذا النحو أيضاً كان تأثير عربة البريد في نفسي . اذ كنت أشاهدها تتخلل القرية ذهاباً وأياباً تنوء بما عليها من جبال الامتعة والرجال . وما خطر ببالى حتى بلغت سن الثامنة أن هذه العربة كانت شيئاً يختلف في جوهره عن قر ارضى يشرق ثم يغرب بمجرد فعل النواميس الطبيعية شأن القمر السماوى . فإكان ير بوهى انها تسير على طرق مصنوعة، متقله من مدن بعيدة الى مدن بعيدة ، كأنها وشيعة الحائك تحكم ما بينهما من صلات المعاملة ودروابط المبادلة . عند ذلك خطر بفسكرى ذلك الخطار العميق وهو أن أى طريق - وليكن طريق هذه القرية المتواضعة - يفضى بك الى آخر الدنيا !

« ثم اذ كز اسراب الخطاطيف ، تلك التى كانت تتوافد كل ربيع من اقاصي أفريقيا كما اخبرت ، جاثبة في طريقها الاغوار والانجاد ، والسهول والاطواد ، والقفار والبحار ، والمدائن والامصار ، حتى تنتهى الى كوخنا قتبني

هناك أوكارها حيث تقيم آمنة مطمئنة، تطير وترف وتنفرو وتنفرد وتتناسل وتفرخ . من ذا الذي علمك فن البناء إيتها الطيور المرحلة الرشيقة ؟ بل من ذا الذي علمك سر التضامن في ماهو أشبه بجمعية ماسونية بل هيئة اجتماعية ؟ ألم اشاهدك مراراً كلما تهدم وكر لاحد افرادك وأعجله الوقت عن الانفراد بينائه تسارعين في صبيحة الندالى معاوتته، فلا تزالين في جيئة وذهاب، وحركة واضطراب، وغدو وروح، وقرقرة وصياح، حتى لا يمسى المساء إلا وقد تم بناء وكره

« وهكذا لبث الطفل يتعجب ويتعلم وسط هذا الكون الحافل بالأسرار، تقله الأرض الطائحة في وسيع الفضاء، وتظلم القبة العميقة الزرقاء، وتقوم في خدمته الفصول الأربعة النهمية، تتقدم اليه على التوالي بمختلف هداياها ومطايها، ومتنوع ملاهيها وملاعبها . وما كانت هذه المظاهر والظواهر الاحروف الهجاء التي كان يجب على الطفل أن يتعلمها حتى يستطيع قراءة ما يتيسر له من ذلك السفر الجليل - سفر الحياة . فسواء عليه أكانت هذه الحروف مكتوبة بالخط الكبير المذهب، أم بالخط الصغير غير المذهب، مادام قد أوتى عيناً بصيرة تستطيع قراءتها . على أن دياجويز الصغير كان لفرط شغفه بالتعلم يحد في مجرد النظر اليها من النعيم واللذة ما يقوم مقام التنهيب والترصيع . لقد كانت حياته كلها عنصراً مشرقاً ليئناً من الفرح والنبطة، وكانت عجائب الكون تبرزله الواحدة تلو الأخرى وتعلمه الحكمة في معرض الفتنة.

« على أنى أكون هاذيكاً مبطلا اذا ادعيت أن مساعدتي حتى في ذلك الاوان، كانت سليمة من النقصان . فلواقع أنى قد غادرت السماء، وهبطت

الى الأرض دار المحنة ومنزل البلاء . فكنت أرى بين طيات أقواس
غزخ ، تلك التى ما برحت ترخف أطراف أفق وترين مدى بصري ، حلقة
سوداء من المم لم تقارفتى حتى فى عصر الطفولة ، وإن لم تكن بادية بده
أنخن من الخيط اللقيق ، بل كانت أحياناً تضرها بهجة الألوان ويسترها
رونق الأنوار فتخفى اختفاء تاماً . بيد أنها ماقتلت تعود فتظهر بل ترداد
على مر الأيام انفساحاً وانتشاراً ، وانضاحاً واشتهاراً ، حتى أوشكت فى سنى
اللاحقة أن تطبق بسوداها سماء حياتى ، وحتى آذنت أن يلتهمنى منها ليل
مقيم الظلام ، مطموس الأعلام . تلك الحلقة هى حلقة الضرورة التى تحيط
بنا جميعاً إحاطة السوار بالمعصم ، بل إحاطة الادم بالقدم . فطوبى لمن أشرقت
له شمس سماوية كرية فجعلتها حلقة للواجب تنعكس عنها الأشعة الباهرة ،
وترقص حولها الأنواء الزاهرة . غير أنها على كل حال باقية مقيمة لا يزال
منها لحياتنا أساس مكين ، وسياج متين .

« فى السنين القلائل الأولى من مقامنا فى مصنع الحياة لا تكلف تأدية
عمل كثير ، بل يقام بأطعمتنا وإيوائنا بغير مقابل ، وجل ما يطلب منا أن
نلاحظ ما يجرى حولنا فى المصنع ، وأن نتأمل الصناع وهم يعملون ، حتى
ندرك شيئاً عن ماهية الآلات ، ونستطيع تعاطى هذه أو تلك من الأدوات .
وإذا كان المراد من التربية هو إنما الجانب اللزوم دون الجانب المتدى من
النفس فلقد كان حظى منها فوق ما يرام . إذ كنت قد نلت من أسباب
الإنماء والتهذيب ما لا مزيد عليه لمستزيد فى كل ما يتعلق بلبين الطبع وورقة
المزاج وحسن التطلع وصدق الاحساس . بيد أن الامر لم يكن كذلك

من الوجه الآخر ، فإن الجانب المتعلئ من نفسى قد ظل مقيداً معطلا ، ولا أزال حتى اليوم أعانى من هذا النقص وخيم عواقبه . وذلك أنى نشأت فى بيت جبل أهله على حب النظام وكرهه كل ما يشوشه ، لا سيما عبث الاطفال . فلا جرم أن تكون تربيتى مقرونة بالشدة ، والواقع أنى كنت مقيداً بكثير من ضروب التحريم ، لا أكاد أبيع لنفسى الاسترسال فى رغبة من الرغبات ، أو الاستمتاع بشهوة من الشهوات ، إذ كنت كلما هممت شعرت بأن حلقة ضيقة من الطاعة قد ضرب على نطاقها ، وشد حولي وثاقها . وكذلك كنت أباهر ، وأنا فى نعومة أظفارى ، آلام اصطدام الزادة بالضرورة ، فتهمر دموع العين وتنشب فى حلقى مرارة ذلك الجذر المشتبك بثمار الحياة اشتباكاً لا انفصال له .

« على أنى أعود فأقول أن الافراط فى تعود الطاعة هو بلا نزاع أدنى إلى الصواب من التفريط ، والفلو فيه أقرب إلى الرشاد من التقصير . فالطاعة واجب عميم ، وفرض محتوم ، والمرء فى ذلك بين امرين : إما أن يطاوع فينعطف ، وإما أن يمانع فينقصف . فلا رآنى الله بعد اليوم اندب حظى من الترية ، بل أخلق بى أن أروح بما أصابى جذلاً مغتبطاً . لقد كانت تربيتى مقرونة بالتقير والشدة والمرارة والعزلة ، مخالفة من كل وجه لأصول العلم ، ولكن ألا يجوز أن نفس هذه الشدة والعزلة والمرارة كانت هى التربة الصالحة لأنماء جنود الجد والاخلاص ، وانبات تلك الشجرة الكريمة التى تبجى منها كل ثمرات الحياة وأطايها ؟ وكيفما كان الامر ومهما كانت تربيتى مخالفة لأصول العلم ، فلقد كانت صادرة عن محض المحبة وحسن النية وشرف القصد ، وفى هذا ما يكتفى لسد كل خلة وأصلاح كل عيب . وما أنس لأنس ما كان لأنى

الشفقة الطيبة - السيدة جرتشن - من جزيل الفضل علىّ ، فقد علمتني بصالح الاعمال ، دون الأقوال ، وبفضيخ الالحاظ ، دون الالفاظ ، مايقبهم من العقيدة الدينية . وكانت رقيقة الاحساس تقية خاشعة . فيالله كيف كان تأثير ذلك في نفسى ! لقد كنت أرى أعلى من أجله فى الارض ساجداً فى خشوع وخنوع بين يدى من هو أعلى منه فى السماء ! إن امثال هذه الامور - لاسيما فى غضاضة الطفولة - تتغلغل الى صميم القلب ، وهناك تنشأ من عاطفة الخوف عاطفة الاجلال وهى أقدم ما يحتلج فى صدر الانسان . أفضّل أيتها القارئ أن تكون ابن فلاح تعرف بأى شكل مها كان غير مهذب ان فى الكون وفى الانسان آلهما ، أم تؤثر ان تكون ابن أمير لا يعرف إلاّ الاسماء كلاب الصيد وشارات خيل السباق ؟ »

الفصل الثالث

عمر المدرس

ينظر الفيلسوف الى العهد المدرسى من حياته نظرة المستخف غير المحتفل ، ويرى فى زهيد ما تعلمه بالمدارس مالا يستحق ذكرا ، وذلك حيث يقول « لقد تعلمت فى المكتب ما تعلمه سائر الاطفال ، ثم ابقيته مدخرأ فى ناحية من رأسى ، لا أدرى بعد سبيل الانتفاع به . وكان معلمى رجلا بائساً مستضعفاً مستذلاً ، كسائر ابناء طائفته . وجل ما استفدته منه استكشافه أنى من اصحاب البقرية ، وأنى جدير بالنبوغ فى فنون العلم والادب ، وانه ينبغي ارسالى الى المدرسة فالجامعة ، »

لقد عرفنا الآن أن معلم المكتب كان صادقا فى نبؤته . والواقع أن

حياجو نيز الصغير كان، على ظاهره سكونه واقتباضه، وصمته واحتجازه، لا يزال
يبدى من بوادر الفطنة المستسرة ما ينم عن نفس مفكرة تتوقد شاعرية،
وتتلهب لودعية. والأغبرنى، ناشدتك الله، متى صادف الناس فيما صادفوه
غلاماً في الثانية عشرة من عمره يخطر بباله مثل هذه التأملات الرائعة: « في
ذات يوم وقد جلست على ضفة الغدير انصت الى هدير تياره، واثأمل في
تدفقه والمحاراه، والكون مستغرق في سكون المحيرة، مرّ بذهنى فأدهشنى
أن هذا الغدير بعينه ما برح يهدر ويتدفق على قلب الزمان، وتصرف
الحداث، من قبل انبثاق فجر التاريخ والهر لا ينفك غض الاهاب، والدنيا
ناضرة الشباب - نم في نفس المحيرة التي عبر فيها قيصر نهر النيل سابحا
كان هذا الغدير يسيل في البرية، لم يطلق عليه اسم، ولم تقع عليه عين، بل
لعله كان يجري جريته هذه يوم عبر موسى البحر بقومه ناجيا من غضب فرعون.
بلى ايها الانسان! انك لتجد في هذا الجدول الصغير ما أنت واجد في الفرات
أو النيل: شربانا أو عرقا من تلك الدورة المائية العظمى التي تتخلل كيان
هذا العالم الارضى وما برحت ولن تبرح تلازمه منذ نشأته من العدم الى يوم
رجعته الى العدم. ايهيها الاحق! تأمل في الطبيعة واعجب من عراقتها في القدم.
أن هذه الصخرة التي أنا جالس عليها تعد من السنين نيفا وستة آلاف عام »
الا يلح القارىء في هذا الخاطر البسيط - الذي كان ينبوع صغير - مبادئ تلك
التأملات السامية التي تتخلل فلسفة الملابس عن روعا الزمان وعلاقته بالابدية؟
ثم يأخذ الاستاذ في وصف أيامه بالمدرسة وبالجامعة، ولكنه لا يذكر
لها من طيب اليهود وجميل الذكريات ما يذكر لا يام طفولته. وهى، وان
كانت لا تخلو من بقع شامسة خضراء، فاتها مملوءة بغدران الدموع المرة،

ومنافع التبرم المقررة . وذلك حيث يقول « بدأت أيام نحسى ، واستهل عهد شقائي ، منذ وقمت عيني على المدرسة لأول مرة . ولشد ما أذكر ذلك الصباح المشرق اذ جعلت أعدو بجانب الأب أندريا عملا بنشوة الأمل والجذل ، حتى دخلنا الشارع المفضي الى المدرسة ، فلذا كلب صغير قد ربط بذيله أحد الأشقياء من الصبية وعاء من صفيح ، فاندفع ينهب الأرض نهبا وقد طار الفزع بلبه . وكذلك جعل هذا المسكين المتألم يحوس خلال القرية طولا وعرضا ، محدثا من الصخب واللجب ما لفت اليه جميع الانظار ، وجعله أشهر من علم في رأسه نار : ذلك لعمر الحق مثال دقيق ورمز صادق لكثير من أبطال الحروب ، أولئك الذين قد علّق بهم القدر الخبيث صفيحة صاخبة من الأطلع لاتزال تسوقهم سوقا ، وتطردهم طردا ، فكلما لجوا في الركض والشد ، لجت هي في الصخب والطردها

« وتلفت فاذا الحى الذى نحن فيه ساكنون قد اختفى على مدى البصر . واذا نى بين قوم غريباء ، لا يرقون لى ولا يمطفون عليّ ، فأحس القلب الصغير لأول مرة أنه في هذا العالم يتيم وحيد »

وكان رفاقوه في المدرسة كما هو المعتاد يسيثون اليه ويضطهدونه وذلك . حيث يقول « كانوا كلهم صبيانا ، وكان أكثرهم جفاة الطباع غلاظ الاكباد . يسرعون الى اجابة داعي الطبيعة الفظة التى تأمر قطيع النزلان أن ينقض على الظبية المستضعفة ، وتحرض سرب البط على قتل رفيقها المبيض الجناح ، وتغري كل قوى في هذا العالم باهتضام الضعيف المستكين » وهو يترف بأنه وان كان من الوجهة الأدبية صادق الشجاعة صحيح الاقدام فهو في المصارعة والنزال سيء البلاء ، وبوده أن يتحاشى تلك المواقف جهدا

المستطاع . والظاهر أن السبب في ذلك لم يكن صغر جرمه فإنه مازال يبدى
عند الغضب من خفة الحركة وشدة الوثبة ما يبعث على الدهش والاعجاب .
ولمّا كان الأمر عنده مبدأ وعقيدة حيث يقول « اذا كان من العار المخجل أن
يخرج الانسان من الحرب مهزوماً فجرد اشتراكه فيها عار آخر لا ينقص
عن عار الهزيمة الا قليلا » وكان في ذلك المهد كثير البكاء غزير اللمعة حتى
لقّبهُ أقرانه « بصاحب العبرات » . وما كان غضبه ليثور الا في الأحيان
النادرة ، وعندئذ تصف في رأسه عواصف الموجدة ، ويضطرم في عينيه
لهيب الحق ، حتى يظل أشجع الشجعان من أقرانه يرتجف بين يديه ارتجافا .
أما عن التعليم وأساليبه والقائمين بأمره فلا ستاذ يتكلم بتحمس يكاد
يبلغ حد الغضب ، وذلك حيث يقول « وكان أساتنتي من المغفلين المتقربين ،
ليس لديهم ذرة من العلم بطبائع الانسان أو الحيوان ، كلا ولا بشيء في
الوجود سوى قواميس المفردات ودفاتر التحضير . لا دأب لهم الا أن يحشروا
في أذهاننا كداساً مكسّسة من ميت الألفاظ ومجذب العبارات ، ويسمون
ذلك تثقيفاً للعقول وتربية للملوكات . لله أبوم ! كيف نستطيع تلك الآلات
الجامدة التي لا تجول فيها نسمة من الحياة (يعنى المعلمين) والتي لا يبعد على
مصانع القرن الآتي أن تخرج أمثالها من الجلد والخشب أن تمدّ وسائل النمو
لشيء على الإطلاق ، لاسيما للعقل الانساني ذلك الذي ينمو ، لا كما ينمو النبات
(بتسميد جذوره بالذبال اللفظي) بل كما تنمو الروح ، بالتلاصق الخفي مع
الروح وهنالك تشعل النفس من النفس ويقتبس الفكر جذوة الحياة من
نار الفكر ؟ كيف يستطيع إشعال غيره من هو في ذاته بارد الجوف قد
خلا من كل جرة حية ، ولم يبق فيه الا رماد هامد من المحفوظات اللغوية

والقواعد النحوية ؟ لقد كان أساتذتي يعرفون الجمل الكثير من النحو والصرف ، ولكنهم لا يعرفون من شئون النفس الانسانية سوى أن فيها ملكة تسمى الذاكرة ، يمكن التأثير فيها من طريق التشاء العضلي بواسطة المصا !

« وبلاه ! تلك هي الحال في كل مكان ، ولسوف تبقى كذلك على مدى الأزمان ، حتى يُطرد الفاعل الأخرق الحقيق ، أو يقصر عمله على حمل النكير ، ويستأجر مكانه مهندس صناع يتلقى ما يجب من التشجيع والتنشيط ، ثم وحتى تتعلم الجماعات والأفراد أن تنفيذ الأرواح بالعلم والعرفان، لا تقل منزلة عن تمزيق الأبدان ، بشظايا القنابل وأسنة الممران، وأنه ينبغي أن يكون بجانب قواد الجيوش وبطارق الجحافل ، ممن تنحصر مهمتهم في التثقيب والتذيع ، أئمة مكرمون ورؤساء معجبون تكون مهمتهم التثرية والتعليم . وإنه لمن علام الفساد في هذا المجتمع أنك بينما تجد الجندي في كل مكان يعيش الخيلاء متباهياً بآلة التخريب ، لا تجد المعلم قط يتباهى بآلة التهذيب ، وأكبر ظني أنه لو تجاسر وخرج الى الملا متقلداً عصاه منتظراً من القوم أن يقابلوه بتحية الاجلال، لما وجد منهم غير السخرية والاستهزاء »

ويظهر ان اندريا توفى الى رحمة ربه في السنة الثالثة من ذلك العهد فأبصر الطالب الصغير لأول مرة ان ظاهره مكنتس بالحداد ، وأن باطنه مكنتس بنوع من الكآبة لا يستطيع وصفه اللسان . وذلك حيث يقول « لقد اتفرت له تلك الهاوية المظلمة السحيقة ، التي نطأ جميعاً على قشرتها الرقيقة ، وترامت ليعنه اقالم الموت شاحبة مكفهرة ، تروع الناظر يسكانها الصامتين من ام لا تحصر وأجيال لا تحصى . وأخذت ابى في البكاء

والنحيب فأوجدت لحزنها منفذاً ولكربها متنفساً . أما أنا فقد بقيت في قلبي بحيرة مملوءة بالعبرات ، تكتنفها قفار صامته وصحارى موحشات . غير أن الروح كانت لا تزال في عنفوان النشاط والقوة ، فأنفست تلك التجارب المظلمة . واجدة حتى في الموت مادة الغذاء والقوة . فأنفست تلك التجارب المظلمة . الذاكرة في ثرى الخيلة ، وما زالت تنمو هناك وتركو حتى صارت غابة ملفنة من الأثل والسرور ، كثيبة ولكنها جميلة ، محزنة ولكنها أنيقة ، تهتز وتعيد فتتردد في جنباتها الزفرات العذاب ، والأين المستطاب ، ولا تبرح الظلال السود ضخمة عليها واب متمت فوقها شمس الظهيرة — ذلك شأنها طول الشباب ، واحسبها باقية كذلك مدى الكهولة ، فأني قد ضربت خيمتي في ظل أئمة ، وجعلت القبر حصني المنيع ، أقف على بابه وأنظر الى الجيوش المتعادية ، وإلى الحياة العاتية ، متأملاً ما حوت من ألوان العذاب والمقاب . يجأش رابط ، مستمعا الى وعيدها القاصف بابتسامة هادئة . فيا أجباني الذين اضطجعتم على وثير مهاد الراحة في دار الأمن والسكون ، والذين كان متحى طاقتي واتم في قيد الحياة ان ابكي عليكم ، غير قادر على إيصال المعونة اليكم ! ويا أجباني الآخرين الذين لا تزالون مشتتين في مجاهل المأساة الموحشة ومفاوز الحوالة المقفرة ، تجوبون انحائها ، وتصبغون بدمائكم حصباها — ان هي الا لحظة قصيرة حتى نجتمع . كلنا في صعيد واحد ، وحتى نأوي الى صدر أمنا الحنون ، فنصير في مأمن وعصمة ، لا يصيبنا اذى من نير الاضطهاد وسوط العذاب ومرزبة الأحزان وزبانية الجحيم : اولئك الذين يطوفون في انحاء الزمان المضطرب »

في هذه اللحظة اطلعت السيدة جرتشن ريديها على جلية امره وافهمته

ان أندريا لم يكن بواله وذلك حيث يقول « وهكذا كان يتى مضاعفاً ،
فلقد حرمت عزاء الذكرى كما سلبت نعمة الملك . هناك تلاقت في نفسى
عوامل الأسى والعجب ، فياروعة ما أنتجت ، ويا كثرة ما أنثرت ! بل
لقد ضرب ذلك النبأ بعروقه في ثرى القلب ، ثم لبث قائماً هناك يترج
بخطرات الفؤاد ويتواشج بهجسات الضمير كأنه الجذع الذى تنمو عليه أحلام
يقظتى ورؤي منامى . لقد كنت منقطع النظر . وكان هذا الخطر لا ينفك
يشعرنى بنوع من السمو والارتفاع ، كما كان يشعروى بنوع من الانحطاط
والانضاع . ولا بدع فللى - كما كنت نسيج وحدي فى مولدى - كنت
أيضاً نسيج وحدي فى أقوالى وأفعالى ومذهبي وآرائى »

وبعد إيراد الكثير من أمثال هذه الملاحظات المهمة يصل الفيلسوف
أخيراً الى ذكر آيائه بالجامعة فيفتحها قائلاً :

« لقد أصيب فى المثل السائر : إذا الأعشى قاد أعشى سقط كلاهما فى
المهوى . فهلا كان يحسن بهما تقادياً من الزلل واجتناباً للعثار أن يجمدا فى
مكانهما ؟ اليس الأضراب عن الطعام والمبيت على الطوى خيراً من تناول
الطعام المسموم ؟ أفرأيت لو أنك عملت الى مربع من الارض فى بلاد الهمج
ومفاوز التوحشين ، فسوّرته بسياج واعدت فيه مكتبة لا بالمتعة ولا
بالخافة ونصبت على ابوابه جماعة اطلقت عليهم لقب الاساتذة وكلفتهم
أن يتقاضوا من راعبى الدخول أجوراً طائلة وأن يصيحوا ملء افواههم (هلوا :
امها الملاء فهذه جامعة) - اقول إذن لكنت مثلت بالجوهر وبالنتيجة ، وان لم
يكن بالهيئة والمنظر ، ما يشابه الجامعة التى كنت فيها او يكاد . اقول
يكاد لأنه اذا كان بناء جامعتنا يخالف بناء هذه جد الخالفة ، فقد كانت النتيجة

أيضاً في الحالتين غير متماثلة ، اذ كنا نقيم لسوء الحظ لافي مغاوز المصنع
وبجاهل المتوحشين ، بل في غمار مدينة اوروية فاسدة ، مكروبة بالسخان ،
مشجونة بالآثام ، وفي وسط جمهور لا ينخدع بجبر النداء ورخيص المعدلات ،
بل لابد من التدرع الى خدعه بوسائل اكثر تعقيداً وأبهظ نفقة .

« على انه ليس بين هذه الجماهير كلها الا ماهو سهل الانخداع متى أخذ
للأمر صادق أهبطه ، واعد له لائق عدته ، وان خادعها ليفيدون من الارباح
مالا يخطر في بال . وأنه لمن دواعي العجب أن لا يوجد لدينا حتى اليوم شيء
من قبيل احصاءات البجل والتمويه ، وأن يظل علماء الاقتصاد مكين على
احصاء كل ماهو صغير الشأن من فروع الصناعة ، صارفين النظر عن فرع
التفلق وهو أجملها خطراً ، كأن كل ما يدخل في باب النصب والاحتيال
والنفع والادعاء والنش والرياء وما شاكلها من غريب المهن والاسرار
ليس من الصناعات المنتجة في شيء ! فتلاهل يستطيع امرؤ ان يخبرني عن
كمية ما يجمع من المال في مهتي التعليم ومسح النعال بواسطة صحيح التعليم
وصادق المسح ، ثم عن كمية ما يجمع فيها بواسطة كاذب الاعلان
وخادم التمويه ؟ على انك اذا عمدت الى كل منحي من مناحي الحياة الاجتماعية
من سياسة وتعليم وتآليف وتفكير وتجارة وصناعة ، فسألت عن مبلغ سد
حاجة الانسان في كل منها بالبضاعة الصحيحة ، ومبلغ سدها بمجرد صورة
البضاعة الصحيحة - أعني أنك اذا تساءلت عن مبلغ حلول العمل الصوري
مقام العمل الحقيقي في كل زمان ومكان ، وبأى الأساليب والنتائج يتم ذلك
لرأيت بين يديك مبحثاً واسماً خصيباً حافلاً بالمطاز الباطنة والنتائج المثمرة ،
ولكنك بعد لبث حتى الآن محتوم الغلاف لا تكاد تمسه مغاويض الباحثين . فأذا

كنا نقدر اليوم نسبة البضاعة الحقيقية الى البضاعة الصورية سبب واحد الى مائة فاقى المبالغ من الاقتصاد لا يرتجى بلوغها في المستقبل متى تقدم فن احصاء النصب والذل فتناقضت صناعة الأكاذيب على التدرج (كلا ارتفع شأن صناعة الحقائق) حتى نصبح أخيراً ولا حاجة بنا اليها البتة ؟

« هذا ما تؤمل أن يتم في العصر النهي القادم ، أما في عصرنا البرزى الراهن فالذي أراه في مختلف مناحي الحياة كالعليم والسياسة والديانة ، حيث تمس الحاجة الى الجم الكثير وحيث لا يستطاع الحصول الا على التزوير اليسير - أن السجل قد يكون مفيداً نافعا كنواء صحي مسكن ، وأن قابلية الانسان للانخداع ليست شر مواهبه ، واسوأ منائحه . فهب مثلاً أن الامة قد تضعضع عصبها الحربي ، أعنى انها أصبحت مفلسة قد صفرت من اللال خزائنها ، وصارت جيوشها على شفا التردد فالانحلال فالتناحر ، أفلا يحسن وقتئذ أن تمتد الى ما يشبه السحر والمعجزة فتدفع لهم أعطياتهم بأوراق صورية ، وقطعهم ماء جليداً أو أطعمة خيالية ، وبذلك تسكن سورتهم ، وتبقى على وحدتهم ، حتى يتم لها تحصيل المؤن الحقيقية ؟ هذا هو ، فيما أظن وأرجح ، غرض الطبيعة - والطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً - من تركيبها في فطرة صنيعتها الانسان تلك الملكة العجيبة : قابلية الانخداع .

« فله در هذه الملكة ما أبدعها في عملها ، وما أسلسها في سيرها ، لا تكاد تحتاج الى شيء من الآلات والمعدات ، بل هي تصنع لنفسها ما تريد من هذا القليل ! لقد كان أساتذتي في الجامعة يمشون في أمن وخفض ، بفضل لاشيء سوى شهرة أنشئت لهم بفعل غيرهم في الزمن الغابر بنير كبير مشقة ، ففي لهم كطاحون متبنة التركيب دائبة الدوران تطحن لهم من تلقاء نفسها ما شاؤوا ،

ولا تتطلب منهم سوى أن يحدوا دهانها مرة في كل عام . هنيئاً لهم أولئك الطحانين ! وما أسعدهم حظاً بأن الأمر كان كذلك ! لقد أحسنوا صنفاً إذ لم يكلفوا أنفسهم مؤونة العمل ، فاقى كلما تذكرت الآن محاولاتهم في سبيل العمل — في سبيل ما كانوا يسمونه التعليم — امتلاً قلبي بنوع من التعجب الصامت والاعجاب الواجم .

« ولقد كنا نتباهى بأن جامعتنا من أنصار المذهب العقلي ، وأعداء المذهب النقلي ، وأتينا خصوم الداء لكل ما ينطوى تحت لواء الباطنية والصوفية . وكذلك كانت الأدمغة الخالية الصغيرة تحشى حشواً بأكداس من الكلام العريض الطويل عن رقي الأنواع وعصور الظلام وكواذب الأوهام وما شا كل هذا ، فسرعان ما تنتفخ بما يملؤها من رياح الجدل العقيمة . فما كان من تلك الأدمغة متيناً حصيفاً كان مصيره الضلال في يدياء الشك العاجز الويل ، وما كان ضعيفاً سخيلاً أفقر ، فاستحال هواءاً من الزهو والغرور لا تنتظر منه في المقاصد الروحانية فائدة — ولكن هوّن عليك ولا تبتئس فهذا أيضاً بعض ما قسم للانسان وقدر . أتشكو وتتذمر لأن عصرنا هذا عصر كفر والحاد ، وانك لتعلم أن ما هو خير منه سيطلع علينا مع الند ، بل هذه تباشيره قد لاحت منذ اليوم ؟ لقد جرى حكم القضاء بأن تتعاقب فترات الايمان والكفران ، كتعاقب ضربات القلب انبساطاً وتقباضاً ، وتماقب شطرى اليوم ليلاً ونهاراً ، وأن يكون ربيع ازدهار الآراء وصيف إرباع المعتقدات سابقين ولاحقين لخريف اصفرارها واضمحلالها وشتاء انتثارها وانحلالها . على أنه ربما كان من البلية لنوى الحجي أن يولدوا في أمثال هذه الفترات القاحلة — فترات الإلحاد — فيظلون

فيها يقظين عاملين، دنيين مشيحين. أما أهل الغفلة والغباء فأولئك ينعمون فيها بسبات عميق، شأن الحيوانات المشتية التي تجتاز صبارة القر في غمرة الكرى، فلا يفيقون من رقدتهم إلا بعد أن تهدأ الزعازع العاصفة، وتسكن الزلازل الراجفة، ويقبل الربيع الجديد لإجابة لدعواتنا اللهي ومكافأة لصحايانا الموجهة. يتضح مما تقدم أن تيوفلسدرخ كان ولا شك يعاني من برحاء الألم شيئا كثيراً، يؤيد هذا قوله بعد ذلك « لقد كان الصغار الجائعون ينظرون نظرة الملهوف الى مراضعهم الروحانية، فيؤمرن أن يرتضعوا الصخر الاصم ويستطعموا الریح العقيم. وما كنت لأقصر عن سبق الاقران في حفظ ما تلقن هنالك من مجذب المجادلات الفقهية والمباحث اللفظية، والمعالجات الآلية التي كانوا يطلقون عليها اسم العلم زورا وبهتانا. كذلك ما كان ذلك الجمع الغفير من طلبة الجامعة ليخلو من بضعة أفراد يتعطشون الى مناهل العلم الصحيح، فكنت استفيد من احتكاكي بهؤلاء روحامن التحمس والنشاط. وكنت بحكم طبيعتي ولحسن حظي أميل الى التفكير والمطالعة الى الصخب والمشغبة، فظالما كنت أنفوس في فوضى تلك المكتبة فاستخلص من كتبها ما لا يخطر ببال حفظتها. وكذلك وضعت لنفسى دعائم حياة أدبية، وتعلمت يجدى واجتهادى معظم اللغات الراقية، وكنت لا أنى طرفه عين عن المطالعة في كل الموضوعات وفي كل العلوم. ولما كان الانسان على الدوام قبلة الانسان كان لى غرام شديد باستقراء الأخلاق عن ظهر الغيب، وتعرف صفات الكاتب من أسلوب كتابته، ومن ثم تكونت في نفسى اصول فكرة عامة عن الطبيعة البشرية والحياة الدنيوية: ففكرة مازالت تجاربي تقيم من أودها على مر الأيام وتوسع من نطاقها على كر الليالى »

كذلك يستفيد القوى من العوز والفاقة غني وثروة، وكذلك يعثر اسماعيلنا الفتى أثناء هيامه في الصحراء على أنفاس المقتنيات : اعنى فضيلة الاعتماد على النفس . بيد أنه ما برح يضرب في فلاة موحشة ومفازة قفراء تصيح بها يوم وتعزف جنة

فيعوى لها سيد ويصبح سمس
فلشد ما كانت تساوره أفاعى الشك ، وتقاوره وحوش الازتياب ،
ولطالما بات كما يقول « مؤرق الوساد ، ناني المهاد ، في ليل طامس الاعلام يحيط
به من الظاهر ، وغيب دامس الظلام يحقق به من الباطن ، جائراً باللعاء
يتطلب نور الهدى ، ويلتس الخلاص من الردى ، حتى بلغ منه الجهل وغشيه
اليأس ، فلستسلم لحكم القضاء وخر صريعاً بين يدي كابوس الاحداد ، وبات
في أحلامه المراتعة يحسب هذا الكون الحى البديع مجمع الالباسة وعالم
الموتى . ولكن لا بأس فبهذا جرى محتوم المقادير ، إذ لا بد للروح أن تنغمس
في مثل هذا المطهر^(١) حتى تخرج منه نقيه الردن طاهرة الذيل ، لا بد لبيت
رسوم الدين أن تعترف بموتها وتذهب هباء في مهب الرياح ، قبل أن ينطلق
روح الدين من سجن رفاقه البالى ويطلع علينا في بهائه الجديد ، حاملاً طي
اجنته شفاء الارواح وعزاء النفوس »

فاذا أضفنا الى هذه الآلام المطهرية ، على ما بها من شدة وتبريح ، نصيبا
وافراً من الارزاء الارضية ، كفقد المرشد وفقد المعين وضيق ذات اليد وضيق
فسحة الامل ، واذا اجتمع كل هذا على امرئ ، رث الوسائل ولكنه في شرح
الشاب نرى الخيال الجوارح والثواب والمطالب الطوال العراض : ألا نجد حينئذ

(١) منزلة وسط بين الجحيم والفردوس تظهر فيها الارواح من ذنوبها قبل دخولها الجنة

بين أيدينا نفساً قوية تعاني من الظاهر والباطن كرباً كبيراً ، وتقامى من
الخارج والداخل ضغطاً حازباً ؟ وهلا نرى يومئذ نار المبقرية تعالج الصعود
خلال أكّداس مركبة من الحطب النضير وقد طنى فيها البخان المعتكر ، على
الليب المستمر ؟

وما كان تيوفلسدروخ ، على فرط حياته وازوائه ، واثقباضه واعتكافه ،
ليفوت أنظار القوم ؛ فقد كان معروفالدى طائفة من ذوى المكائنة والجاه ،
وان لم يكن يحظى منهم بشيء من المساعدة . والظاهر أنه شرع يتعلم ، على
كره منه ، علم الحقوق وأنه نال الشهادة في هذا العلم ، ولكننا ندع هذه التفاصيل
جانبا ونكتفى بالكلمة الآتية نجعلها خاتمة كلامنا عن عهد الجامعة :-

« وهنا أيضاً كان تعرفى بالهر توجود ، وهو شاب من أسرة عريقة في
صميم بلاد الانجليز ، عمت بصلة القرابة إلى بعض ذوى المقامات في هذه
الناحية من ألمانيا . وهذا الأمر كان بلاشك من البواعث التي أغرته بمغادرة
وطنه والقُدوم إلينا رجاء إتمام دراسته . ضلّة له لقد طاش سهمه وخاب فاله !
كيف يبنى الكمال في مكان لم يبق فيه أثر لفكرة الكمال فضلاً عن المجهود
اللازم لتحقيقه ؟ ولطالما كان أحدنا يجلس إلى أخيه فلا يزال ندب حظ الشبان
في هذا العصر المنكود ، فنذكر ضيعة مساعى ولاية الأمور في التعليم ، وانا
بعد كل ما كابدناه من وصب ونصب سنخرج الى الدنيا ولم نكتسب من
صفات الرجولة الا هذه اللحي النابتة في عوارضنا ، فلا نحن ندرى في أى طريق
نسعى وبأى نور نهتدى ، كلا ولا نحن ندرى بأى العقائد تؤمن وبأى المذاهب
تقتدى . إني لأذكره يقول « لله ما أعجب هذه الرؤوس التي نعملها فوق
المنالك ! لقد جهزت من الظاهر بقبعات تركتها ناهيك بها حسن بريق

وبهاء، ولكنها من الباطن خالية هواء ، لا تحوي الارغوة من المنطق
الجدلى والألفاظ الجوفاء . أرى الناس يتعلمون بأيسر نفقة عمل الأحنفية
فإذا تراني قد تعلمت عمله بعد تكبد النفقات الطائلة ؟ تالله يا أخى لقد أنفقت
فى المأكل والملبس منذ قدوى عنهما ما لو تجمع لكفى للاتفاق على مستشفى
عظيم « عندئذ يكون جوابى « هوّن عليك يا صاح ! لقد أودع الانسان
قوة هاضمة لا بد له من تشييلها ولو بالسرقة . أما ما تقول عن سوء التعليم
فخذار أن تريد الشر وبالا ، وإياك أن تضع ما لا يزال بين يديك من نفيس
العمر فى وطء الشوك لانه قصّر عن اجنائك التين . إن لدينا لكتباً قيمة ،
وقد أوتينا عقولاً بها تقرأ وفهم . وإن لدينا لسماء الله وأرضه ، وقد منحنا
عيوناً بها نبصر وندرك ! »

« وكثيراً ما كنا نخوض فى أحاديث الفكاهات ممتعة مشرقة . وكنا
تأمل الحياة ومسرحها العجيب يجمع بين المآسى المبكيات والمهازيل المضحكات،
فى مناظر متنوعة المظاهر لا تخلو من مسحة الهول وروعته . بيد أننا كنا
ننظر اليها بقلوب ملؤها الحمية والشجاعة . ولعل هذه كانت أسعد أوقاتى ،
وأأكملها هناء وصفوا . وكنت أوشك أن أشعر تلقاء ذلك الشاب الحمي
القلب العنيد الرأس بعاطفة الصداقة التى أصبحت اليوم من الطراز العتيق .
ضلة لى من غبى أحمق ! لقد حسبت من المستطاع أن أحب هذا الانسان
وأن أضنه الى صدرى وأن أكون له مدى العمر أخاً وشقيقاً . بيد انى لم
ألبث حتى أفقت على التدرج من هذا الحلم ، وحتى فهمت روح العصر
الجديد ومقتضياته ، نم لقد أدركت أن النفس إن هى إلا ضرب من المعدة ،

وان تألف الأرواح لا معنى له إلا اجتماع الخللان على الخواص ، وان
رابطة الأحاء ليست الا رابطة المُواكلة . أما ما عدا ذلك فترهات وأوهام ،
وسخافات وأحلام »

الفصل الرابع

في سبيل البحث عن عمل

يقول صاحب الترجمة ، والظاهر أن قوله هذا كان بُسِيد تخرجه من
الجامعة ، « وهكذا تحقق في الوجود شيء ما : أعنى أنا ، دياجونيز
تيوفلسدروخ ، تلك الصورة المرئية الموقوتة ، تشغل من الفضاء بضعة اقدام
مكعبة ، وتحتوى من مادي القوى وروحانيها قدر معلوما ، من آمال وخواطر
وشهوات ونزعات ، إلى آخر ما يتألف منه ذلك الجهاز العجيب الذى يجهز به
أعتقد الغاز الحياتى وأغريها - الانسان . لقد أودعت من المقدرة ما أ كافح به ،
ولو كفاحاً ضئيلاً ، دولة الظلام الرهيبة : الا ترى حتى الحفار الحقيير يعمل
يفأسه على اقتلاع الكثير من الاشواك ورمد الوبىء من المستنقعات ، وبذلك
ينغدر يسيراً من النظام حيث وجد القوضى سائدة ؟ لى وأنتك لتلقى حتى
أحط الكائنات قد أوتى حظه من هذا النوع من المقدرة ، فالنباة التى يقتحمها
طرف العين لا تزال تنظم ما كان من قبل غير منظم ، ولولادغامة فى عناصر
جسمها وتحويله من مادة غير عضوية إلى مادة عضوية ، ثم هى لا تنفك
تحدث بطنينها من الهواء الصامت الميت انعاماً حية وأن تكن من أخفت
ما سمع السامعون .

« وإذا كان هذا شأن الذى أوتى نصيباً من القدرة المادية فكيف بمن رزق حظاً من القدرة الروحانية ، بمن تعلم أو شرع يتعلم أسرار ذلك الفن السحري الأعظم ، فن التفكير ؟ انى أدعوه فناً سحرياً ولا غرو فأليه يرجع الفضل فى جميع ما تم حتى اليوم من مدهشات المعجزات ، وفيما سوف يتم فى مستقبل الأيام من خوارق يخطئها الحصر ونشاهد منها حتى فى عصرنا هذا ما يحير الالباب . لست بذاكراً ما لوحى الانبياء والشعراء من عجيب المآثر ورائع الآيات ، ولا أنا بمتعرض لوصف ما كانت تحدّثه رسالات هؤلاء المهملين من خلق عوالم يحملتها وافناء ألكوان برمتها . ولكنى أسائل أبلد البلاء : ألم يسمع زفير الآلات البخارية يتصاعد حوله من كل مكان ؟ ألم يشاهد فكرة النحاس الايقوسى (وهى بعد ليست الأفكرة آية) تسبح على أجنحة النار ، وتشق لجيج البحار ، وتصارع النوء والاعصار . وتبدى من دلائل الجلد والقوة ، وغرائب المناء والهمة ، ماتعجز عنه اعوان السحرة ، من جبابرة الجان وشياطين المردة ، فعى لا تكفى بنسج الشياطين والأبراد ، وعو المسافات والابعاد ، بل تعمل بعزّة حداء على قلب نظام المجتمع بأسره رأساً على عقب ، وتهىء لنا بدلاً من عهد الاقطاعات وسيادة الشرفاء ، عهد الصناعات وحكومة الحكماء ؟ ألا إن الحقيقة التى ليس فيها مرأى ان الانسان المفكر هو ألد خصم وأعدى عدو لأمر الظلام ، وأنه كما أعلن أحد المفكرين مقدمه سرت فى كيان النولة السفلى رعدة العرب والفرع ، فتنبهى للقائه من جنود الباطل فرقة جديدة ، تتعلم وتعالج من أساليب الكفاح ضرورياً جديدة ، علماً تستطيع اقتناصه فتعصب عينيه وتغل يديه . » إلى أداء مثل هذه المهمة العالية قد دعيت أنا أيضاً بصفتى واحداً من

أبناء هذا الكون . يد أنه من دواعي الأسى أن المرء ، مع ما يخول بأمر الطبيعة من حق إعلان الحرب على أمير الظلام وحق الفتح والاستيلاء على ما استطاع من دولة الباطل ، لا يستطيع أن يحرز صولجان إرثه ويمتلي كرسي ملكه ، الا بتجشم النصب الناصب وتكبد العناء المعني »

ترى هل يقصد الاستاذ بهذه العبارة المقرة والاستمارة المفخمة شيئاً سوى أن الشاب خليق أن يلاقى مصاعب وعقبات في سبيل البحث عما يلائمه من العمل ؟ انا نستحيك العذر أيها القارئ ، فهذا شأن الاستاذ في أساليبه وتمايره . وبمد فلنسمع ما يقوله بعد ذلك :

« ملكوتي وسلطاني هو فيما أبتج وأصنع ، لا فيما أملك وأجمع . لقد أوتى كل امرئ مواهب باطنية معينة وظروفا خارجية معينة ، يخرج منهما بحسن الملامة مقدرة قصوى معينة ، ولكن عقدة المقدمومعضلة المضلات هي خص ملكاتك الباطنة وظروفك الظاهرة رجاء الاهتداء الى نوع هذه المقدرة الناتجة من اتحاد القوى الداخلية والأحوال الخارجية . اذ الواقع مع مزيد الاسف أن الروح الفتية لا تزال تنفطر عن مقدرات متباينة فيظل المرء في حيرة لا يعرف صحيحها من فاسدها ولا يميز صادقها من كاذبها . هذا الى أن المرء ساعة يولد يخرج الى العالم في وقت جديد وظروف جديدة ، فسيرة في الحياة لا يمكن ان تحتذى على مثال سابق ، بل لابد أن تكون نسيج وحدها . أضف الى ذلك أنه قلما تأتي الظروف الخارجية وفق المواهب الباطنية ، فترانا اذا منحنا من الذكاء قسطا وافراً ابتلينا بالفقر أو بفقد الاخوان أو بسر الهضم أو بفرط الحياء ، أو بما هو شر من كل ذلك : الحن . وكذلك فيظل المرء يتيث بين خليط المقدرات متلبسا منها ما هو له ، وملتقطا في

أكثر الاحيان ما ليس له . ويقضى الشاب الأعشى في هذا العمل الأخرق
سنين عدة من عمره القصير ، حتى يعود بفضل متكرر التجارب خبيراً بصيراً ،
بل ربما قضى كل عمره في هذا العمل المقيم ، بين رجاء متجدد ، وانخفاق
متردد ، متقلبا من مسعى الى مسعى ، ومضطربا من ناحية الى اخرى ، حتى
اذا بلغ سن الشيخوخة وهو بعد في غرة الحداثة عمد الى آخر مساعيه :
نزول القير .

« ذلك بلا نزاع كان يكون مصير أكثر الناس ، إذ كان معظمنا من
ذوى البصائر العشواء والاعين الرمداء ، لولا شيء واحد هو الذى ينقذنا :
الا وهو الجوع ، ذلك الذى لا يعرف التريث ، ولا يفهم التلبث ، فهو متى
دأب المرء أعجله عن التردد والاضطراب ، واضطره الى سرعة الاختيار . ومن
ثم رأى الناس من الحكمة وحسن التبصر أن يعدوا للاحداث الأغرام منهاج
للتمرن على مختلف الحرف ، حتى اذا سلك الشاب منهاجاً لم يأت على آخره
الا وقد أفرغ ما اوتي به من الكفاة المهمة العامة في قالب حرفة معينة خاصة ،
فيصبح في استطاعته أن يعمل عمله في الحياة مع القليل أو الكثير من
التبذير في المقدرة ، ولكن مع اتقاء شر أنواع التبذير - تبذير الوقت -
وانه لمن حسن التدبير أن مثل هذه الخططة قد اتبعت حتى في الشئون
المعنوية والمسائل الروحانية ، وان هيئت للمتطلعين الى الاشتغال بهذه
الامور منهاج للتدرب على مختلف المهن ، لأن الصانع المعنوى لا يولد بصيراً ،
كلا ولا ينجح نعمة البصر بعد تسعة أيام من مولده شأن بعض الاصناف
من الحيوان ، بل يظل مكفوف الرؤية زمناً طويلاً ، ولقد بينى كذلك مدى
المر . بيد انه متى انحرف في سلك مهنة من المهن انطلق فيها يلف ويدور

كفرس الطاحون ، لا يضيره ما يعينه من عشوة أو عى ، بل تراه منشرح الصدر مثلوج الفؤاد ، يحسب أنه لا يزال يتقدم الى الامام وان كان في الواقع لا يتقدم خطوة . ثم لا يخلو عمله من فائدة أو فائدتين : واحدة لنفسه وهي إطعامها ، واخرى للمجتمع وهي إضافة قوة حصان آخر الى القوة المحركة لطاحون الاقتصاد الكبرى . لقد أعد لي أيضا زماما ربط به الى هذه الطاحون ، ولكنى لم البث حتى تبينت أنه شناق آزم كاد يخنقني ، فبادرت الى قطعه . عندئذ وضحت لي أن العالم بجذافيره أصبح بين يدي مثله كمثل محارة ، كلفت فتحها اقتدارا أو احتيا لا بما أوتيت من حول ومن حيلة . بيد أنى وجدتها من شدة الالتاق وفرط الاستمضاء بحيث كدت أقضى دون الظفر بينيتي » في هذه الكلمة تتجلى خلاصة ما كتب على الاستاذ أن يلاقيه . لقد كان هذا الشاب ذو المواهب العالية والمزاج الناري مثله كمثل مهر فتى جموح نشط من عقاله وخرج هائما من مذوده يريد المرح في نواحي الارض والضرب في مناكبها العراض ، ولكنه ما لبث ان وجد في كل صوب ينتحيه سدوداً منيعة تستبي عينيه من ورائها مراعي فيحاء وكلاء خضراء ، ولكنها محرمة عليه ، فلما أن يحمده في مكانه ريثما يرعى الجوع لجه ويبرى القحط عظامه ، وأما أن يُجنَّ من الغيظ فلا يزال يتخبط ويتوثب ، ويناطح من السدود كل صخرة صماء ، ويصادم من الأسوار كل صفاة صلباء ، فلا يبوء الا تهشيم أعضائه وتمزيق أشلائه ، حتى وفق اخيرا الى اقتحامها باعجوبة بعد بذل الآلاف من المحاولات ومعاينة الاهوال من الآلام ، فخرج يحض لا فيما كان يتخيل من مراتع رغيدة ومروج سعيدة ولكن على كل حال في فضاء معشوب تُستمرأ فيه حلاوة الحرية وإن مازجتها مرارة الفاقة . وجملة

القول أن تيوفلسدروخ بعد أن نبذ مهنة القانون إلى نفسه في فلاة بهما ليس فيها من العمل الصالح مرشد ظاهرى ، ولا فيها من الايمان الراسخ مرشد ياطنى . لقد كانت الضرورة تسوقه اعنف السوق ، ولا غرو فإكان للزمن ولا لابن الزمن أن يترث ويقف ، وكيف بالوقوف لمن لا تزال تحذوه وتوفزه ، وتنخسه وتحفزه ، وجدانات مستعرة لاشقاء لغيلها ، وملكت متعده لا عمل لماطلها ؟ وهكذا كتب عليه كما كتب على غيره ، أن يمثل تلك الرواية الرهينة « لا غاية ولا راحة » ، وأن يمر في أدوارها المتتالمة ، ويخرج من خاتمها الفاجعة ، مستنبطاً منها ما استطاع من عبرة وموعظة .

يبدأ أنا نقول انصافاً لصاحبنا أنه كان معنوراً بعض العذر فيما أتاه ، وأن الشناق لم يكن على عنقه بالخفيف الوطأة ولا بالهين الحمل ، فلا بدع أن يضطر إلى قطعه . لقد وجد نفسه أثر تخرجه من الجامعة وبعد نجاحه الباهر في الامتحان في موقف لا يحسد عليه انسان ، يبحث عن العمل فلا يجده ، ويلتمس المرتزق فلا يوثاويه ، وما كان مثله ، وهو المقطوع الصلة بكل صاحب منزلة وجاه ، أن يأمل من الانتظار كثيراً . والظاهر أنه كان يعيش يومئذ في عزلة عن أقرانه ، وذلك حيث يقول « لقد كان أترابي من خريجي الجامعة لا هم لهم في غير المطعم والمذبح . أما غير ذلك من دلائل الحياة فقد خلت منه جميعهم ، وأجذبت منه طينتهم . لله در تلك الميونة المحملقة ! لقد كانت مع شدة تحديقها لا تبدى من التفكير بصيصاً . وكيف بالتفكير لمن هو كليل الحواس عن إدراك مآلى الأمور وبواطنها ، وجلال الشئون ودقائقها ، كل ما يستطيعه أن يستنشق خفي ربح الترقية مقبلة من أبعد البعد ؟ » ألا يجد القارىء في هذه الكلمة ما ينم عن مرارة الحفيظة المهتاجة ،

وتألم الكرامة المجروحة ؟ لاجرم أن هؤلاء الزملاء كانوا يسخرون ، صاحبنا ومن غريب أطواره ، بل لعلهم حاولوا أن يعضوه ، وأن يفعلوا ما هو أشد من ذلك استحالة : أن يحتقروه . والمؤكد على كل حال أن الثرى فيما بينهم وبينه كان لا يصلح لآبات صداقة أو مودة . لقد انفصل الفتى عن سرب الجراء ، ولم يكن يُدري بعد هل هو من أشبال الاسود أو من جراء الذئاب ؟ والظاهر أنه كان مفرط الحياء والكبرياء ، حتى الأنف أشم المعطس ، شديد الاعتداد باستقلاله وكرامته . ولم يلبث أولئك الوجاه الذين كانوا يلحظون تقدمه في الجامعة أن تحولوا عنه ، وقطعوا كل أمل من استصلاحه لثروته في نظرم « بلاء المبقرية » . ' هذا التصرف يحتاج الاستاذ في الكلمة الآتية : « كَأَنَّ الْأَ... » ، كَأَنَّ الْجَمَّ الْكَثِيرَ لَا يَحْتَوِي التَّزْرِ الْبَسِيرَ ، كَأَنَّ مَنْ يَسْتَطِيعُ ... بَجَّ فِي عَنَانِ الْمَاءِ ، لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ عَلَى أَدِيمِ النَّبْرَاءِ ! ولكن الدنيا عجوز خرقاء كانت تحسب كل درهم منهب ديناراً خالصاً ، فلما طال عليها الشمس نزعَتْ ثقتها من الدنانير جملة وأقسمت لا تتعامل بغير نقود النحاس »

ولعل القاريء يتساءل كيف استطاع هذا النابغة السماوى الطيار ، وقد رفض القوم قبوله بينهم كعامل ارضى سيار ، أن يظل ساجداً في الجو دون أن يحتنى عن الميان ، وينهب حيث ذهب القارطان ؟ وجوابنا على ذلك أن هذا لئز ليس له في هذا الخليط من الوثائق حل جلى . وسواء اكان صاحبنا يستمين على العيش بأعطاء دروس خاصة ، أم بترجمة بعض المؤلفات القيمة ، فالؤكد - كما يقول - أنه لم يقع فريسة الجوع ، بدليل بقائه حتى اليوم في قيد الحياة . والظاهر أنه لم يكن صفر اليدين من النقود كما يستنتج من اشتغال

الوثائق على طائفة من قوائم الحساب لبعض الفنادق ، عثرنا بينها على رقتين وصلتا اليه يومئذ من بعض ذوى المقامات ، إحداها إعتذار عن عدم استطاعة كاتبها الوفاء بما وعده من المساعدة على الاشتغال بعمل يليق بنبوغه ومستقبله ، والاخرى دعوة إلى حفلة شاي من الأسرة التي تمت إليها بالقرابة هر توجود زميله بالجامعة .

على هذا الوجه التهكمي كان جواب استصراخه ، وتلبية استنجاده : كأس من سخييف الشراب بدلا من غنى الطعام الذي تلتوى من شدة الحاجة اليه امعاؤه ، ودعوة الى حفلة سمر ومفا كبة بدلا من العمل الذي كادت تصدأ من فرط الافتقار اليه اعضاؤه . وقد أجاب تيوفلسدروخ هذه الدعوة ولكننا لا نستطيع الامن باب التخمين أن نتصور كيف كان موقفه ، وقد بات مع الضرورة القاسية في صراع ناشب ، وسط الحاضرين هنالك من هواة الادب وعشاق الموسيقى من كلا الجنسين ، كأه أسد جائع دعي الى وليمة عشبية بين ررب من الأطباء والفزلان . لعله التزم الصمت ولم يخرج بخالبه من انعمادها ، والأفأكبر الظن أن لم يعملها في العشب بل في الربرب .

ندع هذا جانبا ونستمع قول الاستاذ « لقد كان العالم كله في نظرى لغزاً هائلا كغزاني الهول ، إما أن أفوز بفك طلاسه وأما أن أقع فريسة بين برائه . وكانت الحياة لا تزال تنكشف لخاطري عن روائقها وروائعها ، عن أنوازها المتضربة تتخلل غياهمها المدهمة . وكان في نفسي تناقض غريب لا أجد بعد الى حله سبيلا ، ولم أكن أدري أن الموسيقى الروحانية انما تنشأ عن اثلاف متنافر الانغام واتساق متباين الألحان ، وانه لولا الشر ما كان الخير ، ولولا بشاعة المعركة ما كان جمال النصر »

ويقول الأستاذ في موضع آخر «سمعت بعض الناس يؤكدون (على سبيل المزاح طبعاً) انه لو كان من المستطاع اعتقال جميع الشبان من سن التاسعة عشرة في براميل تكفأ عليهم ، أو إخفاؤهم بأى طريقة أخرى تريحنا منهم ، حتى اذا بلغوا الخامسة والعشرين أخرجوا الى الدنيا أرجح أحلاماً وأرصن وقاراً ، لكان للناس فى ذلك مزيد وافر من الصفاء والهناء . وغنى عن البيان أنى لأوافق البتة على هذا الاقتراح كخطة عملية ، بيد أنى أقول اذا كانت الفتاة تبلغ فى شرح الشباب عنفوان الحسن والظرف والملاحة ، فى ذلك الأوان يستوفى الفتى أقصى غايات الرذالة والسماجة والوقاحة . فينما تراه ألبهمن الجبارى واهمق من الطاووس ، اذا به أشره من العقاب حبابى الملامهى وشغفباللذات ، قد نفخه التيه والكبر ، وملاءه العجب والفخر ، وجمجمه المناحداوالابه ، وتعادى به التبجح والادعاء ، فهو فى جميع أموره متهوس أحمق ، متهور أخرق . ومن العجب العجبان ذلك الحدث المنور الذى لم يبدل بمد جهدا ولم يحاول سعيه لاي عجيبة من مساعى الخير شئ ، بل لا يزال يدعي لنفسه التفوق عليهم ، زاعماً انه لو كانت مساعيهم جديرة بهمة لبلغ بها أوج الاعجاز وذروة الأتقان . ثم لا يفتأ يرى الحياة من الهنات الهيئات ، وانها من فرط البساطة أسهل من القاعدة الثلاثية ، ما عليك الا أن تضرب الحد الثانى فى الثالث ثم أن تقسم الحاصل على الحد الاول يكن خارج القسمة هو الجواب فان لم تحصل عليه فانت فى زعمه اجهل من دابة واهمق من بهيمة . بعداً له من غر مغفل ، لم تعلمه التجارب انه مهما يفعل فلن يبرح لديه كسر مشؤم ، يكون فى الغالب عثرياً دائراً ، وانه من العبث محاولة الحصول على ناتج صحيح ، بل من العبث التفكير فى ذلك !»

لاريب أن تيوفلسدروخ كان في ذلك المهديقاسى من المهوم والعراقل
عناء شديدا ، والا فكيف يعلل قوله : « سنة الطبيعة لاميير لها ولا مبدل ،
وهى أن ماندعوه الوقت أو الدهر لايزال يلتهم أبناءه ، لامنجاة لك منه الا
بمواصلة العدو ، بمواصلة العمل ، سبعين عاما أو نحو ذلك . وحتى اذا فعلت
لم تستطع فى النهاية الا فلات من قبضته . هل فى مقدور اى ملك ، أو اى
محالف مقدس من الملوك ، ان يأمرؤا الوقت بالوقوف ، وان يتحرروا من قيده
ولو فى اليوم ؟ ألا ان الحياة الدنيا قائمة بمخذافيرها على الوقت ، ومشيدهم عنصر
الوقت ، وانما هى فى مجموعها حركة ودفعة من دفعات الوقت ، الوقت مصدرها
والوقت مادتها . ومن ثم كان واجبنا جميعا ان نتحرك ، أن نعمل - فى الاتجاه
التقويم . اليس ابداننا ، بل ارواحنا ، فى حركة مستمرة ، شئنا ذلك اولى
نشأ ؟ اليس حياتنا كلها موجة قلقلة بين جزرومد ، بين فقدمسترو تمويض
مستمر ؟ اليس أوفى ما نستطيع بلوغه من لشباع مطالبنا الظاهرية والباطنية
انما هو لشباع لأجل مسمى ، لوقت معلوم ، فهما نفعل لا يلبث أن يطيح
به الوقت ، ويصبح بالنسبة اليها فى حكم المهدوم ، فلا زال فى حاجة الى
استئناف المضى والعمل من جديد ؟ أيها الوقت ! أيها الوقت ! كيف احطت بنا ،
وسجنت ارواحنا ، وأغرقتنا فى أعماق أعماق لجنتك المضطربة الحالكة ، حتى
أمسينا لانستطيع أن نختلس ولو لحظة من أوطاننا الساوية الا فى أحيان
الأفاقة وما أندرها ؟ لقد كنت ، وأنا احد أبناء الوقت أشقى خطا من كثيرين
سواى ، وكان الوقت يؤذن بالتهامى قبل الاوان ، فأنى مهما بذلت من
المجهود ما كنت لأستطيع الى العدو سبيلا ، من فرط مايت فى طريقى من
المقبات ومن ثقل ماعلق بقدمى من الاصفاد . » لمل الاستاذ يقصد ، على

ما ترجح، أن يقول باللغة المتعارفة بين أهل الدنيا ان الواجب كان يقضي عليه، كما كان يقضى على سائر الناس، بان يعمل ويسعى في الاتجاه القويم، ولكنه بعد طول البحث لم يجد عملاً، فانقلب تمسا شقياً. ولا بدع ان يكون هذا مصير من لم يزل شبح الجوع المخوف ماثلاً على البعديدهم، ومن كانت روحه الجياشة تعاني من القلق والبطالة نزعات الذبول والاحتضار

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

« وكنت حتى هذه الساعة معروفاً بين عشرائى وخطائى بالليل الى الدعة والسكون، وكانوا يأخذون على ذلك الليل، ويقولون انه بس المعبر عن وجداناتى الملهية وعواطفى الحادة. والواقع أنى كنت أنظر الى الناس بحب مفرط وخوف مفرط. ولا غرو فكل من يدرك من روعة الجلال السرمدى طرفاً جدير أن ينظر الى شخص الانسان بين التقديس. وكان القوم كثيراً ما يوجهون الى اللوم، وأحياناً يستشعرون لى البغض، لما كانوا يحسبونهم فى جهوداً وجفاء، ولما كنت قد اعتدته فى حديثى من لهجة تم فى الظاهر عن تهكم وتهجم وان لم تكن فى الباطن الا درءاً أعدتها لنفسى حتى يتسنى لشخصى الضعيف أن يمشى فى حماها مطمئناً آمناً، موادعاً مسالماً، لا تستغزه قوارص النير ولا يستفز النير بقوارصه. بيد أنى قد عرفت الآن أن التهكم هو فى الجملة لغة الشيطان، فاقلمت عنه وآليت أن لا أقربه. وكمن امرئ قد أثرت فى تلك الأيام حفيظته، واجتلبت بتلك اللهجة عداوته! ان الكهل المتهكم ذا السكينة الماكرة والأساليب المتعادية لخلق بان يمد آفة المجتمع، فكيف بالشاب الذى يستبدل خشونة التهكم بنعومة الغرارة، وحرافة المكر بمحلاوة السفاجة. أو لم نشاهد رجلاً من ذوى

الافتدار يتقدمون في رفق ووقار ، ومرادهم أن يثثوا بأرجلهم أحد هؤلاء
المتكهين من الشبان ، وأن يظهروا المجاس من تلك الهنة الحقيرة والحشرة
المرذولة ، فلا يروهم الا انقجاره ، كأنه قنبلة أو طوربيد ، فاذا هم قد طاحوا في الجو
صعد آثم خروا على الأرض صبيبا ، مهشمي الجوارح ممزق الأعصاب ،
صائمي الرشد مفقودي الصواب ! »

ويلاه ! كيف يستطيع من لمثل هذا المزاج الشيطاني والطبع الناري
أن يمهّد لنفسه في الحياة سبيلا ؟

الفصل الخامس

(عهد الغرام)

« وكذلك ظل الفتى في سبيل البحث عن العمل سنين طوالا ينتظر
وينتظر ، ويماني أربح الآلام من هم وضجر ، حتى خطر بباله ذات يوم : لماذا
كل هذا ؟ لأجل الخبز والدفء ! أو ليس في غير هذا المكان من أرض الله
ذات الطول والمرض ما يقوم باطعامك وادفائك ؟ لقد عقدت النية على
التجربة ، قضى الله ما قضى ! »

لقد اتبع لنا إذن أن نشاهد تيوفلسدروخ مستقلا بنفسه في ظروف
جديدة . نعم لقد قضى الامر ، فانفصل الفتى عن قافلة السفن حيث كان مكانه
المتخلف في المؤخرة لا ييمت على عظيم الرضى ، وأخذ الآن ينجس عياب
اليم في طريق منفرد ممتدا على ما أوى من هداية ومقدرة . ويل لك أيها

المخاطر المنكود ! لكن كنت لا تزال تتبرم بالقافلة ومهمتها ، وتتسخط على ربايتها ونوايتها أو لم تكن هي على كل حال تسبح في طريق معبدة لأغراض معينة ويتعاون أفرادها جميعاً أخذاً وعطاء وإرشاداً واستئناساً ؟ ماذا أنت اليوم صانع ، وأنى تسلك بمفردك في مجاهل الدأماء ، ومهامة اللجة الخضراء ، بل كيف تهتدى الى الطريق المختصر لضالتك المنشودة من جزائر السعادة ؟ لا جرم أن تقع لمثل هذا الجواب الجوال ، المخاطر بنفسه بين الممالك والأهوال ، حوادث وعجائب واقفلة بالرصاد . بل ها هو لا يكاد يخطو أول خطوة حتى تمرضه جزيرة مسحورة توقف تقدمه ، ففسد عليه كل تدايره ، وتقلب محطته رأساً على عقب .

« اذا كانت الحياة لا تزال تتكشف في ريمان الشباب عن محاسن بهجتها ، واذا كانت جنة الخلد لا تزال تتجلى للفتى على كل بقعة من الارض في مفاتيح روعتها ، فان هذا التجلي لا يتم في صورة هي أسرع وأبرع منه في صورة الغادة الحسنة . لطالما قلت إن الانسان هو أبدأ في نظر أخيه الانسان مهبط روح القدس ، وإن سرّاً إلهياً ليربط كل نفس الى أخواتها بروابط المحبة والأنس . بيد أن هذا التجاذب السلاوي والتآلف الروحاني لا يصير ضراماً مشرقاً ، ولا ينبعث لهيباً متألقاً ، الا في هذا التقارب بين الجنس وضده ، كما يورى الشرر بين السالب والموجب . أفترض في استطاعتك أن لا تحفل حتى بأحقر انسان ؟ أليس من أحب آمالك أن يجعله وإياك شخصاً واحداً بأن تضمه اليك ولو بأسباب الرهبة إن لم يكن بدواعي الهبة ، أو أن تضم أنت اليه اذا أعيتك الحيلة في جذبته الى نفسك . واذا كانت الحال كذلك بين المشراء والخطساء فكيف بها في هذا التقارب بين الجنس وضده ! الا ان في هذا التقارب

اشرف ما يعرف في الارض من تآلف والتشام ، واسمى ما تطيقه الطبيعة البشرية من اتحاد وانضمام . نعم في هذا الوسط الموصل بين مختلف الجنسين ، كما في الوسط الموصل بين مختلف السلكين ، تشتعل نار الكهرباء الروحانية ، تلك التي يسرى تيارها السيل في انحاء الكون اجمع ، والتي ندعوها اذا هي اتقدحت بين الرجل والمرأة عاطفة الحب !

« وأكبر غنى أنه مامن شاب الا وتشرق في مسرح خياله جنة قصية غناه ، وروضة قدمية فيحاء ، تخلم عليها حلة الأئس والبهاء ، حورية من من بنات حواء ، ويراى من خلال مسالكها الظليلة الوريقة ، ومن فروج خنائها المنورة الأنيفة ، « شجرة المعرفة » مائلة في جلال وروعة ، وجمال ورقة . ولقد زيد للمظر فنته وحسنا لوقام على خفارتة « ملاك حارس » وحال ينتمون عابرة السبيل « حسام ملتهب » ، فيظل الفتى وكل ما يستطيعه أن يحظى بتمعة النظر دون السخول ، ويتلى بنعمة المشاهدة دون الوصول . سقيت النيث يا عهد الشباب والفضيلة ! إذ لا يزال الحياء ذلك الحجاب الآلهي المنع ، وإذ قصور الامل وشرفاته الرفيعة لا تزال قائمة في جمالها المقدس ، لم تتضاءل ولم تدنس ، ولم تتكشف لآعيننا المفيقة ، عن حقير أكواخ الحقيقة ، واذا لا يزال الانسان بطبعه ذلك الكائن الطليق الحر ، لا تحده غاية ، ولا تحصره نهاية !

« أما صاحبنا الفتى البائس (يعنى نفسه بلا نزاع) فقد كان ، ولا يزال ، شعوره تلقاء مليكات الأرض مما يعجز الوصف عن تصويره . ولا عجب أن يكون هذا شأن امرىء آثر العزلة عن الخلق ، وأوتى مع ذلك خيالا تميها ، لا يزيده احتراقه في الخفاء الا تأججا . لقد كان يرى فيهن لألاء

النور اللدني ساطعاً يخطف الأبصار، وكن جميعاً في نظر مقدسات روحانيات،
مطهرات سماويات، ولم يكن عهدهن يتجاوز لمحهن للحا وهن ينسبن
بجانبه انسياً في رياشن الملائكي المفتن الثلاثين البديع التزيين، أو
وهن يحمن على أطراف خفلات الشاي بعيدات المنال، محفوفات بهالات
الجلال، كلهن هواء ونور، ونسيم وصير، أرواح متزققة، في صور متألقة،
فاتنات ساحرات، كأنهن كاهنات مهييات، في أيديهن ذلك المعراج العجيب
يرقي عليه الفتى فينال أسباب السماء! هكذا كان شأن الحسان في نظره.
وما كان ليهجس في وهمه، وهو ذلك البائس المسكين، ان يوفق ذات
يوم الى الفطر بإحداهن، بل كان مجرد سنوح هذا الخاطر يتركوكأن الأرض
الفضاء به تدور، ولقد يخيل اليه انه لو تم ذلك لخر صعباً، وفاضت الروح
الى بارئها.

« وهكذا كان الفتى، على انكاره ماتو من العامة بوجوده من ملائكة
وشياطين، لا تزال تزوره أسراب من الاطيف السماوية، والأرواح العلوية
ترفر فرحواليه، على رأي من عينيه، ومسمع من أذنيه، أينما راح وحيثما
اغتنى. وكان يلحظها بعين غضبضة الطرف خشية وخشوعاً، وقلب خفاق
الجوانح تمبداً وخضوعاً. ولكن هب أن احدى أولئك الحسان المصورات
من نور وبهاء، المجسمات من شعاع وهواء، التقت عليه من سواحي الحائظها
نظرة مكهربة توحى الى قلبه (لا بأس عليك أيها المنزوي فقد أبيع لك
أنت أيضاً أن تحب وأن تحب) ترى اذن أى نار بركانية، قاصفة الرجفات،
ناسفة اللفحات، كانت تنفدح يومذاك وتندلع! »
والواقع أن مثل هذه النار، وما يتلوها من فرقات وانفجارات، قد

شبت بالفعل في صدر هرديا جونيز ، وهل كان عن ذلك مندوحة ؟ لقد كان ذلك الصدر (ولیمذرنا القارئ اذا نحن جارينا الاستاذ قليلا في أسلوبه المجازي) يحوى قدرا لا يستهان به من حرق الخلد ومن ثرات الوجد ومن كبريات الدابة ، وكل ذلك في مستقر حار ، على مقربة من فرن خيال ملتهب . فهل عجب أن يتألف من هذه العناصر الحامية ما يكفي لتكوين أجف نوع من البارود ، بل أقوى صنف من الديناميت ، حتى لا تكاد تقترب منه أدنى شرارة - وما الشرر بالنادر في هذه الحياة - حتى يتقدفينفجر .

نعم لم يكن ثمة شك في أن ملاكا من هذه الملائكة الخائفة حواله ، المرفرفة على مرأى عينيه ، سوف يعمد يوما من الايام الى الاقتراب من هذا الخامل المنزوى ، وهناك يشعل بنظرة من تلك النظرات السماوية الشاقبة نارا ما أخطر شأنها ! فطوبى له يومئذ لو تكشف امره عن نار كنار السواريج تتعاقب انفجاراتها المأمومة في روتق يديع السناء ، ومنظر انيق المجتلى ، خلال الادوار المتوالية لحب فتى سعيد ، حتى تنفد مادتها ، وتهمد جنوتها ، وتخرج الروح الفتية سليمة لم يصبها اذى . أجل طوبى له لو ان الامر لم يتكشف عن حريق هائل وانفجار مروع ، عن نار تمزق اعشار الفؤاد كل تمزق ، وذلك هو الموت - أو تصدع النشاء الرقيق « لفرن ذلك الخيال الملهب » فتندلع لواهبه وتظل تعيث مطلقة العنان فيما جاورها من المفرقات ، وذلك هو الجنون ، حتى لا يبقى من ذلك الهيكل البديع الرائع الا بقية رماد هاب ، أو فوهة بركان خاب .

وهكذا شامت القادير ان يقع فيلسوفنا في شرك الغرام ، وأن يصيبه جنون الحب المستعر . فاحب حبا ملك عليه عقله ونهاه ، واستهلك له وحجابه . ولكنها مرة واحدة ، مرة لم تعقبها ثانية . وكذلك شأن القلب الآدمي لا يستطيع ان يعرف الحب الصحيح ، الحب الصادق العميق ، الامر قواحدة . وما كان للرشفة الاولى من كأس الغرام ان تعادلها في الحلاوة رشفة أخرى . فلا عجب أن نرى الفيلسوف بمد هذه الحادثة الغرامية الفتنة قد أغلق قواده دون دواعي الصباغة ، بل سد سمعه دون هوائف الغزل والدعابة ، وبات يستد النساء لأكثر ولا أقل من طرف فنية بديمة ، لا بأس عليه إذا هو متع ناظره بمشاهدتها في المعارض ، ولكنه لا يفكر قط في اقتناء شيء منها في بيته .

وكأنني بالقارىء يتلهف شوقا الى معرفة ما أحاط بهذا الحادث من الظروف ، وما تضمن من التفاصيل ، وعلى الاخص باى المناسبات ولأى الاسباب كان التقاء العاشق بالمعشوق ، وكيف كان موقفهما في ذلك الملتقى . ولكن الفيلسوف ، كعادته دائما ، يتركنا من هذا الامر في حيرة حيرة ، ويكتفى بإيراد هذه الكلمة الموجزة « لقد كتب في لوح القضاء ان يقاطع مدار كوكبها السماوى الاعلى مدار كوكبه الارضى الأدنى ، وأن يخيل اليه وقد أطل في أعماق الخائضات الصافيات ان سبحت الانوار العليا ، قد هبطت الى مساحب الظلال السفلى ، حتى اذا انكشف له خطؤه أنشأ عملا الدنيا عويلا ولجأه

ولقد يظهر ان المعشوقة كانت فتاة في مقتبل الشباب وريمان الجلال من بيت نبيل ومحدث كريم ، ولكنها لم تكن من ذوات الثراء ، ولعلها كانت تميش في كنف أقرباء لها من ذوى النشب والجاه : على اننا لاندرى

كيف كان التقاؤه بها . ولعل الامر قد حدث من باب المصادفة . وحسب
القارىء ان يسمع من فم الاستاذ هذه الكلمة في وصف القصر الفاخر حيث
كانت تقيم الحسنة :

«أيها القصر النبيل ! من ذا الذى مر بك في جالك وروعتك، وحسنتك
وهيئتك ، الاحبس خطاه ووقف بين يديك متأملا متعجبا ؟ لكأنى أراك
الساعة ماثلا هنالك في أحضان ذلك المدرج الجبلى العميق تحيط بك العزلة
الصافية، وتحنو عليك الظلال الصافية، وقد ارتفعت شواهدك المرمية،
وبوارج جدرانك الجرانيتية . تلعب في أشعة الشمس الراحلة ، كأنك من
قصور الفردوس بنيت بأجر النصار وغشيت بنوب الذهب . وبالله ما ميلح
تلك الروابي المشرفة عليك ، والقلاع الحارسة لك ، تهض سفوحها الخضراء
متدرجة متموجة ، قد انتزعت بالعشب النضير، وترصعت بالحصباء والصخور،
وازدانت ههنا وههنا بإيكلات منفردات تبسط على الارض ظلها الظليل . بلى
أيها القصر لقد كنت لهذا الخائر المتجول كمعبد ممنون في صحراء حياته
المحرقة ، وكنت تضم بين جدرانك لوح قضائه المحتوم قد جرى فيه القلم
بسمادته وشقائه، وسرائه وضرائه : فا كان أجدره بالوقوف والتأمل لو كان
يدرى ماخبأت له من عذاب ونعيم ! »

وليتصور القارىء أن صاحبنا الفيلسوف دعى الى حفلة تشاى بهذا القصر
فادخل فى حديثه ، فالتى نفسه فى مجلس زاهر قد ضم جماعة من صفوة
الفتيات والفتيان ، يتجاذبون أحاسن الحديث ويستمعون أطايب الألحان
والظواهران الحديقة لم تكن دون القصر بهجة وبهاء، ورونقا وسناء، وذلك
حيث يقول الامتاذ : -

« تحت ناضر الايك وأثيث الاغصان ، وبين عاطر الزهر وعبق
الريحان ، كان يجلس أولئك الامجاد يروقه من بدائع الالوان كل مجلى أنيق ،
وتحييمهم من نوافج الانوار أمثال نفحات المسك الفتيق ، وترامى لهم من
خلال الابواب المفتحة مناظر يرودها الطرف ويمرح ، وترنع فيها العين
وتسرح ، من خمائل غناء ، ورياض لفاء ، ومروج خضراء ، وسيوح زرقاء ،
وكل شىء هنالك قد أشرقت ديباجته. وانجلت صفحته ، وترقرق ماؤه ، وتألّق
للآؤه ، وقد ارتفعت من كل صوب وناحية تناريد الطيور فرحة طربى ،
وأرايين الهوام سعيدة جنلى ، حتى لكأن الانسان قد اختلس من المهر
ساعة هنيئة ، واسترق من الحوادث لحظة بريئة ، وآوى الى أحضان السعادة
مستقرا من صدرها فى مكان أثير ، ومضطجع وثير .

« وماهى اللحظة حتى قدم صاحبنا الى القوم وفيهم - بلومين ! وكانت
جالسة فى تواضع رقتها ، ومهابة روعتها ، بين اترابها وصواحبها كالكوكب
الواهج بين مصاييح الثرى ، فتقدم اليها منحنيا يحسمه وروحه ، لا يكاد يجزأ
على رفع بصره المضيض ، لفرط ماشاع فى قلبه من ارتباك مستلذ واضطراب
مستعذب .

« وما كان اسم هذه الحسناء بالجديد على مسمعه . لقد سار ذكرها فى كل
ناد وعفل ، ولهج بوصفها كل لسان ومقول ، فمن متحدث عما أوتيت من
محاسن وهبات ، ومن متعذر بما ركب فى طبعها من اهواء ونزوات .
فكان صاحبنا قد صور لنفسه من الوان هذه الاشاعات الغامضة ، مدحا
كانت أم قلما ، ثناء كانت أم نقدا ، صورة رائمة ، أخاذة بمجامع الافئدة ،
تملاً للجنان رهبة وخشوعا . وكان قد رأى شخصا من قبل رأى العين فى

متنديات المدينة ومحافلها ، فشاهد ذلك القوام الالهيف المهيّب ، وتلك الغنائر
الوحيّة الفاحشة ، تظلل وجها تلعب فيه الضحكات والانوار ، على متن اعماق
سحيقة من الجد والوقار . بيد أن هذا كله كان يتراءى له كتهويل السحر
واصناعات الاحلام ، لاسيّل الى ادراكه ، بل لاحقيقة لوجوده . نعم لقد كانت
الشمس في بيت عزها ادنى اليه مثلاً ، واسهل عليه مراما ، فإكان ليهجس
بوجهه أن يلتقي بها ولو في العمر مرة ، وما كان ليسمو بأمله الى أن يخطر ذكره
على بالها خطرة ! ولكن هكذا شاءت الاقدار ، فاذا به الساعة جالس واياها
في حلقة واحدة ، ان بسمت شملته أنوار بسمتها ؛ وان لفظت وقع في اذنه
رنين لفظتها . ثم اذا كانت الشمس وهي في سماء مجبها لاستتكتف أن تطل
في أحط الوديان ، وأوضع القيعان ، فن ذا الذي يدرى لعل هذه الحسناء كانت
قد لاحظت قبل اليوم هذا الخامل المنمور ، ولعلها سمعت من أفواه حاسديه
وشائثيه ، كما سمع هو من أفواه حاسديها وشائثيها ، ما أثار عجبها منه وأعجابها
به . ترى اذن هل كان التجاذب مشتركاً ، وثوران العواطف متبادلاً ، هل كان
القطبان المختلفان يرعشان وقد أدنى أحدهما من الآخر حنياً الى العناق ، ومهتران
شوقاً الى الالتصاق ؟ أو قل هل كان القلب يحيش جيشانا في حضرة مليكة
القلوب ، كما يحيش صدر البحر اذا هو اقترب من مدار القمر ؟ نعم لقد كان هذا
شأن صاحبنا ، لقد أحس كأنما قد لمست له لسة من عصا السحر ، فاذا بروحه
قد نارت من اعماق مكلمتها ، واذا بكل ما هنالك من لثة والم ، ونسيم وعذاب ،
وذكريات غامضة لكل غابر ماض ، واحساسات مبهمّة بكل قادم آت ،
تصطلق وتثور ، وتلتطم وتمور ، في أمواج زاخرات ، وحواملت دائرات .
« ولطالما كان صاحبنا قد شهد قبل هذا الموقف مواقف أقل إثارة

للعواطف ، فكان يعموه فيها تهيب وانقباض ، وكان يبادر الى إخفاء اضطرابه وارتابه ووراء ستر صفيق من السكوت ، بل خلف حجاب كثيف من الجلود . فلماذا إذن ، وقد راح في هذا الموقف ينتفض من أعماق سريره ، لم يسقط في مصرع الانغماء ، بل جعل يصعد في معارج القوة والشجاعة والبيان ؟ لاجرم إن شيطانه قد هتف به حينذاك ان أبرز من مكنك ولاق ما ساقه لك الحظ ، هذه ساعة الاقدام فلما أن تظروا إماماً أن تتوارى آخر الدهر ! وكذلك تأتى على الانسان أحيان يبلغ فيها وجهه من الطفيان مبلعاً يستغفر الروح من رقدتها ، حتى تشعر لأول مرة انها تفوق هذا الوجد بطشاً وقوة ، فإذا هي قد ظهرت عليه وسمت عنه تحملها أجنحة النصر في هالة الفوز ، وتسبح بها سبحاً مفرط الهدوء من شدة إسراره ، مفرط اللين من شدة اندفاعه . وإن صاحبنا ليذكر بمزيد النهش والارتياح كيف كان اذ ذاك لا يلتزم الصمت كما دته ، بل ينغمس في تيار الحديث بلباقة ، فإذا هو قد قبض على ناصيته يصرف كيف شاء زمامه . لا ريب أن وحيًا من السماء كان ينزل عليه في تلك الساعات يلهمه الحكمة والصواب ، وينطق على لسانه بفصل الخطاب ، فتظل نفسه المطوية تنشر مكنون خواطرها في معنى جليل ، ولفظ نبيل ، وعبارة مشرقة بهية ، وديباجة مصقولة طليّة ، وتعود روحه وكأنها بحر من النور يتلألأ ، هو مقر الحق ومنبع الحجي ، تطلع من جوفه أطياف الخيال صورة أثر صورة ، في وشى بديع التلاوين ، ورواق باهر التحاسين»

والظاهر ان بعض المتقربين كان يعكس صفاء المجلس بوابل من حديثه المملول ، غير دار أي بطل خفيف قد أقبل الساعة ليزعزع أركانه ويهزم كيانه بما جعل يصوب عليه من نكات لاذعة ، وتهكمات قارحة ، لم تلبث ان أغرته

بالصمت أولاً ، ثم لم تتركه حتى حملته على الانسحاب أخيراً . وذلك حيث يقول صاحبنا « ولقد كان أنخذال ذلك اللجوج الملاحك مدعاة ارتياح الحاضرين ، ولكن أى قيمة كانت لمستطاب ثنائهم ومستعذب إطرأهم بجانب تلك الابتسامة الحلوة الجنلى التى كافأت بها الحسنة هذا البطل المنتصر على جميل صنيعه وحسن بلائه ؟ لقد جرأته هذه الابتسامة على توجيه الخطاب إليها ، فأقبلت عليه والتفتت اليه بل ليت شعري أكان فى ذلك الصوت الرنان رعشة خفيفة ، وهل كانت حمرة الشفق تخفى على ذلك الخلد الأسيل خبطة طفيفة ! » ثم اتجه تيار الحديث الى مناح سامية ، فى معرض من المعانى بديع ، حيث المعنى يبعث المعنى ، والفكرة تقدح الفكرة . وكانت لحظة من تكام اللحظات النادرة إذ تفتح أغلاق النفوس ، ويشعر الانسان بأنه اقترب من أخيه الانسان . وكذلك ظلت كؤوس الأحاديث تدور على المجلس مشمعة رائحة ، فيرة صافية ، وقد ارتحل عن كل صدر همه ، وانزاح عن كل قلب عبؤه ، وذابت حواجز الكلفة فهازجت النفوس ، وتلاشت حوائل الاقتباب فتماقت القلوب ، وترامت الحياة على مدى البصر مفتحة الألوان ، منسقة النظام ، كأنها قطعة من الفردوس ليس فيها لغير الحب سلطان ! مثل هذه الموسيقى خليقة أن ترن فى جوانب النفوس الكريمة متى طالب لها الزمان والمكان . بيد أنه ما كاد الضوء يترقق على رؤس الرعان ، والظلال تستطيل فى بطون الوديان ، حتى دب فى كل قلب ديب من الحزن والشجي ، وتمشت فى الجوانح وسوسة تذكر كل امرئ بأنه كما يوشك هذا اليوم المشرق البهى أن يفضى الى غايته من ظلمة وسكون ، كذلك يوم الحياة لا عمالة صائر الى الانضلال فازوال ، وكذلك هموم الانسان وأراحه ، وأفراحه وأثرأه ،

لا محالة مفضية الى ظلمة القبر وسكون الأبدية .

« وكانت الساعات تمر على صاحبنا من اللحظات ، لفرط شعوره بالسعادة والطهارة ، وكانت الالفاظ تهبط عليه من تينك الشفتين الحلوتين كما ينساق الندى على العشب الظمآن ، وظل يخيل اليه ان كل ما فيه من كريم العواطف وشريف الوجدانات راح يهيمس في أذنه « طوبى لك فقد طبيت مجلساً وكرمت مقلاماً » ولما نهضوا للوداع اذا بيد الحسنة في يده ، وكان الجو يعمق بأنفاس الفسق ، والنجوم الوديمة تلوح في الأفق ، فطلب اليها معاودة اللقاء ، فلم يقابل طلبه برفض أو إياه ، ثم صغط في رفق تلك الأنامل الرخصة الناعمة ، فخيل اليه انها لم تسحب من يده بسرعة ، ولم تنتزع من قبضته بعنف »

وارحمنا لك أيها المسكين ! لم يبق شك في ان السهم اصمى قوادك ، وان مليكة القلوب قد اعتزمت ان ترى بين صرعاها رجلا من فوى العبقرية فالقت عليك من شباك سحرها ما غادرك موثقاً اسيراً . وهنا يقول الفيلسوف « ليس الحب كله ضرباً من الخبل ، وان كان يشبهه في كثير من الوجوه . والاولى عندي ان يقال انه اكتشاف غير المحدود في نطاق المحدود ، اكتشاف الكل الخيالي في شخص الواقع الحقيقي . وهذا الاكتشاف بدوره قد يكون صادقا أو كاذبا ، قد يكون ملائكياً أو شيطانياً ، قد يكون الهاماً أو جنوناً . بيد انه في كلا الحالين لا يخلو من عنصر الوم ، الوم الذي يتخذ من الواقع الحقير المحدود . نقطة ارتكاز لرافسته الارخميدية ، فيحرك بها عالم الروحانيات غير المحدود . والحقيقة ان الوم في حياة الانسان باب جنة وباب سعير ، ومحياتنا الحسية الامسر ما مؤقتاً صغيراً ينصب عليه من هذين البابين سيلان عزيزان من المورثات ، يثلان هنالك ما يثلان من المبكيات المضحكات . ولو كان الامر

مقصورا على الحس لوجد المرء في الكفاف رضاه ، وفي شظف العيش هناءه
ومناه ، ولكن سلط عليه الوم ، وهو لا ينفع له غلة ولو استولى على أبراج السماء
وامتلك ناصية الجوزاء . الا ترى الى يروس كيف دوخ الامصار ، وفتح الاقطار ،
وهو مع ذلك لا يحتسى من قاني الشراب خيراً عما كان يحتسى ؟ بل قل الا ترى
اليك ايها المسكين كيف رحت تحلق في سماء الخيال ، وتشرف على حافة الجنون
والنبال ، كفها وهياما بها تنتك الحسناء كأنما لیس في الارض غير هامن الحسان
القاتنات !

والظاهر انه كان يلتقي بها في المدينة كثيراً ، وذلك حيث يقول « وكذلك
مر اليوم أثر اليوم وشمس قزاد المشرقة تغمره بضياؤها ، وتخلع عليه من بهائها .
يا لله ! لقد كان منذ لحظة واحدة يتخبط في حالك الظلام ولا يطمع من الحسان في
نظرة عطف به في نظرة غرام ، وكان ضعيف الايمان بكل شيء حتى بنفسه ،
وكان لعزلته وأزوائه ، وبأوه وكبريائه ، مع تعرضه لهجمات الهموم
والاشجان ، والوساوس والاحزان ، قد أمسى طالفا بالغم والضيظ قلبه ، منقطعاً من اعز
ما آرب الحياة امله . فكيف حالت به الحال وكيف أصبح اليوم القدا أصبح يحدث
نفسه : أنها تلحظني بنظراتها ، فما أسمعني بان اكون موضع الرعاية من
اجل ذوات الحسن ، وأنبل ذوات النبل ، الا تناجيني عيونها السوداء لا بأس
عليك فما أنت بمحتقرا الا فرعاها الله من رسول رحمة وعزاء ، وبشير نجاح ونماء
وكذلك ظل الفتى تقيض في قلبه انعام رخيصة ، وتهفو في صدره تفحات كريمة
نجدتها به انهو أيضا انسان من صلب آدم وحواء ، وبانه هو أيضا قد أعد لهاملا
ذن سمعت من غبطة وسراء

« وسط هذه المؤثرات من حديث كالسحر الحلال بين جد وفكاهات ،

تسمى القلوب ساجيات، وضحككت كنبرات الالخان صافيات، وعبرات كاللؤلؤ
الرطب مترقرقات، يمازج كل هذا من الموسيقى صوتها الاعجم الفصيح، وغناؤها
المعنى المريح - ظل صاحبنا في هذا العهد السعيد يندو ويروح. نعم لقد حالت
الحياة، فاذا هي فجر مختلف الالوان ساطع السنا، وإذا بابرع شמוש الجمال تغازل
صاحبنا الفتى، فاضحى بطالع في نورها البهي سفر الطبيعة المجيد، وظل يضاحكه
من مشرقات الالمانى كل أمل جديد. لك الله آيتها الحسنة اهل كنت الا كبعض
كواكب السماء، نار كلها رفيقة كالماء، وشمع خضل اللآلء؟ هل كان فيك
حتى من العيوب والنزوات، الا ما كان في نظر الفتى محاسن وملاحات؟ أو لم
تطلعي عليه كنجمة الصباح الاسني، تستنزل أطيب الالخان من الملاء الأعلى، فاذا
أنعام سلاوية، كالتي تثيرها أنامل ذكاء الوردية، من مثال بمنون في البرية، ترن حواليه
وتلا أذنيه، وتمهد تحت فراشا من الراحة وثيرا، حتى تنفاده في أحضان
السعادة ضجيما، قد انهزمت بين يديه جيوش الشك والهموم، وأزلفت له
جنات الآمال والنعيم؟ اذن لقد كان حلما مزعجا كل هذا الماضي، واذن
لقد كان الفتى يعيش في جنة الخلد وهو غير مادارى. فاهو الا أن التقي بهذه
الحسنة، حتى انجلى عن عينه غشاوة السحر السوداء، فاذا بجدران سجنه
المكروب، ثمات وتغوب، وإذا بالاسير الموثق، حي يرزق، بل حر مطلق -
فياليت شعري أكان الاسير يستشعر لمعتقه حبا وغراما، ولوعة وهياما؟
لقد كان يشعر بأن قلبه ومهجته، وحياته وسعادته، كل ذلك ملك لها، وفداء
مستعذب في سبيلها، ولكنهما كان يحرق على تسمية الامر حبا. ولا غرو فقد كانت
حياته كلها عاطفة مبهمة، لم تبرز بمدى صورة فكرة ينة. »

نعم ولكن بروزها الى حيز الافكار، بل حيز الأفعال كان أمرا لا يد منه. فإكان حقيق ولا ممتقة، وكلاهما من أبناء الزمان، ليستطيعا العيش على مجرد الماطقة والوجدان. والظاهر ان الفيلسوف لا يزال حتى الساعة حيران لا يدري « كيف استطاعت هذا الحسنة أن تجذب قلبها اللين الرقيق، وصدرها الخنون الرقيق، من قوة الزم ومضاء الصريمة، ما يمكنها من قطع هاتيك الصلات المباركة الكريمة. ويحك أيها الأستاذ ! ان الامر لا أوضح من ان يحتاج الى بيان، فحسبك ان تسائل نفسك قائلا: « هب ان الامر قدر على ما كنت أشتي، ففي أية مكانة كانت تنزل، وفي أي مظهر كانت تبدو، مدام تيو فلسدروخ بين طبقات المجتمع الراقية، ودوائره العالية؟ » أم هل كنت تحسب ان حرارة الحب في الصدور، تنفي عن حرارة الاطعمة في القصور؟ أما والله لقد أثبتت حسناؤك يوم آثرت عليك من هو أوسع منك جلاها وأوفر نشبا، انها أصدق منك فلسفة وأثقب نظرا !

لقد شهد القارىء كيف نشأ هذا الغرام ونما، وجعل يرقى في رونق يديع المجتلى، حتى بلغ ذروة السعادة والمنا. فليعدنا اذا نحن الآن أمسكنا عن وصف مصرعه الوشيك في حضيض الشقاء، وانكساره الوحى في هاوية الظلماء. لقد رأينا المنطاد الموثق البهيج ينهض من النبراء، ويحتال صاعدا في الهواء، ويشق أجواز الفضاء، حتى بلغ عنان السماء. فإذا ننظر أن نرى وقد انفجر اما بامل طيبي أو لحادث عرضي، فهوى ممزق الاشلاء كل ممزق، مفرق الاوصال كل مفرق؟ كلا ما للقارىء من فائدة في وصف هذه المناظر الموحية، بل حسبنا أن تلقى لمحة على الفصل الاخير من المأساة: « في ذات شارقة وجد الفتى نجمة صباحه قائمة كدراه، محمرة غبراء.

لقد كانت الفتاة واجهة ذاهلة قريحة الآفاق ، دامة الاحداق . وبلاء ! ملهى
اليوم بنجم صباح ، يهدى الامل والانسراح ، ولكن شهاب منذر ،
باقتراب الساعة ودنو المحشر . وقالت بصوت يتهدج : «الوداع الوداع فلا اتاه
بعد اليوم » اذن لقد وقعت الصاعقة ، فلترك كل ما أبدى في ذلك الموقف
من نضرات لمهى ، وتوسلات ولهى ، وغضب متفزز ، وحق متميز ، فقد
ذهب كله أدراج الريح ، ولنسرع الى الخاتمة - « وقال الفتى بصوت ينم عن
تجلد وأتقة ، لان كرامته المبروحة أسعفته في آخر لحظة : « الوداع اذن أيتها
السيدة » فوضعت يدها في يده وأنشأت تتأمل في عيائه ، فأراعه الاتعجب
مقلتيها بصيب من السمع هتان ، فلم يشمر الا وقد اندفع اليها يضمها الى
صدره ضمة تمانق فيها القلبان ، وتمازجت المهجتان ، كما تمازج من الندى
قطرتان - ضمة كانت هي الاولى والأخيرة ، هي الفاتحة والخاتمة ، ثم ماذا ؟
نعم « ثم أسدلت على روحه استار الليل الكثيفة ، وأرخيت حوله مسجوف
الغياهب الخيفة ، وارتفعت من كل صوب وناحية ، دمامم الزلازل الداوية ،
وبات بين أطلال الوجود الخرية ، يهوى هوى في ظلمات أغوار الهاوية »

الفصل السادس

أحزان تيوفلسدروخ

مازلنا نثمر بان صاحبنا الفيلسوف رجل نسيج وحنيف أخلاقه وخصاله ،
غريب الشأن في أطواره وأحواله . وانه لامثائل أحدا في طبع أو مزاج ،
ولا يجارى مخلوقا في مسلك أو منهاج . ولو كان كسائر الناس ، لأخذ وقد
غشيت غاشية الياس ، فيما يأخذ فيه كل عاشق منكود من تخطيط وصرع

وجنون، ولهم ترائب وضرب جبين، وتحطيم أدوات، وقذف لمنات، ونظم
أشعار، ومحاولة انتحار.

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن. بل نرى صاحبنا وقد سوى حسابه
التقديم، ودفن في أعماق الصدر همه المقعد المقيم، يتناول عصا الترحال،
ويشرع حول الأرض في تطواف وتجوال. فان تعجب فاعجب لا تتلاف
ماعدنا فيه من حدة الإدراك وتوقد الوجدان، مع هذا المظهر المدهش من
رباطة الجأش وثبات الجنان. لقد عرضت له الحسنة الساحرة، فسلطت
عليه من ثقافتها الماهرة، مافتح أغلاق فؤاده المختوم، فاذا كل ما فيه من
مغبوء ومكتوم، يندفع ويتهزم، كالجنى المنبعث من القمقم - ولكن
ما كاد تيار السحر ينحبس حتى انفلقت خزانة الفؤاد، ولعله لم يبق لها
في الوجود مقلاد، لان تجربة الحب ما كانت في حياة صاحبنا لتعاد.

وأعجب من ذلك انه ما كاد يفرغ من هذا الحادث المقت للقلوب
حتى راح يعتده أمراً طبيعياً، وحدثاً عادياً، لا يستحق أن يذكر عنه شيئاً.
وان ذكره فبأمثال الملاحظات الآتية: «لقد لاح في أفق الفتى ملاك شام في
عينيه بريق الأمل الأعلى، فاذا هو قد أخرجه من ظلمة الموت الى نور الحياة.
ولكن ما هي الالحة الطرف حتى غشيت وجه الملاك سحابة من وميض
الجميع، فاذا الزواجر الموهجاء تعصف بصاحبنا وتلوى، واذا بقمقه الأبالسة
تصل في أذنه وتدوى!» وفي موضع آخر يقول: «ما كان هذا النرام الا دواراً
كالذي يمتري راكب اليم، فيخيل له لمئات الفناء؛ فيقار اللجة الخضراء -
أمل من النور كذوب، وسراب من الباطل خداع!»

كذلك مضى صاحبنا لطيفه، وقد أخفى ما يتلظى في صدره من نيران

الوحد والكمد ، تحت ستار صفيق من الصمت والجلد ، يبدو لرائيه مثال
الدعة والسكون ، أو يتحدث لمحدثيه عن كل عادي من الشئون ، فلا يكاد يمر
في خاطر الناظر اليه أن جحافل من الآلام تصطرع تحت هذه السكينة ، وإن
جحيا من الأبراح يفور وراء هذه الطمأنينة ، اللهم الا من خلال النظرة ،
تبرق في عينه الفترة بعد الفترة ، فلا يدري إن كان هذا البريق لآئى دمة
متفرقة ، أو شواظ لوعة متحرقة . وإنا لنذكر هنا ، اعترافاً منا لكل ذى
فضل بفضل ، أن اقتدار المرء على أن يحرق بين الضلوع مادة أشجانه ، كما
يفعل بعض المداخن بدخان ، هو فضيلة وإن تكن سلبية ، الا أنها من أجل
الفضائل شأناً ، وأندرها في عصرنا هذا وجوداً .

يبد أننا لا ننكر أن الطريقة التي لجأ اليها الفتى من الضرب في مناكب
الآفاق لا تتحمل من مسحة جنون ومس ، فقد أخذ يمتسف مجاهل النبراء ،
ويتجشم العناء والوعاء ، على غير خطة مرسومة ، الى غير غاية معلومة ،
رائده الوحيد قلق هائم ، وقائده الفذ ضجر مستحکم . وانك لتجد في وصفه
لهذا العهد من حياته من فرط التشويش والاختلاط ، والارتباك والاختباط ،
ما يصور حالته النفسية يومذاك أصدق صورة ، وما يفادرنّا نحن من معالجة
مهمتنا في أصل حيرة . على أنا باذلون جهدنا في استخلاص ما نستطيع استخلاصه
من هذه القوضى .

فمن ذلك مثلاً أنا نجد العبارة الآتية ، بلا مقدمة ولا تمهيد : « شعور غريب
ذلك الذي يمتري المسافر ، وقد ارتقى قمة من القمم ، فإذا به يرى في بطن الوادي
بين الحائل والبساتين ، وفي أحضان المعازل الطبيعية والحصون ، مدينة من
المدن ، متضائلة على البعد كأنها صندوق من اللعب . عندئذ ينحيل الى الرأى

أن برج الكنيسة الفاهب في الهواء إن هو إلا أصبع مرفوعة ، وإن ذلك السراق المنمقد من الدخان إن هو إلا أنفاس الحياة . وكذلك النفس الآدمية لا تزال تخلع من وحدتها ثوباً من الوحدة على كل شيء ترنو إليه بعين المحبة ، فترى المدينة الحافلة ، وهي في ذاتها مجموعة من عديد الأكواخ والقصور ، تبدو لنا كأنها وحدة مندمجة ، بل كأنها شخص حي . ولكن ما هذا الشعور بجانب ما ينضم إليه من آلاف الخواطر ، إذا كانت هذه المدينة موطن أفراح لنا وأحزان ، ومرادفات لنا وأشجان ، إذا كان المهد الذي ترجحن فيه لا يزال قائماً هنالك ، وإذا كان أحبابنا الأحياء لا يزالون بيننا كنافها يندون و يروحون ، وأحبابنا الأموات في مضاجع ترابها ينامون « أترى صاحبنا وهو في فاتحة تجواله قد عاج بدافع الفريزة تلقاء مسقط رأسه ، شأن كل طريد شريد ، فألقي إليه نظرة على البعد ، حتى إذا تذكر أنه لن يجد هنالك معونة أنصرف هائماً على وجهه ؟

والظاهر أن متجهه كان يمدد إلى قفار الطبيعة كأنما راح يبتنى في أحضان هذه الأم الرؤوم شفاء لأبراحه ، ولبسها لجراحه ، وذلك حيث يقول : « لم يكن ذلك أول عهد الجبال . بيد أنه قلما رؤيت الجبال ، وقد اقترن فيها الجمال بالجلال ، كما في هذا المكان ، حيث الصخور مرصومة منضبة طبقات فوقها طبقات ، وهضبات من دونها هضبات ، في جفاء شكل وغلظة منظر ، ولكنه جفاء تطلقه من النضارة رقة غريبة ، وغلظة تآزجها من النضارة رشاقة عجيبة ، ترى الصخرة النبراء في هذا المناخ الخصب ، تطلع من تحت بساط الكلا القشيب ، في بردة سندسية ، وترى الأكواخ البيضاء ، في ظلال الأشجار اللفاء ، تجتمع كالمناقيد حول الجلامد السرمدية .

وهكذا تتعاقب الحلاوة والحزاة ، وتتناوب اللطافة والفخامة ، فيسير السائح على جواده في معابر مطردة خلال مخارم وبجاج ، تحترقها جداول متدافعة الأمواج ، وتكتنفها جدران من الصخر كالأبراج ، فأناير متمعجا بين فجوات مريدة فاغرة ، وأفناد من الجلود الكالح متناثرة ، وأنا يطلع على واد ناضر ريان ، قد التقت في ساحته الجداول والغدران ، فتألفت منها بحيرة فسيحة الرحاب ، على ضفافها الرطاب ، وجد الانسان مسكناً جميلاً ، وعيشاً رغداً وظلاً ظليلاً ، فكان السلام قد استقر في أحضان البأس ، وكان النعيم قد سكن في حمى القوة .

« ولكن هل يستطيع ابن الأيام ، أن يتطلع في دوامة هذه الحياة الى السلام ، وبخاصة اذا كان له من الماضي شبح مزعج لزام ، واذا كان المستقبل بأجمعه دجنة حمة الأشباح مرعبة الظلام ؟ كلا . بل لقد كان جديراً بالسائح الشريد أن يخاطب نفسه (أولم تغلق أبواب السعادة في وجهك حتى لقاء المنون ، وهل جال بخاطرك أمل ليس بطائش مجنون ؟) ولكن تقدم ، فلقد قال حكيم الأغريق : (من استطاع أن يرى الموت بعينه ، فلن يحفل من رؤية الخيال)

« عن هذه الأفكار وأمثالها من السوانح ، ينصرف ذهن السائح ، لأن الوادي ينتهي بفتة ، في هذه البقعة ، حيث يقاطعه طود مشمخر الافناد ، لاسيلى الى ارتقاء ثنيته على صهوة الجواد . فإيكاد يصل مترجلاً الى قته حتى يبرى نفسه قد ارتفع مرة أخرى الى ضوء الأصيل ، في منظر عجب ومسرح جليل : نجد واسع الاكفاف ، مترامى الأطراف ، تنحدر عنه المساليل والغدران ، وتتفرع منه الشهاب والوديان ، فتتصب في كل ناحية من الافق

انصبابا ، أو تنساب على المهل انسيابا ، ثم ترى تحت قدميك سلاسل الجبال
متراكبة الطبقات ، متراكمة الهضبات ، قد نجمت من هنا وهناك غاباتها السماء ،
كأنها تشرف على بطيخة ملساء ، ولاحت بين ثناياها البحيرات صافيات
الجمام في وهادها المطمئنة ، باردات النطاف في عزلتها المستكنة . وقد خلا
المسكن ، من كل أثر للإنسان ، اللهم الا أن كان هو الذي مهد ذلك الطريق
النافذ في صميم الصخر ، المقتحم لهذا الوعر ، كما يصل الملائق بين أطراف
البلاد ، ويعقد الروابط بين أشبات العباد . ولكن عد عن هذا وول وجهك
شطر مغرب الشمس ! فأية بهجة هنالك وبهاء ، وأية روعة ورواء ! يا لله كيف
تنهب تلك القنن في أعالي الفضاء ، وتسمو الى غنان السماء ، كأنها اكليل
هذا الاقليم الجبلى ، ومركز الدائرة لهذا المدرج الصخري ! مئات ومئات من
القمم الوحشية تبدو لعينك في أخريات ضوء الأصيل وهي تتوهج وتألتق
كأنما سال على جوانبها ذوب العقيان ، وقاضت على معاطفها حلل الارجوان ،
مائلة هنالك في البيداء كأنها عمارها الجبارة ، وملوكها المائلة ، وقائمة في
جلال الصمت والعزلة لا فرق بين منظرها في هذه المشية الساجية ،
ومنظرها ساعة انحسر عنها الطوفان في السنين الخالية . وكان في هذا المشهد
المتجلى لعين السائح بقتة ، من روائع الحسن وروائع الهيبة ، ما جعله يحرق
اليه بنظرة كلها اعجاب وطرب ، بل حينئذ ووله . والحق انه ما كان يدري
حتى الساعة ان الطبيعة كائن حي ، وانها أمه الرؤوم وأنها مظهر إلهي ! وبينما
كانت حمرة الشفق القانية ، تستحيل الى زرقة السماء الصافية ، وقد توارت
الشمس بالحجاب ، وارتدت حواشي السحاب ، أحس السائح همسا نديا ،
خفيا ، خفيا ، كأنه همس الأبدية واللا نهاية ، وكأنه حفيف الموت والحياة ،

ينساب في أعماق روحه ، ويسرى في شعاب نفسه ، فإذا به يشعر كأن الموت والحياة سيان ، وكأن الأرض ليست جثة هاملة ، وكأن روح الأرض قد استوت على عرشها البهي ، تجملت روحه تتاجها في ذلك الرواق السني .
« ومالبث الاقليل حتى أنجملت ذهبية النشوة بصوت عجلات قادمة .
فالتفت السائح ، فإذا عربات فاخرات ؛ تجرها صافنات مطهات ، طالعة من الشمال متجهة الى الجنوب . وكانت مزدانة بالزهر والريحان ، وكل الدلائل تشير الى أن وسطاهن تحمل زوجين على وشك الاقتران . فطوبى لهذين السعدين ! لقد وجد كل منهما أخاه وهذه ليلة قرانهما ! وما هي اللحظة حتى اقتربت مني عربة الروسين ، فيأله ماذا أرى ! المهر توجود وبجانبه ... من ؟ بلومين ! وحياتي الزوجان تحية يسيرة كتحية المتجاهل ومضيا لشأنهما ، واختفى المركب في ظلال الحائل وبطون الوديان ! الى أين ؟ الى الهناء والنعماء ! الى الحياة المشرقة والعيشة الخضراء ! اما أنا فبقيت وحيدا مع الظلاء ! »
من هذه اللحظة يبدأ على الحقيقة تجوال الاستاذ وتطوافه . اذ يظهر أن هذا الحادث - حادث التقائه بالزوجين - قد محق ما كان لا يزال كامنًا في صدره من بقية أمل ، فامسى لا قصد له ولا غرض ، وباتت الحياة في نظره متاهة مظلمة الأرجاء ، كتب عليه أن يقضي فيها السنين وهو يخبط العشواء بين أشباح تطارده من كل وجهة ، وعثرات تترصه في كل خطوة .
وهنا نستطيع القارئ عنرا اذا نحن أمسكنا عن متابعة الأستاذ في حله وترحاله ، وظلمته ومقامه ، فان أبسط وصف لهذه الرحلة الهوجاء لو كان شيء من ذلك بالمستطاع - خليق بان يملأ بطون المجلبات الضخام . بل حسبنا أن نثبت هنا الكلمة الآتية في بيان حاله النفسية : -

« وكان بي نوع غريب من القلق والهيام، يستحشي الى الامام، ويحدوني الى الأقدام. وكنت أجد في الحركة الجثمانية راحة وشفاء، ولكنهاراحة مكثوبة، وشفاسموقوت. أية غاية أنشد، وإلى أية كعبة أقصد؟ لقد انطلست من سائى نجوم الهدى، فلم أعد أبصر إلا أفقا متجهما. بيد أنى لا أجد بدا من التقدم، وكيف أجد لموطىء قدمى قرارا، والأرض تحثى أحمى من الرمضاء، في الهجيرة النكراء؟ وكنت وحيدا لأطمئن الى سكن، وغريبا لآانس بأليف، وكان ما يستلج في صدرى من النزاع الفخيل، وما يتسر في قلبى من الجوى والليل، لاني يصور لعين الضمير خيالات وأوهاما، لأتفك أهم في اثرها هياما، حتى اذا حسرتى الضنى وانكسرى الكلال، عدت أدراجى قائما من الغنية بخيبة الآمال. وكنت لأزال أشعر بأن هذا الغليل الذى يتحرق بين أصلاحي لا بد أن يكون له ينبوع شفاء ينقع أوارده، ويطفئ ناره، فكم كعبة حجبت، وكم مورد قصدت، من رجال عظام، ومدائن عظام، وحوادث عظام، التماس الدواء، وابتغاء الشفاء، فلا أجد ما يمس الغليل أو يبرئ الداء. رحلت الى الأنظار المجهولة، كما ظننت الى البلاد المعروفة، وأقت في الفياق الخلاء المتأبدة، كما تويت في الحواضر المكتظة الفاسدة، فلم أجد على اختلاف الاحوال فرقا، بل رأيت الأمر كله سواسية، وكيف ينجو الهارب من ظله، وابن الزمان من اجله؟ وهكذا كنت أجدنى في عجلة مرهقة، يسوقنى حاد خفى يسرع بي، الى أية غاية لأدرى! وانما كنت أسمع صوته من أعماق الفؤاد يصيح بي الى الامام! الى الامام! انهم ولقد يخيل الى أن الرياح والانهار، والاشجار والاطيار،

والطبيعة كلها تهتف بي الى الاملم ! الى الاملم ! فيا لله ما كل هذا ؟ حقا انى
ما زلت ابن الزمان ، ذلك الطائر المجلان !

« تسألنى كيف كنت أرزق ، ومم كنت أعيش ؟ فهل فاتك يا صاح أن
تعتبر هذه الارض الخشنة ، المغذية لجميع الأشياء ، أتراها تطعم العصفور
المتنقل بين الاغصان ؛ ثم تعجز عن اطعام ربيبها الانسان ؟ أبى الله أن تموت
نفس جو ما . امت تعيش وتعيش . الرزق والمعاش ! انك لاتدرى أى
كيمياء عجيبة ، وأية قدرة غريبة ، تكن في النفس الآدمية المبتدعة ،
وكيف تستطيع أناملها الدقيقة أن تخلق مايكفى من الغذاء لجسمها خلقا ، ثم
كيف تستطيع أن تخلق (لا بمجرد أناملها بل يجمع كفيها) خربا آخر من الغذاء :
أشباحا وأغوالا ، توسمها تمذيبا ونكالا ! »

وارحمنا لك أيها المسكين ، لقد كتب عليك أن تهيم على وجهك شريداً
يلازمك من الجوع أبض حليف ، ويطاردك من الموم جيش كثيف ،
فكأنما قضى عليك أن لا تنال نعمة الحرية إلا بمدان تكتب « قصة أحزانك »
على وجه البسيطة بمواظىء الاقدام ، كما كتب غيرك من قبل قصة أحزانه
على وجه القوطاس بمداد الاقلام . ولكن لا تيأس ، فقد دلت في عصر
راجت فيمسوق الأضاليل ، وتقشى فيه وباء الأباطيل ، فلا غرو أن تشعر
ررحك الفتية وقد شرعت تنبه حوالى المشرين بأن الدنيا بؤرة غش وبهتان ،
وبأن الحياة كلها خداع وبطلان ، لا يتاح فيها النجاح ، الا لكل كذاب
وقاح . ومن ثم قضت الضرورة ، على كل فنى بصيرة ، بأن ينفث لوعته ،
في الصورة التى تلائم طبيعته . فهذا « جونا » قد نقت في « أحزان ورتز »
همومه ، وهذا « بيرن » قد أفرغ في ديوان شعره سمومه ، وهذا « نابليون »

قد نفّس من كربه الكارب، بأسلوبه المائل الصاحب، في رواية غنائية موسيقاها قصف المدافع الداوية، وهذات القلاع المتداعية، وأتوار مسرحها لمع البوارق، وندران الحرائق، وأوزانها الموقعة أنين قتلى الممارك، ووقع زحف السنايك - فطوبى لمن استطاع كصاحبها الفيلسوف أن يكتب هذه المادة - اذ كان لابد من كتابتها - على صحيفة الرغام، بمواطىء الاقدام.

الفصل السابع

(استحكام اليأس)

وراء هذه الحجب الكثيفة التي تلتفع بها الاستاذ كان كيانه الروحاني لا محالة في حركة ونماء، وهل في هذا التيار الجوح - تيار الحياة - يستطيع ابن الزمن جموداً؟ لقد أبصرناه يمانى في ذلك المهد الغامض كربة حرجة، ويكابدازمة عسراء، فهل كان اضطرابه في الآفاق على غير هدى الاختمارا شديدا، بل غليانا عنيقا، كلما كان أشد وأقوى، كان ما يتمخض عنه من ثمرة وزبدة أنضج وأصفى؟

يبد أن أمثال هذه الازمات، تكون أبدا مفعمة بالالم المضيض، فالنسر اذ ينسلخ من ريشه يبيت هزبلا مدتها، ولا يتحدث منقارا جديدا حتى يحطم على الصخر منقاره القديم. فهما رأينا على ظاهر صاحبنا من تجلد واصطبار، فلا نزاع في أن جوفه كان يتهزم كالرجل بسورة الام وحي الشقاء. أو لم ير كل آماله في الحياة تصاب بالخيبة والاختفاق؟ أو لم ير الدهر الحقود قد أولع بالكيد له والسخرية منه، وأنى الا أن يحرمه كل ما تشبهه القلوب الصبية، ويمنعه كل ما تتلف عليه الأفئدة الفتية؟ بل لقد فعل به في

حادث الغرام ملهوش وأدهى ، اذ قدم له كأس النعيم ، حتى اذا صارت في يديه ، وأذناها من شفتيه ، لم يرعه إلا أن خطفها منه في لمح البصر . واذا كانت الحياة كما يقول الاستاذ قد بنيت على الامل ، واذا كانت الدنيا انما هى دار الامل ، واذا لم يكن للانسان فيها من قنية غير الامل ، فإذا بقى لصاحبنا بعد أن انكدرت من أفقه كواكب الآمال ، وتكاثفت حوله دياجير اليأس منذرة بكل مبيد من الصواعق ومبير من الانواء ؟

ويلاه ! ليت يأسه وقف عندا تقطاع الامل من هذه الحياة الدنيا ، ولم يتمدها الى الحياة الاخرى ! ليت وقد تداعى ايمانه بالمعجزة ، باتسليم الايمان بالآجلة ! ولكن الامر كان على غير ذلك ، فانه لما راح يتخبط في هذه الحياة الفانية ، أمسى وكأنه لم يسمع قط نبأ عن الحياة الباقية ، وذلك حيث يقول : « وجعلت ظلمات الشك تراكم حولى طبقة على طبقة ، وتراكب حجابا وراء حجاب ، حتى ألفت نفسي في غيب من الاحاد طامس الاعلام والصوى ، يكاد ظلامه يقطع بالمدى » فن كان من القراء قد فكر مليا فى أسرار الحياة ، وتبين لحسن حظه أن الروح ليست لفظا مرادفا للمعدة كما يدعى فلاسفة المادة ، وأنه لن يستقيم للانسان عيش ، ولن تنصلح له حال ، الا بفضيلة الايمان ، تلك التى بها يستطيع الشهداء أن يتحملوا آلام الصلب والفضيحة والعار ، وينيرها لايسع ابناء الدنيا ، وهم يتقلبون فى احضان الخفض ، الا أن يتقيثوا حياتهم الخليشة بالاتحار - أقول من كان هذا شأنه من القراء فهو خليق بان يرى فى انهيار العقيدة الدينية انهيار الحياة من أساسها .

وارحمنا لك أيها المسكين ! لقد كان كل ما أصاب فؤادك الكريم ، من جراح وكلوم ، خليقا بان يندمل ويبرأ ، ولم ينضب من قلبك بنضوب

إيمانك معين الحياة ، فلا جرم أن ترفع عقيرتك صارخاً وتقول : « أفلس
اذن في العالم آله ؟ أو كل ما هنالك على أكثر تقدير آله غائب ، قد جلس
خارج الكون منذ فرغ من إبداعه ، لا يعمل قط شيئاً سوى أن ينظر إليه
ويشاهد دوران أفلاكه على البعد ؟ أو ليس لكلمة الواجب من معنى ؟ أو ليس
الواجب رسولاً آلهياً ، ودليلاً سماوياً ، بل وهما كاذباً مزعوماً تصوره الخواس
الهبشية من رغبة ورهبة ، من وجل وأمل ؟ إيه أيها المتحدث عن ضميرك
المطمئن : ألم يبلغك أن بولص صاحب طرسوس ، وهو الذي رفعه الناس
إلى مراتب القديسين ، كان يشعر بأنه رأس الخاطئين ، وكبير المذنبين ،
أولم يبلغك أن نيرون صاحب رومه كان لازال مرحاً طروباً ، يقضي
أكثر أوقاته في استماع الألحان ، ومنازلة الحسان ؟ عبثاً ما تحاول
يا صاحب المنطق أن تستخرج بمناصر منطقك لباب الفضيلة من قشور
اللذة اثم ويل للناس إذا بات يشعر بأنه من أهل الحق والفضيلة ،
ويل له إذا بات يشعر بأنه ليس فريسة الألم فقط ، بل أيضاً فريسة الظلم .
ماذا تقول ؟ أهذا الالهام النبيل الذي ندعوه الفضيلة إن هو الا شهوة
حيوانية ، إن هو الا قوة دموية ؟ لست أدري ، ولكن الذي أدريه أنه إذا
كان ما ندعوه السعادة هو الغرض الحقيقي في هذه الحياة ، فكنا إذن ضالون .
واتنا اليوم لقي عصر مادي أهوال الضمير فيه لا تعد شيئاً مذكوراً بجانب
أمراض الكبد ، وجدير بالإنسان فيه أن يتمكن بفضل البلاد وجوداً لمضم
من مصادمة كثير من الصواب ، وتذليل كثير من العقاب . فلنبن محفلنا
الحصين لاعلى دعائم الاخلاق والسيكارم ، بل على قدور المطابخ ، ولستخذ من
المقالى مجارم محرق فيها البخور للشيطان ، ولهتنا ما يقدم لنا من شهى

الأطعمة ودم الألوان !

وكذلك نرى هذا الهائم الحيران ماثلاً بين يدي كيف الاقدار يستنطقها
عما أعجبت، ويستخبرها عما أضمرت، فلا يتلقى من الجواب الاصدى مردداً،
حتى كاد يسلم لليأس قياده، ويعتج للكفر قواؤه. ولكن حذار أيها القارئ
أن تحسب صاحبنا، على ما كان يفوه به من هذه الملافظ الموجاء، قد عاد
خبيثاً شريراً، فله ما كان في فترة من فترات حياته أشد رغبة في الخير،
وأصدق ولاء للحق، منه في تلك اللحظة التي شهدت شكفى كل شيء،
وارتيابه حتى في خالق الكون. وحسبك دليلاً على هذا قوله: « وأعجب ما في
الأمر أني، على ما كنت اعانى من برحاء الألم بسبب هذا البحث والتساؤل،
لم أزل اتقانى في محبة الحق، تقانياً، ولا غرو فلقد عقدت العزم على ان أنشد
الحق وأنصره، ولو صعدتني دونه صواعق السماء، وأن أطارد الباطل وأهزمه،
ولو حاول استمالتي بكل ما في الارض من ونماء»

ثم يستطرد الاستاذ فيقول في معرض وصف حالته النفسية يومذاك:
« ان ثمر ما ينتاب المرء من أليم الاحساسات احساسه بالضعف، او كما قال
ملتون شاعر الانجليز (مارأيت كالمجز شقاء) بيدانه لاسبيل الى احساس
المرء بقوته الا من طريق ما يباشر من عمل وما يطلع فيه من سعى، فان بونا
شاسماً بين القدرة السكمنة الغامضة وبين العمل البين الصريح. والواقع ان
في كل امرئ منا شعوراً بنفسه، ولكنه شعور مبهم أبكم، لاسبيل الى
ايضاحه واتطافه بالاعمال. فالاعمال هي المرايا التي ينظر فيها المرء نفسه
ويتعرف قدره. ومن ثم كان قول القائل (اعرف قدر نفسك) هو كلمة حقاً
ومطلب مستحيل، ما لم يؤول معناه بما هو ممكن نوماً أعني (اعرف ما نستطيع

معله) . غير أنى لسوء حظى كنت حتى تلك الساعة لم اصادف فى كل ما باشرت من عمل ومسعى غير الخيبة والفشل ، وكنت اذا تأملت نتيجة اعمالى كلها وجدتها صفرا ، فكيف كان لى ان أومن بنفسى ، وليس فى يدى مرآة ترىنيها . ولطالما كنت أسائل نفسى قائلاً : اتراك قد أوتيت من الفضل والقدرة ما لم يؤت احد سواك ، أم انت أغبي من اقلته الغبراء ، وأسخط من اظلمته الخضراء ؟ ويلاه ان شر ضروب الكفر كفر المرء بنفسه ، وهل كان لى من سبيل الى الايمان بنفسى ؟ ألم أشاهد أول ايمان بها - يوم تفتحت ابواب السماء بين يدى ، ونزلت آية الحب بين جنبي - ألم أشاهد هذا الايمان الاول يتصوح وينوى ، كما تجف الزهرة فى لفحة السموم ! ألم أجد نفسى محفوقاً من هذا الكون بسر لا يزداد على كراياهم الا العازا واستجماما ، واستخفاء واستهماما ؟ هل كنت فى هذا العالم الهائل المخوف الا ذرة عاجزة لم ترزق من أسباب القوة الا أعيناً تبصر بها فاضح عجزها ، وفادح شقاها ؟ لقد كنت أشعر بان أسواراً منيعة ، ولكنها خفية ، تفصل بينى وبين الأحياء أجمعين ، وكنت أسائل نفسى : هل فى هذه الأرض ، ذات الطول والعرض ، صدر واحد خنون أضمه الى صدرى ؟ فيصمد الى الجواب من قرارة نفسى قائلاً : كلا ! وكذلك لبنت كثيراً واجماً ، واضعاً على شفتى قفلاً محكماً . وأية حاجة كانت لى الى التحدث لاولئك المتلونين التذبذبيين المتسمين بالاخوان ، وهم لا يعرفون الصداقة الا حديث خرافة ، ولا يؤمنون بالوفاء ، الا كإيمانهم بأساطير القدماء ؟ تلك أيام أذكرها الآن فأعجب المعبج كله للعزلة التى كنت فيها . كنت لا أرى فيمن يطيفون لى ، بل وفيمن يتحدثون لى ، من رجال ونساء ، الا مجرد صور وأشباح ، لا تجول فيها أرواح ، وانما هى

آلات متحركة أسير وسطها في الطرقات ، وأخالطها في المنتديات ، وحيداً فريداً ، قد تملكني نفور وحش كاللث في غابه ، وكالنمر في شعابه .
« وكذلك مرت الأعوام المتطاولة وكأني احتضر احتضاراً بطيئاً .
لا تنزل على قلبي من السماء قطرة ندى ، بل تطلني بين جوانحي جمرات الجوى .
وكان شئون الدمع جفت في جفوني ، فلم أعد منذ عهد صباي أجد في مدامعي من العبرات ، ما عساه يطق بعض هذه الجمرات . وكأني أقفر فؤادي من الامال جملة ، كذلك أقفر من المخاوف المعينة جملة . فلم أعد أرهب إنساناً أو شيطاناً ، بل كان يخيل إلي أني قد أجد بعض العزاء لو أن كبير الأبالسة طلع على بأهواله حتى أبته بعض همومي ، وأفضى إليه بحديث شجوني . ولكن المدهش العجيب اني مع تخلصي من كل خوف معين ، كنت لا أزال أشعر بخوف غامض مبهم ، يملأ روحي ، ويرجف ضلوعي ، لا أدري من أي شيء بعينه . بل كان يوم الي أن كل شيء فوق في السماء ، وكل شيء تحتي في الارض ، وشك أن يوقع بي مكروهاً ، كأن السماوات العلى والارض السفلى ، قد انقلبت كلها فسكى وحش هائل يوشك أن ينشب في أنيابه المذروبة ، ويلتهمني في أحشائه الرغبية .

« في ذات يوم وتلك حالتي وهذا شعوري كنت أجوب شوارع باريس في هجيرة مسجورة الرمضاء ، إذ خطر ببالى خاطر على حين غرة ، فانشأت أسائل نفسي : (ما هذا الخوف الذى يقض وسادك ، وما هذا الجبن الذى ينخب فؤادك ؟ أى شيء تخشى أيها الاحق ، وما عسى ان يكون شر ما يترقبك في هذا الوجود ؟ أليس هو الموت وآلام الجحيم ، وكل ما يستطيع انسان أو شيطان أن يزل بك من مكروه ؟ وأى شيء هذا ؟ أولم توت قلباً فيه صبر

وجلد ، وشجاعة وشمم ، أو ليس في استطاعتك أن تصبر على البلوى وإن عظمت ، وأن تحتمل المكروه وإن فدحت ؟ أو ليس في مقدورك وأنت من أبناء الحرية أن تنوس الجحيم بقدميك ، وناره ترعى بين جنبيك ؟ ليأت القضاء بما قضي ، فها أنا ذا متأهب لتلقيه ، متحفز لتحديه ! »

« وبيننا هذه الخواطر تدور في خلدي شعرت كأن صيما من النار قد غمر كياني ، وإذا بي قد نفضت عني إلى الأبد مقيت الخوف ، ورحت أشعر بقوة عجيبة ، بقوة مجهولة ، كأني روح مطلق ، بل كأني إله قدير . ومن ذلك الحين تغير إحساسي بالشقاء عن سالف عهده ، فاستبدلت بخوف الرعديد الجبان ، وحزن الممول الأتأن ، غضبا مقدسا ناريا ، وإباء اشم حيا ! »

« في تلك اللحظة كان ميلادي الروحاني ، أو قل تميدي الناري ، ومنذ تلك اللحظة بدأت أشعر بأنني أصبحت رجلا ؟ »

الفصل الثامن

في سبيل الشفاء

لا يحبسن القاريء أن ما يدعو الاستاذ ميلاده الروحاني أو تميده الناري كان غاتة مطافه . وكيف ذلك وقد أصبح حليفه الغضب والاباء ، وما هما بجليقي راحة ولا بجليسي صفاء . بيد أن اضطرابه لم يعد ، كما كان ، اضطراب اليأس الحائر المذهول ، بل أصبح وله على الأقل قطب ثابت يدور عليه ، وأضحى الفتى يلح في الحياة معنى ظاهرا يرتاح اليه . أجل ان الروح

التي طالما لفحتها لوافح الألم وعصفت بها عواصف الشقاء قد اخذت تشعر بحريتها ، قد اقتحمت حصن مملكتها عنوة واقتداراً ، وستبقى معتممة به لا يستطيع أحد اجلاءها عنه . وما دام الامر كذلك فلا نزاع في أنها سوف توفق على التدرج - بالجهد العنيف طبعاً - الى انتزاع ما بقي من الاستحكامات الخارجية ، والمخاوف الامامية . أو قل ببسارة اخرى ان الشيطان الذي كان يسكن قلبه قد تلقى حكماً لا يقبل معارضة ولا استثناء ولا نقضاً باخلاء المسكن ، وائن لم يكن قد أحلّاه بالفعل فقد بليت اخلاؤه أمر أمقضيًا ، ليس منه مفر معها علت صرخاته ولعناته ، ومهما اشتدت تحبطاته واضطر اباته .

والواقع أن صاحبنا قد شرع يفيق من غمرته ، وينصرف عن التحديق في أعماقه الباطنية الى تأمل المراتب الخارجية ، وبدأ يقلع عن التهام أجزاء نفسه ويتزعم من الاشياء المحيطة به طعاماً أصح وأشهى ، وذلك حيث يقول : « وكان من أوقع المناظر في نفسي وأشرحها لصدرى رؤية الحواضر والمدن ، لاسمى القديمة الثالثة ، كأنها دهاليز طويلة تطلع العين من خلالها في أعماق القدم ، بل كأنها قطع ملموسة من الماضي البعيد ، تأدت سليمة موفورة الى الحاضر القريب ، فوضعت بين أيدينا تتأمل في روعتها وتغلو العيون من جلالها ! هنالك في تلك المدينة القديمة أشعلت لأول مرة منذ النى عام أو قبل ذلك نيران المطابخ ، فا برحت مشعلة متوقدة تحشى بما يلجلب لها من وقود حتى لترى الساعة بعيني رأسك دخانها المتصاعد . نم وهنالك في ذلك الوقت بعينه وضعت أيضاً تلك الجرة المتوقدة العجيبة : جرة الحياة ، فا برحت حتى اليوم متوهجة متأججة ، يتصاعد دخانها (من قاعات المحاكم) ويتراكم رمادها (في قبور المدافن) وتذكىها منافئخها (من المعابد

والكنائس) ، أجل ولا يزال لهيها يطالمك من كل وجه كريم ، وكل وجه كريمة ، فيدفعك صلاة ، أو يلحفك لظاه !

« إن أجل الثمرات التي يمنحها الانسان من سميه ونجاحه إن هي إلا أشياء هوائية ، روحانية معنوية ، محفوفة في التقاليد المتوارثة دون سواها . فمن ذلك أشكال حكوماته وما ترتكز عليه من سلطان ، ومن ذلك عاداته ومواضعه ، وشرائعه وقوانينه ، ومن ذلك مجموع ذخيرته التي استفادها من معالجة الطبيعة والتي يدعوها الحرف والصنائع . كل هذه الاشياء ، على نقاسة قيمتها وشدة ضرورتها ، هي بما لا يستطاع حفظه في الاحراز ، وصونه وراء الاعلاق والاقفال ، بل لا بد أن تسري كالطيف على أجنحة الهواء ، من الآباء للابناء . فإذا حاولت أن تنظرها بطرفك ، أو تلمسها بكفك ، لم تجد لها أثراً في مكان . صحيح أنك واجد من شئت من زراع ومعدنين وصناع ، وكلهم يلعبون باليد لئلا ، ويروؤن بالعين رأياً ، ولكن أين مستودع المهارة المتراكمة منذ أقدم القدم ، من زراعية ومعدنية وصناعية ؟ انها شيء لا يحصر في مكان ، انها شيء مشاع ، ينتقل على متن الهواء والشعاع ، بواسطة الابصار والاسماع ، انها شيء هوائي معنوي روحاني . كذلك لا تسأل أين القانون ؟ أين الحكومة ؟ فبئنا ما تذهب الى (دوننج ستريت)^(١) والى (سراي بوربون)^(٢) فما أنت واجد هنالك إلا ابنية من الطوب والحجر ، والااضايير من الورق . اذن أين ما يحددوننا عنه من تلك الحكومات الدقيقة التركيب المتقنة الوضع ؟ هي في كل مكان وهي ليست في أي مكان ،

(١) مقر الحكومة الانجليزية في لندن (٢) مقر الحكومة الفرنسية في باريس

هى لا ترى الابعمالها وآثارها - انها أيضا شىء هوائى روحانى . ألم أقل
لك ان حياتنا المادية اليومية هى كلها شىء روحانى ، وان كل ما فعله
يخرج من أعماق الروح الباطنية ، وأغوار القوة الخفية ، وان هذا الواقع
المشهود ان هو إلا مسجاة ضئيلة تنشأ من محيط الغيب العظيم .

« على أن ما يلمس ويحس من نتائج الماضى لا يتعدى فى نظري ثلاثة
أضرب (أولا) المدن بقصورها ومصانعها (ثانيا) الحقول المزروعة وإلى
هذه أو تلك أو إلى كليهما معا تنتمى الطرق والجسور ، (ثالثا) الكتب .
يبد أن هذا الضرب الأخير وهو أحدث الثلاثة عهدا ، يتازع عن الاولين
بميزة ترفعه عنها جدا . ولعمرك الحق ما أبدع وما أعجب شأن الكتب القيم ،
الكتاب الذى يستحق أن يسمى كتابا ! فاهو كالدنية الجامدة المبنية من
حجر وطوب لا يزال البلى يلح عليها كل عام ، ولا تزال تحتاج إلى الترميم فى
كل عام ، بل هو أشبه بحقل مزروع ، ولكنه حقل روحانى ، أو قل هو
أشبه بشجرة روحانية ، ماثلة فى جلالها عاما بعد عام ، بل جيلا بعد جيل ،
أو ليس عندنا من الكتب ما يعد عمره بالآلاف من السنين ؟ ولا تزال
تؤتيك فى كل حول محصولها من الورق الجديد (ما بين شروح وتعليقات
وحواش وتفسيرات ورسائل ومقالات) وكل ورقة منها لها فضيلتها السحرية
وقوتها الخفية لأنها تستطيع اقناع الانسان . ايه يا من تستطيع أن تكتب
كتابا - وذلك ما لا يتأتى إلا لبعض النوابغ كل قرن أو قرنين - لا تحسدن
الذى يدعونه بأنى المدن ومعمرها ، وارحم من صميم قلبك ذلك الذى يدعونه
فاتح المدن أو مدمرها ، أنت أيضا فاتح مظفر وغار منتصر ، ولكنك من
الغزاة المصدقين والفاطمحين الفاضلين ، لان اتصارك ما كان على أخيك الانسان

بل على عدوك الشيطان ، أنت أيضا قد بنيت ما سوف يودى بمشيدات
المرمر والصوان ، والحديد والصرقان ، وما سوف يبقى علي الهرم مدينة
للمقول عامرة ، وكعبة للأنهان طاهرة ، حافلة بالمجائب والدجرات ، يحج
اليها بنو البشر من كل عشيرة وقبيل ، في كل عصر وجيل . - أيها الاحق
علام تمناني وعشاء السفر لمشاهدة اهرام الجيزة أو - سقارة ؟ ماذا أنت مستفيد
من رؤية اطلال ماثلة في انبيداه ذاهلة جامدة ، قد مضى عليها ثلاثة آلاف
من الاعوام وهي تنو إلى الصحراء سادرة سامدة ! أوليس في استطاعتك
أن تفعل ما هو خير وأفضل : ان تفتح انجيلك المنزل ! »

وهالك مثالا آخر يدلك على أن تيوفلسدروخ شرع يندى نفسه؛ ويذكر
ملحوله ، وذلك حيث يقول في وصف ميدان بعض المارك ، ولعلها مركة
« واجرام » التي انتصر فيها نابليون على امبراطور النمسا :-

« يا للشناعة والفظاعة ! ميدان واسع الاطراف ، متباعد الأكنف ،
مكتظ القناء بشظايا القنابل ، وخراطيش البنادق ، وحطام العربات ، ورفات
الانسان والحيوان . ثم ماهذه الكيان المدمنة القاذية ؟ انها اصداق الابدان
انتزعت منها درر الارواح ، والقيت هنالك كأنها قيض منقاض ؛ هل كانت
الطبيعة يوم أمرت هذا التهر المتدفق أن يحمل من شواحق الجبال أوسق
الطمي ، وينشرها هنا على بساط هذا السهل السوي . هل كانت الطبيعة
أرادت بك ايها الميدان أن تكون - قنلا يخرج لأبنائها من البشر الثمرات
والخيرات ، أم مذبحا في ساحته يجندلون ، قمرق منهم الدماء ، وتمزق الاشلاء ؟
وهل كانت هذه المهاليع الثلاثة التي تلتقي فيك من أطراف أوروبا قد جعلت
لعربات الاخيرة ؟ وهل كن ما أراه . متبنا في أنفاسك من القري والمساكر

ماهى إلا حصون لآل هابسبرج ومعاقل ، يضربون منها ويضربون فيها بالمدافع ، أشد ماشوه وجهك أيها السهل الأنيق ! زروع مقلعة ذلوية ، ويوت محرقة خاوية ، وخمائل أصبحت قذى العيون بعد أن كانت قرتها ، وشجى النفوس بعد أن كانت بهجتها ، تملأ الخياشيم بروائح الجيف والبارود ، بعد أن كانت تحيي الانوف بنفحات الورد ، وحقول أصبحت مستودع المجامع والأوصال ، بعد أن كانت منابت الثمار والفلال - بيد ان الطبيعة لا تقتر لها حمة ، وما كان الانسان مهما أسرف في الشر يستطيع أن يفسد عليها خطة ، فكل هذه الجيف وكل هذه الدماء لا تلبث أن تختفي وتستحيل سدا ، ولن يحول الحول حتى ترى هذا الميدان قد عاد كمهد بل أزهى ربي وأنضروهاذا ! ليه أيتها الطبيعة المجتهدة ! تقتصد ، يامن لا يدب اليك الملل ، ولا يفت في ساعدك الكلال ، ويامن لا تترائين تخرجين من الشر خيراً ، ومن النكر عرفاً - حدثيني كيف تسنخلصين حتى من جيفة الميت ، حياة للحى ؟

« دعونا نتكلم باللغة غير الرسمية : ماهي نتيجة الصافية للحرب ؟ إلى أعرف مثلاً أنه يسكن ويكدح في قرية « دمبردج » الانجليزية حوالى خمسمائة نسمة في العادة ، يختار منهم كل عام ، ما دامت الحرب الفرنسية مستمرة ، نحو ثلاثين رجلاً أشدها الابدان . هؤلاء الثلاثون قد تولت « دمبردج » رضاعتهم وحضائهم على نفقتها ، وما برحت تتحصل الآلام والمشاق في سبيل تربيتهم وتغذيتهم حتى باتوا رجالاً أصفاء اقوياء ، بل لقد تكفلت فوق ذلك بتدريبهم على مختلف الحرف والمهن ، فأصبح هذانساجا وذلك حداداً وذلك بناء وهلم جرا . واسكن بالرغم من كل هذا يصدر الأمر بتعبئتهم ، فيؤخذون وسط الدويل والبكاء ، ويلبسون اكسية حمراء ،

ثم يرحلون على نفقة الخزانة العامة الى جنوب اسبانيا ، وهناك يظلون
يطعمون حتى تمس الحاجة اليهم . في أثناء ذلك يكون ثلاثون صانعاً فرنسياً
ممن اخذوا بنفس تلك الطريقة من بعض قرى فرنسا متجهين هم ايضا الى
جنوب اسبانيا ، حتى يتلاقى الفريقان بعد العناء المعنى والجهد الجميد ، فيقف
الثلاثون تلقاء الثلاثين وفي يد كل منهم بندقته . هنالك يصدر الامر بضرب
النار ، فاذا بكل فريق يهدر ارواح الفريق الآخر ، واذا بنا نجد بين ايدينا
بدل الستين من مهرة الصناعات ، ستين جثة هامة يتعين علينا ان نوارىها ،
وعلى أهلها ان تبكيها ! ليت شعري هل كان بين الفريقين عداوة أو
شحناء ؟ يعلم الله أنه ما كان بينهما قط شيئاً . لقد كان كلاهما يعيش على بعد
شاسع من الآخر ، وكان كلاهما عن صاحبه غريباً اجنبياً ، بل من يدري
فلعله في هذا العالم الواسع العريض كانت بينهما - من حيث لا يشعران -
شيء من المعاونة المتبادلة عن طريق التجارة . اذن فعلام هذا التناحر ؟ أيها
الآله ألا تدرى أن حكومتيهما قد تشاحتا ، فبدلاً من أن تتقاتلا احتالتا
على هؤلاء الاغنياء المساكين فتقاتلوا عنهما . ويلاه تلك هي الحال في جميع
البلدان ، وكذلك كانت في جميع الأزمان - صحيح أن احد كتاب الانجيل
تنبأ في بعض رواياته بزوال الحروب ، فصور لنا صاحب الشأن المباشر في
الشحناء ، يتزلان بنفسيهما الى ميدان اللقاء ، وقد امسك كل منهما متبقة
مملوءة بالكبريت ، فيشعلها ويظل ينفخ في وجه خصمه حتى يستسلم
أحدهما لقرنه . ولكن الى ان يحين هذا العصر السلمى المتنبأ به اى قرون
حموية لا بد ان تنقضى ، واى اجيال حربية لا بد ان تمر ؟
والظاهر ان هذه الفترة من حياة الامتياز كانت من حيث تهذيبه

أرواحاني من أبرك أيام عمره وأخصبها ، فاما باطنا فقد كانت عملية التفكير جارية مستمرة يساعده على اجرائها ميله الى السير على قدميه ، وأما ظاهراً فقد كان في تطوافه يجد الكفاية من المناظر لمينه ، وإن كان لا يجد الكفاية من السلوة لقلبه ، وذلك حيث يقول : -

« لقد قرأت في أكثر المكاتب العمومية ، غير مستثنى مكتبتي الاستانة وسمرقند . وكنت أتلقى اللغات الاجنبية من مستودعها الطبيعي- الهواء ، بواسطة حاسة السمع . كذلك كانت الاحصائيات والجغرافيات والطوبوغرافيات تأتي الى عفواً من خلال العين . فاساليب الانسان يختلف البلدان في تحصيل القوت والدفع والوقاية - كل هذا قد تعلمته بالمشاهدة . أما عما رأيته من المناظر الجليدة فحدث ولا حرج . لقد جلست تحت نخيل تدمر ، وقضيت يوماً بين أطلان بابل ، وشاهدت بعيني رأسي سور المغول الاعظم .

« وأما عظماء الرجال فما زلت أشعر من صميم قلبي بانجذاب اليهم ، واني لأفخر بان قليلا من المعاصرين لي منهم قد فانتني محادثته أو مشاهدته . وما عظماء الرجال الا المتون الملهمة لذلك السفر المقدس الذي تكتب منه سورة في كل حقبة والذي يدعوهم بعضهم : التاريخ . أما من عدا اولئك العظماء ، من غمار الناس والدهماء ، فهم لتلك المتون الملهمة حواش وتعليقات ، وشروح وتفسيرات . وما كنت لاجعل موضع بحثي ودراستي الا المتون نفسها . أو لم أقف متذكراً في زى خادم فندق بين يدي الشاعر العظيم « شيلر » والشاعر الاعظم منه « جوتا » مستمعاً من حديثهما ما لن أنساه آخر الدهر »

وهنا نجس القلم عن ذكر الشيء الكثير مما يدعونا الحذر الى كتمانها

فما حسن بنا أن نهتك الستار ، عن أسرار الكبار . بيد أننا إذا رأينا فيما بعد أن الظروف قد تغيرت وأن الوقت قد حان للنشر فعمد لا نقض على القراء بهذه النظرات المختلصة في دخائل الكبراء . أما الآن فليعذرنا القاريء إذا نحن لم نذكر قط شيئاً عن علاقة الأستاذ باللورد بيرون والبابا ييوس والامبراطور تارا كوانج وغيرهم من مشاهير مصر . كذلك لن نذكر عن علاقته بنايليون إلا أنها كانت جد متقلبة . ففي أول الامر كاد الأستاذ المسكين يضرب بالرصاص على أنه جاسوس ، وبعدئذ أدنى مكانه وأدخل في حظيرة الانس ، حيث لقي شيئاً من الملاحظة وإن لم ينفع بشيء من المال . وأخيراً طرد أشنع طردة على أنه خيالي ، تطرف . وهنا يقول الأستاذ « لله أبوه ! وهل كان هو الآخر الاخيالياً من أدنى غلاة الخياليين ؟ هل كان يعش ويحبش ، ويناضل ويقاتل ، الا في الفكرة ، الا في الخيال ؟ لقد كان هذا الرجل - من حيث لا يشمر - مبشراً ألهياً ، كان يعلن بحجزة المدفع ذلك المبدأ الخطير الذي فيه يتلخص انجيلنا السياسي ، وعليه وحده يمكن أن يقوم صرح الحرية : أعني « القوس لباريها والدولة لحا . بها » صحيح أنه كان يبشر بلسان غير مفصّل ولا مبين ، وأنه كان يخلط بتبشيره كثير من التهذر والهذاء ، والتخبط والهراء شأن جميع التحسين المتعصبين ، والمبشرين الاولين ، بيد أنه كان يبشر على كل حال بأقصى ما يحتمله موقفه من بيان ، أو قل أنه كان كاحد الامريكانيين الاول قطع الغابات ، يزيل عن وجه ائرى الغياض والادغال ، ويطارد الالوف من الوحوش والذئاب ، وأتى الحين بعد الحين مائسؤه له نفسه من سكر وعريدة وسرقة ، ولكنه يقوم بعمل لازم نافع سوف يباركه من يأتي بعده من الزراع وهم يحنون حصائد الحقول الواسعة ، وثمار الحدائق الياينة . »

ولكن أعجب من كل ما تقدم ظهور تيوفلسدروخ على حين غرة في
 مجاهل الأقاليم الشمالية ، إحدى ليالي يونية ، وذلك حيث يقول :

« سكون كسكون الموت فإن نصف الليل لا يعلم ، حتى في الأقاليم
 القطبية ، خاصيته من السكون الرهيب ، والجلال المهيب . ثم ترى الصخور
 البلاء ، وردية حمراء ، وتسمع خريرا ناعما نديا لتلك المحيط الشمالى البطىء ،
 الخفقان ، وتلمح الشمس فى حاشية الأفق معلقة ، وطفاء مكسال مرتقة ،
 كأنها هى الأخرى فى سنة الكرى مستغرقة ، ولكن على فراش وثير ،
 من الصير ، مصبوغ بالأرجوان ، ومرصع بالعقيان ، وقد انصبت أنوارها
 على مرآة الماء ، كعمود من الذار مرتش الللاء ، ينفذ الى قاع الهاوية ، ثم
 يمتد تحت قصى أغوارها الداجية ! فى مثل هذه اللحظات تكون للوحدة
 قيمة لا تقوم ، فمن ذا الذى يستطيع احتمال تشويش المشوشين ، بل من ذا
 الذى يستطيع احتمال نظرات الناظرين ، حينما يكون وراءه سكان نصف الكرة
 الأرضية وكلهم ، ماعدا الجراس ، قد ركبهم شديد النعاس ، وامامه الانهاية .
 الصامته وقصر الأزلية الجليل ، حيث شمسنا الباهرة إنهى الاقنديل كليل ؟
 » يدأنى فى هذه اللحظة الرهية أرى رجلا بل وحشا يطلع على من
 فجوات الصخور ، اغبر اشمث ، هائل الجثمان كأنه دب الشمال ، وأقبل يحينى
 بالرومية ، فلعله بعض المحترفين بهريب البضائع فى تلكم الأثناء . فاجبته
 فى رفق وإيجاز بأنى رجل لاشأن لى بهريب السلع ، وأنى لأقصد به سوءا ،
 ولا أنوى لاحد شرا . عبثا ما أقول ، فإن الوحش لم يزل يتقدم الى معتدنا
 ولاشك على ضخامة جرمه ، ومصمما على أن يستفيد منى مطربا أو مكسبا ،
 ولو تذرع بالقتل الى غايته . وكذلك ما برح يدنو الى ، هاجما على بانفاس تقوح

منها راحة الشحم ، حتى صار كلانا على شفا الصخرة والبحر العميق يزخر
تحتنا شره العباب ، نهم الحباب ! أية أدلة عقلية وبراهين منطقية تنفع مع
هذا الهمجي الجاني ، بل الوحش الضاري ؟ فلمرى لوان خاطبته بلسان الكرام
المطهرين ، واستعطفته بكلام الملائكة المقربين ، لذهبت مقالتي أذراج الرياح.
ولكنى كنت أعددت لمثل هذا الموقف عدتي ، واتخذت له أهبتى ، فتنحيت
قليلا بحفة وسرعة ، وأخرجت من حقيقتي مسدسا وجهت فوهته اليه
قائلا « تفضل يا صاحبي بالانسحاب وتسرع ! » ففهم الوحش هذه اللغة ، ولم
تكن الالحة الطرف حتى ولى ينحدر بين الصخور ، وكأنه يمتد الى مهمته .
« هذه فى نظرى هى الفائدة الحقيقية للبارود ! اعنى أنه يسوى بين
الناس جميعا فى العرض والطول ، بل اذا كنت أنت أوسع منى حيلة وأربط
جأشا ، اذا كان عقلك أرجح من عقلى ، فأنت الأطول والأعرض ، وأنت
الأقدر على قتلى منى على قتلك ، ولو كان جسمك النهاية الصغرى فى الضآلة .
أجل بواسطة البارود أصبح جاوت موهون الأسر مفسوخ القوة ، وأصبح
داود مرهوب البطش مخوف السطوة ، صارت الحيوانية المتوحشة لاشيء ،
والروحانية المبدعة كل شيء ! »

ولننظر الآن بعدما أوردنا هذه التفاصيل والجزئيات الى غرضنا الكلى
من هذا البحث ، نمنى ماذا كان يجرى فى أعماق الاستاذ الباطنية تحت تلك
التطورات الخارجية . لقد كانت كل الدلائل تبشر بالخير ، وكانت كل الاعراض
تؤذن بالشفاء . ولا غرو فان التجارب هى الطيب الروحاني الأعظم ، وقد
لبث تيوفلسدورخ بين يدي هذا الطيب أمدا مديدا يتعاطى ما يتعاطى من
المقاير المرة ، ويتلع ما يتلع من البلايع الكريهة . فان لم يكن صاحبنا

المسكين أحد أولئك النفر المديدين الذين لا ينفع فيهم دواء ، ولا يرجى لهم شفاء - وهو ما نراه من المستبعد - فلا ريب في أنه سوف يتمائل ويشقى . وحسبك أن تسمع ما يقوله في هذا الصدد عن نفسه : -

«وأخيراً بعد طول الاحتراق أصبحت ، اذا صح التمثيل ، متكلساً لم تحب في شملة الحياة ، ولكنها صفت وبقية كامنة . لست أقول ان الشقاء لم يعد شقاء ، ولكني أصبحت أستطيع النظر من خلاله وازدراءه . أى عظيم من العظماء ، في هذا الوجود الفناء ، الأرائته اما طارد وهموما طريده ؟ لقد رفض القضاء كل رغبة من رغباتي ، ولكن ماذا كنت صانعا لوانه بلغني أقصى مراحي ؟ أو لم أر الى النلام المقدوني يبكي ويتحبب لانه لم يسط نظاما شمسيا يفتحه ، بل عالما بحذافيره يدوخه ؟ رحماك اللهم ! اني لاحدق في كواكب السماء ، فكأنها تنرو الى من أعماق اجوائها الزرقاء ، بنظرات ملؤها الرحمة والرائه ، حتى لأخالها أعينا تتلألأ في احداقها دموع الشفقة والحنان ، لضاللة حظ الانسان ! الوف من الاجيال ، لا تقل عن جيلنا هذا صخباً ولجبا ، قد ابتلمتها لجة الايام ، ولم يبق منها حتى الحطام ، وهذه النجوم الودية لا تزال تسبح في أفلاكها مشرقة سنية ، صافية فتية ، كما رآها الراعي لأول مرة في سهل شينار ! ضلة لك ! ما هذا الوجار الصغير الحقير الذي يدعونه الارض ؟ ومن أنت أيها الجالس في معمولا با كيا ؟ انك لاثىء ! صحيح هذا ولكن من هو الئىء ؟ انك من آل آدم منبوذ ، انك عضو مبتور ! وليكن ذلك فطه خير لي وأبقى . » وراح لك أيها المسكين ! لشد ما ينقض العبد ظهرك ، ولكن الا ترى أنه قد شرع يفك قيوده ، ولن يلبث حتى يطرح العبد عن كاهله ويشب حرا طليقا بمجد الشباب .

الفصل التاسع

انبلاج الأمل

« المحنة في البرية ! ومن ذا الذي منا لم يمتحن هذا الامتحان ؟ إن آدم القديم ، المستقر بالوراثة من قلوب أبنائه في الصميم ، لا يمكن ازعاجه بغير جهاد وجلاد . وحياتنا هذه محاطة بنطاق من الضرورة ، ولكنها في جوهرها نقعة من الحرية ، من القوة الاختيارية ، ومن ثم لم يكن بد من أن نعيش في صراع يكون في مبدئه عنيقا قاسيا . ذلك بأن الوصية الالهية (اعمل الخير واصنع المعروف) مكتوبة بحروف من نار على صفحات قلوبنا لا تدع لنا راحة ولا قرارا ، ليلا أو نهارا ، حتى نوفق إلى قراءتها واطاعتها وحتى نتجلى في أفعالنا شريعة نافذة وناموسا مطاعا . وبما أن الوصية الارضية (اطعم نفسك واملا بطنك) لا تزال في الوقت عينه تادينا من كل جوارحنا وتهيب بنا من جميع أعصابنا ، فلا مندوحة من احتدام النزاع حتى يتغلب النفوذ السماوى على النفوذ الارضى .

« واذا كان ذلك كذلك فأى شئ هو أليق بالانسان حينما يهتف به لاول مرة صوت الداعى السماوى ويتعين عليه أن يكفح الحما المسنون فلما أخضعه . واما خضع له - أى شئ أليق حينئذ بالانسان من أن ينتبذ في اليبداء مكانا قصيا ، وهنالك يتحدى المضلل ويصارع أشد صراع ، حتى ينهزم ويولى الادبار ؟ سم الامر كما نشاء ، فسواء أكان الذى يصارعنا شيطانا منظورا أم لم

يكن ، وسواء أكان الصراع يجري في الصحراء المقفرة - صحراء الصخور والرمال أم في الصحراء الالهة - صحراء اللؤلؤ والسفال ، فالواقع الذي لا نزاع فيه أنه ليس منا أحد الا ويدعى الى اجتياز هذه المحنة . والويل لنا ان لم ندع الى ذلك ، الويل لنا ان لم نكن الانصاف رجال لم تتوهج على صفحات قلوبنا تلك الوصية الالهية زاهرة زاهية ، بل ظلت تحت رماد الشواغل الدنيئة خافية خافية ! وكذلك أوتيت - لأقول نعمة الفوز - ولكن نعمة الشعور بالجهاد والعزم على مواصلته ما بقيت في حشاشة تتردد . وكذلك كتب لي بعد أن لبثت ما لبثت حيران هائما في العابة المسحورة اسمع عزيف الجان ، وأشهد من المناظر ما يشيب الولدان - كتب لي أن أجد مخرجا بعد لاى وعناء الى السفح المشرق البهيج - سفح ذلك الجبل الذى يصافح بقمته السماء .

أكان إذن ما عاناه تيوفلسدروخ من التطواف في مناكب الارض والتجوال ، كأنه الروح الحائر أو طيف الخيال ، هو ما يدعوه المحنة في البرية ؟ وهل كانت تلك اللحظة الخطيرة ، التي مرت عليه بشوارع باريس في تلك الهجرة - ساعة قال له الشيطان « أعبدنى وإلا مزقتك اربا » فأجابه بمت الجنان « اليك عني فأنا منك ولا أنت مني » أكانت هذه اللحظة هي نقطة الانقلاب في سير المعركة ؟ عجبا لك أيها الاستاذ ! ما كان شرك لو قصصت علينا قصتك الغريبة ، بأسلوب جلي وعبارة قريبة ؟ عبثا ما نحاول أن نجد في هذه الاضابير التي بين أيدينا إلا طمحات خيال علق في الفضاء وثاب ، أو صورا مبهمه كأنها ملفعة بالضباب ، وله قد أحس من نفسه هذا النقص حيث يقول « كيف أصور العين الجثمان ، ما يجري في قلبي الأقدس من

سريرة الانسان ؟ كيف يمكن التلميح ولو بأبعد إشارة الى ما لا يحيط به وصف ولا يعبر عنه لسان ؟ » بيد أنا تؤدي الى القارىء ما نستطيع أداءه من النبذ المقتطفة من هنا وهناك ، على يلمح فيها معنى متابعا ، وينظم منها حديثا مفهوما . يقول الاستاذ « لقد سكنت سورة العاصفة ، وخفتت زماجرها القاصفة ، وأصبح في استطاعة الروح بعد طول الصمم أن تسمع ما يجري حولها ، فأمسكت عن المضي في تجولاتي الهوجاء ، وجلست في مكانى أترقب وأتروى ، لأنى أحسست أن ساعة الانقلاب قد حانت . وكان يخيل الى أنى قد رحت أسلم بكل شئ ، وأنزل عن كل شئ ، وأقول « اليك عنى يا خيالات الامل الكاذبة فلن أطاردك بعد اليوم ، ولن أومن بك منذ الان . وأنت أيضاً يا أشباح الخوف المرعبة ، لن أحفل بك ولن أبالي ، أنت أيضاً خيالات كاذبة وأوهام باطلة لاجلسن هنا فقد أمسيت نضو سفر ونضو حياة ، لاجلسن هنا ولولأجل أن أموت ، فقد أمسيت والحياة والموت عندى سيان ، كلاهما في الحقارة صنوان »

ويقول الاستاذ في موضع آخر « وينأ أنا راقد كذلك ، وقد التى على النفوذ المماوى غاشية من النعاس الشافى ، شرعت الاحلام الفليضة تنجاب عنى شيئا فشيئا ، حتى إذا استيقظت وجدتني في أرض جديدة وسما جديدة . لقد تم بحمد الله العمل التميدى الاول ، أعنى محق النفس ، فأصبحت أشعر بان المصابة قد حلت عن ناظرى ، والاغلال قد فككت عن ساعدى »

والظاهر أن الكلمة الآتية تشير الى المكان الذى التى فيه الاستاذ عصا التسيار ، وجلس تلك الجلسة يتربع ويتروى فنزل عليه ذلك النعاس الشافى .

« ما كان أجمل الجلوس على تلك الهضبة البافخة ، تلقاء الجبال الشاغنة ، غارقا في خواطري وتأملاتي ، أحسبني في سرادق سماوى سقفه القبة الزرقاء ، وجدرانها أربع ستائر لازوردية فضفاضة ، ستأثره الرياح الأربع الخفاقة. هنالك استعرض في الخيال ، صورة ما اكتن في بطون الاودية وثنيات الجبال ، من قصور مشرقة ، في خمائل موقنة ، ترينها كل حورية حوراء ، ومليحة حسناء . أو تأخيل ماعو خير من ذلك واملح: صورة الاكواخ المسقفة بالقش ، حيث تجلس الامهات بين أولادهن يخبزن الخبز . كل هذا وان توارى من ناظري بين أجزاع الوادى كائن هنالك لاشك فيه ، كأنى أراه رأى العين . وربما رحت أتأمل تلك القرى المنبثة حول مقعدى الجبل ، تحاطبني من أبراج واقيسها بلسانها الحديدى ، وتعلن حيويتها آنا بعد آن ، بما تصعده من سحب الدخان ، تلك السحب التى كانت لى بمثابة مزولة تعلمهم اعداد الساعات والأوقات ، لأن هذا الدخان كان يتصاعد من المطابخ كلما عمدت الأزواج الكرىيات فى الصبيحة أو الظهيرة أو المساء ، الى اغلاء القدور للبعولة والأبناء . فكلما حان وقت من هذه الأوقات الفيت عموداً من الدخان الازرق يتصاعد من كل قرية ، ويقول بمبارة جلية : «الآن يحجز الطعام للوجبة الفلانية» منظر لممر الحق ائيق ! فانك لترى كل قرية بما حوت من محبات وعداوات ، ومعادنات ووشايات ، وخلاقات واتفاقات ، ملدلة هنالك تحت عينيك كأنها لعبة صبي لوشئت لنطيتها بقبعتك - حقاً لئن كنت أثناء تطوافى قد تعلمت ان أنظر الى تفاصيل الأمور والجزئيات ، فهنا موضع تجميعها الى كليات ، واستنباط ماشئت من الاستنتاجات .

« كذلك كم من مرة شاهدت الزوايع الموهجاء ، مقبلة غضبي من أقصى

القضاء ، حتى اذا التقت يعض القدم السماء ، فوجدتها مريدة غبراء ، جعلت تدور حولها وتدوم ، وتطلى وتهزّم ، ثم تنتشر في منفرج الاجواء ، كالنول ناشرة شعورها السجاء ، وما هي الا برهة حتى تسكن العاصفة ، وتبدو القمة في لآلئ الشمس ضاحكة ناصعة ، لأن الزوينة قد كستها حلة من الجليد لامعة . ايايتها الطيعة العجيبة ! كيف تخترين وتفلين في تلك الخاية الهائلة التي ندعوها القضاء ! بل حدثيني ما انت ؟ لماذا لا ادعوك باسم الله ؟ الست أنت رداءه الحي ؟ الست أرى جلال الحق يسطع من خلاله ويتكلم بلسانك ويمش فيك ويمش ، كما يمش في ويمش ؟

«وجعلت تبشير هذه الحقيقة تلوح لبصيرتي ، كما يلوح سنا الفجر لخطب الظلماء ، فكان وقمها في نفسى أخلى من صوت الأم في مسمع طفلها التائه الحيران ، وأعذب من نغم المعشوق في اذن العاشق الوطمان . ولاغرو فقد أنشأت اتبين أن العالم ليس مجزرة تمزق فيها الا بالسقور قص الاشباح ، وانما هو بيت الله ورواؤه ، ومظهر الحق ورواؤه .

«وتعلمت أيضاً أن أنظر الى اخواني في الانسانية بعين أخرى ، بحب لا يعرف نهايته ، ورحمة لاتحدها غاية . لهني عليك أيها الانسان البائس ، المضلل الطائش ، الاتقاسى ما تقاسى من الوان الشقاء ، وضروب البلاء ؟ الست سواء اتحايلت في حلل الملوك ، ام تضاءلت في اطوار صملوك ، ذلك العاجز الضميف ذا العبء الثقيل والجناح المبيض ؟ هل لك على كل حال راحة أومستقر ، الا في جوف القبر ؟ ايه يا أخى ! لماذا لا آويك بين جوانحي ، وأمسح عن مقتلتيك دموع الاسى ؟ أجل ان ضوعناه الحياة تلك التي مازلت اسمعها باذن مخيلتي وانا معتكف في عزلي لم تعد ليلاً يصم الآذان ويشوش الاذهان ،

بل صغبا شجيا ، وهتافا نديا ، كانه انين مبهم وخيم ، يصدر من مخلوق اعجب بهم ، ويصعد الى مسامع السموات ، فاذا هو دعوات وصلوات . واضبعت أرى أن هذه الارض الفقيرة ، وما حوت من المطايب الزهيدة المنزورة ، هي امي المدقمة المسكينة ، لامرأة ابى القاسية الضنينة . وصار الانسان على حقارة ما ربه وخرق مساعيه ، احب الى منزلة واعز في قلبي مكانة . بل لقد أصبحت من اجل آلامه وآثامه ادعوه أخى وشقيقى . وكذلك التقيت قسى مائلا بين يدي هيكल الاحزان ، لأدري من أى طريق وعرو مسلك موحش ارشدتني اليه خطلى ، فاهى الاهنية حتى تنفتح لى اعماق الحزن الالهية ، واسراره المصونة الربانية »

وهنا يقول الاشتاذ انه ابصر لأول مرة تلك المقدمة التى كانت قابضة على عنقه ، آخذة بكفله ، فبادر الى فكها عن مقلده ، وراح فى الحال حراً طليقاً . وذلك حيث يقول « لا يزال ينشأ فى كل نفس منذ بدء الخليقة الى اليوم جدال عقيم لا طائل تحته ولا نهاية له فيما يدعونه « اصل الشقاء » . ولا بد لكل نفس تريد الانتقال من حال التألم العاطل الى حال الجهاد . العامل من حل هذه المقدمة . بيد ان اكثر الناس فى عصرنا هذا يكتفون بحسمها حسما غير مبنى على الاقتناع ، وقليل هم الذين لا يهدؤون او يهتدون الى حل يرضيهم . وما زال هذا الحل يختلف باختلاف الاجيال والمصور . فكلمنا جاء عصر جديد اصبح الحل المقبول فى سالفه عتيقاً باليا لا يصلح للاستعمال ، ولا يطابق مقتضيات الحال ، لان الانسان مدفوع بطبعه الى تغيير لهجته واسلوبه من عصر الى آخر ، لامندوحة له عن ذلك مهما اراد وحاول . ولقد عاجلت هذه المسئلة فاهتديت الى الحل التالى : ان شقاء الإنسان نتيجة عظمتة .

الإنسان يشقى لان الطبيعة اودعته مطامع غير محدودة، لا يستطيع معها احتال وتصرف اشباعها بما يملك من الوسائل المحدودة . أفلو تالفت شركت متضامنة تضم جميع من في العالم من المالين والمجدين والحلوانيين افتراهم يستطيعون أن يحلوا شخصا واحدا ، ولو من مساحي الأخذية ، سعيدا سعادة حقة ؟ كلا أنهم لن يستطيعوا ذلك الا مدي ساعة أو ساعتين ، لان مساح الاخذية قد أوتى فضلا عن معدته نفسا نهمة لاسبيل الى اشباعها وارضائها الا اذا استولت على ملكوت الله باجمعه ، لأقل ولا أكثر ، تفرح فيه كما تشاء ، وتستمتع به كيفما تشاء . افتحسبه لو اعطى نصف الكون بلا شريك ولا منازع بيت قانا بقسمته ؟ كلا افاته لن يلبث حتى ينزع مالك النصف الآخر نصيبه ، ويجاهر بأنه أشقي خلق الله واسوؤهم حظا . ان ضياء الشمس الذي نسير فيه لا يزال مشوبا ببقعة سوداء ، تلك البقعة هي ظل أنفسنا ، وهل ينجو المرء من ظله ؟

« بيد ان هذا الوم المتسلط علينا من حيث السعادة انما ينشأ كما يأتي :
نفترض من تلقاء أنفسنا افتراضات ، ونقدر تقديرات ، نستخلص منها متوسطا معلوما لما يجب في حساباتنا أن يكون حظنا في الحياة ، ثم نتوهم ان هذا الحظ المتوسط هو من حقنا بحكم الطبيعة ومقتضى العدالة ، وانه لا يمدو أن يكون الاجر الذي نستحقه باستعدادنا ونستأهله بمواهبنا ، اذا استوفينا كاملا فلا محل لشكر ولا موضع لشكوى ، أما إذا اختلف حظنا عن ذلك المتوسط فالزيادة نمدوها سعادة والنقص نمجبره شقاء . فاذا لاحظت أننا نحن الذين نقدر استحقاقنا لانفسنا بأنفسنا ، واذا ذكرت أى مقدار وفير ، من الزهو والفرور ، قد أودع كل ابن أم منا هل يكون من المعجب أن نذهب

بعيداً في المبالاة بأفئدانا ، فيختل التوازن أيما اختلال بين مانديه لنا حقاً
ويين ما تؤثنا من الحظ فعلاً ، حتى ترى كل غبي أحق يصبح متمملاً :
« أنظروا أي أجر بحس أعطى ، تالله ما عومل انسان هذه المعاملة السوأى ! »
أيها الاحق ما هذا كله إلا من غرورك ، إلا بما يقوم في وهمك عن جدارتك
واستحقاقك . توهم أنك تستحق الشنق (وهو الاصح في الغالب) تجنم
السعادة أن تضرب بالرصاص ، توهم أنك تستحق الشنق بجبل في دقة الشعرة
تجمد من السعادة أن تشنق بمرس من الكتان .

« حقاً ان كسر الحياة ليزداد بخفض مقامه أكثر مما يزداد برفع بسطه .
بل ألم يحذرك علم الجبر أن الواحد الصحيح مقسوما على صفر ينتج لانهاية ؟
إذن فلتنجمل مانديه لنفسك من الاجر صفرأ ، تجمد أن الدنيا بخذا فيرها
تحت قدميك . لقد أصاب أحكم حكماء هذا العصر حيث قال « انما تبدأ الحياة
حيث يتم انكار الذات »

« في ذات يوم سألت نفسى قائلاً : اخبرنى أيها الانسان لأمر ما أراك
من عهد بعيد ثائراً غضباناً ، أسفاً أسياناً ؟ قل وأوجز ! أليس لانك غير
سعيد ؟ أليس لان نفسك (أيها السيد اللطيف الطريف) لاتلقى ما يكفيها
من الحفاوة والتعظيم ، واللذوة والنعيم ، والمطعم الشهي ، والمهاد الوطى ؟ ضلة لك
من أحق مغرور ! أي قانون من القوانين ضمن لك صفاء العيش وخولك
حق الهناء ؟ منذ قليل من الزمن لم يكن لك حق حتى في الوجود ، ومن
يدريك فلعلك ولدت وقد كتب عليك أن لا تكون سعيداً ، بل أن
تكون شقياً تيبساً ؟ ما أراك إذاً الا عقاباً شرها منهوما ، تخلق في هذا
الوجود باحثاً عن طعمة تلتهمها ، وصارخاً بأعلى صوتك ، لانك لاتجمد من

ارم ما يملأ فراغ بطنك . اغلق يا صاحبي ديوان يرن ^(١) وافتح ديوان
جوتي ^(٢) !

ثم يصيح الاستاذ في موضع آخر « هاند لاح لي وميض الحق ! فاني
لأرى في الانسان شيئاً أرق وجوهرأ أعلى من شغفه بالسعادة . في قدرة
الانسان أن يستغنى عن السعادة ، وتكفيه مكانها البركة والقناعة . أليس
من أجل التنويه بذلك الشيء الارقى ، والتنبيه الى ذلك الجوهر الاعلى ، أن
الحكام والشهداء ، والائمة والشعراء ، في كل زمان ومكان مازالوا يرفعون
عقائهم بالدعاء ، ويكابدون ألوان العذاب والبلاء ، مقيمين الدليل بحياتهم
ومماتهم على أن الانسان لا يخلو من نقعة الهية ، وعلى انه بغير هذه لا يكون
له حول ولا حرية ؟ وهذه العقيدة المنزلّة من رب السماء قد تشرفت أنت
الاخر بتعلمها ، وابتليت بصنوف العذاب الشاق ، وأنواع البلاء الذي باطنه
رحمة ونعمة ، حتى تعبر نفسك الى الخشوع والانكسار ، وحتى تدرك
الحكمة اللدنية حق الادراك . فاحذر بك على ما أصابك ، وتحمل ما بقي
لك بقلب صابر ، ولسان شاكر ، لانك بحاجة اليه ، ولان النفس التي بين
جنبتيك يجب أن تمحق وتسحق . وكذلك لن تلبث في قلب وتعلل بينما
عناصر الحياة تستأصل من قرارة نفسك شأفة المرض المكين ، وتنزع من
أعماق صدرك أصل الداء الدفين ، حتى تفوز على الموت فوزها المبين . هنالك

(١) الشاعر الانجليزى العروف وكان لا يزال متبرعاً بالحياة ساخطاً عليها نادياً حظ

الانسان فيها داعياً الى اليأس منها

(٢) كبير شعراء الامان وهو ينظر الى الحياة نظرة هادئة ودبية يقبلها على علاقتها

مستمتعاً بما فيها من خير .

روح وقد أمنتك العناية من الزمن ، لا يطويك تياره الطامى ، ولا ينسرك
غماره الطامى ، بل تظل محمولا على مناكب لجبهه ، مرفوعا على ذرى
ثبجه ، حتى يؤدبك الى صفاء الابدية وملكوت الخلود . ايه يانفس لا ترغبي
فى اللهو وارغبى فى الله ! هذمهى الحكمة السرمدية بفضلها تنحل المشكلات ،
وتتسق المتناقضات . فأخلق بمن سار عليها وسعى ، أن لا يزل فى خير وهدى »
ثم يقول الأستاذ فى موضع آخر « احقر بهذا الذي تفخر به من انك
تستطيع أن تدوس الارض ومظالمها بالاقدام كما علمك زينو حكيم
اليونان . إن فى وسعك أن تصنع ماهو خير وأبقى - فى وسعك أن تحب
الارض بالرغم مما تسومك من الظلم ، بل من أجل ما تسومك من الظلم -
إن بث هذه الروح السامية السمعاء كان يحتاج الى من هو أعظم من زينو
ولقد بمت الينا فى دوره . هل أتاك حديث « عبادة الحزن » ؟ ان معبدها
ذلك الذى أسس منذ ثمانية عشر قرنا خلت ، قد أصبح اليوم انتقاضا واطلالا
تعلوها الاعشاب الوحشية ، وتسكنها الحشرات المزعجة ، ولكن لا تجفل
بل أقدم ، فهناك فى قبوتحت الانتقاض المتداعية لا يزال المذبح قائما سليما ،
والمصباح المقدس متوقدا وهابا . »

وهنا يطلق الأستاذ لقلمه العنان فى مباحث الدين والوحى والنبوة
والكرامة بكلام غامض مبهم يؤثر أن تضرب عنه صفحا ، ونكتفى بإيراد
النبذة المفهومة التالية :

« فى هذه الحياة الدنيا ، حيث لا تزال مع الوقت فى حرب مهلكة ضروس
يتراعى لى أن كل حرب أخرى لا موجب لها ولا مبرر . أيها الانسان هل
ينك وبين أخيك الانسان خلاف أو نزاع ؟ إذن فنصيحى اليك أن تفكر

في الامر، مليا ! أليس معنى هذا الخلاف اذا أنت سبرت غوره ، انما هو ما يأتي «صاحبي تأمل ! انك تأخذ من السعادة أكثر من نصيبك - انك تأخذ جزءا من نصيبي أنا ، وذلك لمرالحق ما لن اسلم به ، بل أولى بي أن أحاربك دونه هو يلاه ! كل هذا والنعمة التي عليها يتكالبون ، ومن أجلها يتحاربون ، هي شيء حقير سفاسف ، هي مجموعة من القشور والاصداف ، لالب فيها ولاشحة ، ولا تكاد تشفي من ملايين النهايات نهمة . أفأ كان أجدر بنا وأجبري أن نقول في مثل هذه الاحوال « خذ أيها المتهوم الشره ! خذ هذا الجزء الاضافي الحقير الذي اعتده من نصيبي ولكنك تريد لنفسك . خذ بارك الله لك فيه ، ليتني كنت أملك ما يكفيك وبشفيك » لا أقول ان هذا هو كل واجب الانسان ، وانا هو نصف واجبه ، هو الشطر السلي منه ، لو استطاع الي أدائه مبيلا .

« على أن العقيدة ، معها صحة وقوية ، فهي شيء عديم القيمة ان لم تصبح جزءا من السلوك والخلق ، بل هي في الواقع لا وجود لها قبل ذلك ، لأن الآراء والنظريات لا تزال بطبيعتها شيئا عديم النهاية عديم الصورة ، كاللحمة بين اللوامات ، حتى يتهيأ لها من اليقين المؤسس على الخبرة الحسية محور تدور حوله ، عندئذ تصير إلى نظام معين . ولقد صدق من قال (لا يزول الشك معها كان إلا بالعمل) لذلك انصح لمن يقاسي التخييط في الظلام البهيم ، أو يعانى التعميت في الضياء السكليل ، ولا يزال يتضرع الى الهده ، ويرجو من صميم قلبه ، أن يسفر القجر الملتبس عن صبح مبین - أن يضع في سويده فؤاده هذه الحكمة العالية : « ابدأ قبل كل شيء بالواجب الذي بين يديك ، بالعمل الذي تعرف أنه واجب ، فانك ان فعلت اتضع لك الواجب التالي »

« بل ألا يصح القول بأن ساعة انقياق الروح إنما تكون حينما يتبين
 لعيك المدهوشة أن هذا العالم الذي مازلت تجاهد فيه جهاد المغم الحيران ،
 وتتحسر تحسر العاجز اللهبان ، هو بذاته عالم الكمال المطلق الذي تصبوا اليه
 وتتلطف عليه — حينما يتضح لك بير التعجب والاستغراب أن دنياك
 الجديدة هي في هذا المكان ، وإلا فستحيلة الامكان ؟ والحق أنك لن تجد
 في مقامات الحياة مقاما إلا وله واجبه الاسمي ، ومثله الاعلى ، فهنا في هذه
 الحالة القائمة والظروف الراهنة ، على رؤسها ومباتها ، ونكدتها وحقارتها ،
 نعم هنا في الموقف الذي أنت فيه ، يوجد المثل الاعلى الذي أنت به هائم كلف ،
 فاكدهح لتحصيله ، واعمل لتحقيقه ، وكن حيا مؤمنا ، حرا مطلقا ! أجل
 أيها الاحق ! إن المثل الأعلى هو في ذات نفسك ، والعقبة أيضا في ذات
 نفسك ، وما حالتك في الدنيا إلا المادة الأولى ، التي يصور منها ذلك المثل
 الاعلى ، وما عليك أن تكون المادة من هذا النوع أو ذلك مادامت الصورة
 التي أنت ملبسها إياها ، ومفرغها فيها ، كريمة جميلة ، ورائمة جلييلة . فيامن
 تنوح في سجن حياتك الراهنة ، وتجأر بالدعاء الى الآلهة ، طالبا اليهم أن
 ينحوك عالما تنفرد فيه بالحكم والانشاء ، تعلم هذه الحقيقة وهي أن ضالتك
 المنشودة هي في حوزتك ، ورحن قبضتك ، هي في هذا المكان ، وإلا
 فستحيلة الامكان ، لو كان لك عينان تبصران !

« والواقع أن مثل الروح كمثل الطبيعة ، مبدأ الخلق في كليهما النور .
 فحتى تصبح العين بصيرة لا بد لسائر الاعضاء أن تظل مقيدة منلوثة . فيالها
 تلك من لحظة مقدسة اذ يقال للروح الجائشة المضطربة ، كما قيل مرة للسديم

المصطفى « ليكن نور ! ». هنالك تنقطع زماجر الخلاف الداوية ، وتألف العناصر المصطرة المتعادية ، فإذا أجواء منفتقة ، وأفلاك منفهقة ، وإذا جبال تبنى في الخضم كالأوتاد الراسيات ، وإذا قيم يرفع في السماء مزينا بالكواكب الشافيات ، حتى تجد بين يديك مكان السديم المظلم الجواب ، المائج الغياهب ، دنيا تشرح الصدور بهجة وبهاء ، ونضرة ورواء !

« وكذلك أصبحت وفي استطاعتي أن أقول لنفسى « لا تكن بعد اليوم سديماً ، بل كن عالماً نظيماً ! اتبع ، اتبع ما في قدرتك اتبعه ، بالتمام بلغ من الزهادة والضلالة ! إنه قصارى مجهودك فلتخرجه . هيا بك لا تقعد عاجزاً حاطلاً ! بل مهما تناولت يدك من عمل فاعمله بأقصى قوتك وأبعد همته ! اعمل مادام الوقت نهاراً ، قبل أن يدركك الليل فلا تستطيع الى العمل سبيلاً »

الفصل العاشر

الختام

لقد تتبعنا تيوفلسدورخ في مختلف أطوار حياته حتى بلغ رشده الروحاني . وسنراه منذ اليوم « سامعياً في عمل الخير » رامياً الى الغاية الجديرة بالإنسان . نعم لقد استكشف أن المصنع الخيالى الكامل ، ذلك الذى ما فى يتشوف اليه ويتلهف عليه ، هو بعينه هذا المصنع الفعلى الناقص العدة والأستعداد ، حيث مابرح يتميم ويتعثر . وأما الآلات فقد وجد منها كفايته ، وذلك حيث يقول : « آلات ! اليس ذلك عندك منها ما يكفيك ا كيف ذلك وانى يكون وما من انسان ، بل ما من شئ » يعيش في هذا الوجود الا وقد أوفى

ما يعوزه من الآلات ؟ ان احقر المخلوقات - ذلك المنكوبت الذى تقتنعه
العين - قد أوتى مغزلا ومنسجا ومنولا ، كلها مركب في رأسه الصغير ، وان
ابلد المحارات قد اوتيت آلة هاضمة يصونها بيت من الحجر والجير ، وكذلك
مامن شئء حى الاوفى قدرته أن يعمل عملا . آلات ! اليس لك ذهن متار ،
أوقابل للأتارة ، بوميض من العلم ؟ اليس لك ثلاث انامل تمسك بها القلم ؟
لله در القلم أى عصا سحر هو وأى خاتم ملك ! من عهد موسى وعصاه ، أو
من قبل ذلك ، لم ير الناس أعجوبة هي أربع وأبدع من القلم . والواقع ان
هذه الاداة الدقيقة قد أظهرت من الآيات البيئات ، والمميزات الباهرات ،
ماهر أعظم وأفضل من كل خارفة مذكورة ، ومعجزة مشهورة . وانه لمن
عجائب هذه الدنيا ، التى ظاهر شأنها الصلابة والجمود والنبات وان تكن
على الدوام فى قلق ومرج واضطراب ، ان الصوت ، وهو فى الظاهر أهون
الاشياء خطرا وأوشكها فناء ، يكون فى الباطن أدمها أثرا وأطولها بقاء .
ولقد صدق من قال ان الكلمة هي صاحبة الصولة والسلطان فى هذه الدنيا ،
وانه بقوة الكلمة يصبح الإنسان الهيا يقول للشئء كن فيكون . فانهض
أيها الإنسان من رقدتك ، واتبه من غفلتك ، وانفت ما يمحيش فى قلبك ،
وبلغ ما أوحاه اليك ربك - فا قدر لابن آدم عمل هو أشرف وأسمى من
الدعوة الى الحق . ولئن أعطيت ولو أدنى مرتبة فى ديوان هذه الدعوة
فلحسبك من الشرف النبيل ، والمجد الاميل ، ان تنفق عمرك وتنفى قواك
فى هذه السبيل !

« وكذلك اتيج الى أن احترف هذا الفن الرفيع الذى كثيرأ ما نراه مع
الأسف ينحط فى بعض الأيدي الى حرفة وضعية . فكم من كتاباتلى ،

وان لم تكن منسوبة الىّ (ومن هو أنا حتى أحفل بأن ينسب شيء الىّ؟) قد القيتها في ذلك الحقل العظيم الخصب : حقل الآراء، وك رأيت مع الارتياح ثمرات غراسي تطالني من هنا وهناك ! فالحمد لله الذي هداني الى مهمتي ، لنسفر مجهوداتي فيها عن نتيجة أو عن غير نتيجة ، لقد صممت على المضي فيها بكل قواي .

وهنا يقف الناشر أخيراً ، غير واجد بدا من الأعراب عن شبهة اليمية ، مارحت تجول في خاطره خلال الفصول الأخيرة من هذه الترجمة وتنض مما في قلبه من بقية حاسة كانت لاتزال تجعل واجبه الشائك عملاً محبوا . تلك الشبهة هي أن عتومات هذه الوثائق جلبها أوكلها ان هي الاتمية . وهل بعيد أن يكون كثير من الأمور الموصوفة هنا بأنها وقائع ان هي في الحقيقة الاخيالات ؟ هل بعيد أن يكون كل ما تضمنته هذه الأضابير ليس صورة شمسية لحياة الفيلسوف ، بل مجرد صورة رمزية تشير الى الحقيقة تليحاً لاتصريحها ، وتورية لاتوضيحها ؟ ان الذي نرجحه أن المهر هفرات اذ حسب الصورة الرمزية صورة حقيقية كان غدوماً في أمره ، كما كان مسلطاً على خدع غيره . والا ناشدتك الله كيف يعقل أن رجلاً معروفاً بفراط الاحتجاز وشدة التكم كصاحبنا الاستاذ يتطوع دفعة واحدة وبكل صراحة فيفتح اغلاق قلعه الحصينة لناشر انجليزى ولهفرات الماني ؟ البس الاقرب الى المعقول أن يكون غرضه استدراجهما حتى اذا حبسهما في دهاليها الملتوية وسراديها مظلمة أنشأ يتأمل كيف يكون . نظر الاغرار المغفلين ؟

ولكن فليعلم الاستاذ أنه مهما خدع فتنة واحد على الأقل لن ينخدع نمويه . لقد قرأنا أخيراً على احدى القصصات ، التي كنا قد قيناها جانباً

أول الامر بسبب عدم وضوح الخط ، المباشرة الآتية : « ماهذه التي تسميها وقائع تاريخية ؟ اتحسب في مقدورك أن تكتنه انسانا ، بله نوما بشريا ، بمجرد ظلمك عقداً من هذه الخرزات التي تسميها وقائع ؟ انما الانسان بما نوى ، بالروح التي تحده ، لا بالعمل الذي يؤديه . وما الواقع الا رموز منقوشة ، لا يهتدى الى سرها الا الأفلون ، أما غيباؤك فلا يتفهمون أسرارها ولا يتفحصون معانيها ، بل همهم أن ينظروا الى حسن نقشها أو رداءه ، الى موافقتها أو مخالفتها للآداب . وشر من ذلك أجلافك فلقد رأيت بعضهم يقرأ « روسو » مدعيا فهمه متكلفا تفسيره فاذا هو يخطيء افى الأبدية حاسبا اياها زاحفة عادية . » أكان الأستاذ اذن يوجس خيفة لتلايخطيء فهم أفعاء ناشر كالثائر الراهن يعد نفسه من صفوة النashرين ، فمعد من أجل ذلك الى تغيير شكلها وبراها في صورة رمز أوضح وأبسط ؟ أم هل هذه أيضا إحدى انصاف حقائقهم وأنصاف أصاليه ، تلك التي لا ينفك يرسلها كالسهم الشاردة لا يعنيه أن وقعت ولا ماذا اصابته ؟ لسنا ندرى على التحقيق ، ومن الحال ، وهذا شأن الأستاذ في غريب أطواره ، أن ندوى . فاذا كان اشتباهانا قلما على غير أساس فليرجع باللائمة على أساليبه المربية ، لا على احتراسننا الواجب .

يبد أنه كيفما كان الامر فقد عول الناشر ، وقد بلغ منه الآن والضعف ، على أن يلقى من يده مؤقنا هذه الاضايير . وحسبنا أننا عرفنا من الأستاذ حتى الآن « الروح الذي تملكه وحناه ، وان لم نعرف العمل الذي أداه » لاسما وان كيانه الروحاني ، قد أفرغ الآن في قلبه النهائي ، فلم يدمن المنتظر استكشاف شيء جديد ذي خطر . لقد صارت الشرقة المحبوسة فراشة مخنجة ، ولسوف تظل كذلك حيثما كان مطاها . فلئن تبيننا الاستاذ في

حركاته وتقلباته خلال أحوال الحياة الظاهرية حتى يصل أخيراً الى كرسى
الآخرة، لما أسفر عملنا عن نتيجة جذيرة بهذا المجهود . لقد رأينا تيار حياته
الخلوجية يتحول عند « مصرع النرام » الى رشاش بخار ، فلتتركه حلقاً في
الجو كما رأيناه ، وحسبنا اننا قد وقفنا على اتجاه مجراه العلم ؛ مما تبيناه هنا
وهناك من برك وجمام . بل ألم نعرف فوق ذلك ان هذا الرشاش البخار قد
تكاثف من عهد بعيد فنزل مطراً وسال غديراً وانه الآن في مدينه قوسنتشتو
يجري عريقاً هادئاً بحيث تراه عيون الناظرين ؟ اذن فلنكتف مؤقتاً عن
التنقيب في هذه الامتيازات - عن الحفر في هذه المناجم ، وان كان هذا لا يمننا
من المودة اليها الفينة بعد الفينة والقائه نظرة على ما احتوته من مادة نفيسة
مبشرة هناك كالجوهر بين الاخباث .

والآن وقد اعترطنا أن نمود الى كتاب الملابس فقد يحق لنا أن
نتساءل عن مبلغ التقدم التي تقدمناه خلال هذه الفصول الاشر من ترجمة
الاستاذ نحو ادراك فلسفة الملابس على حقها . وما نحسب أن الجواب على
هذا السؤال يكون كله سلباً . فلقد وقفنا - على حد التشبيه الآف يئانه :
تشبيه الجسر الممتد من باب الجحيم الى حافة الارض - الى اضافة بضع صناتل
عائلة ، وان لم تكن قد ثبتت بعد في مواضعها ، بل لاتزال مضطربة على متن
الفيضان . أما الى أين ينتهي هذا الجسر متى شدت بالسلاسل ازماته ورجلت
اجزأوه فذلك مسألة لاتزال حتى الآن في حيز التخمين .

والحق اننا قد استطعنا أن ننظر في سريرة الفيلسوف من خلال خصائص
سفرة حجة حتى أصبحت معالم تلك الصور الفرية التي تصورها عن الوجود
الكيفية التي ارتسمت بها في ذهنه ، غير خافية علينا ، فأرؤه المجيبة عن

الوقت - تلك الآراء التي هي جذيرة بكل اعتبار والتي لا يجتمعي فهمها على التأمل - حقيقة أن تتكشف عن معان جلية. وأخلق منها بذلك ربه في الطبيعة وانها وحدة مبنية. ألا يلح القارىء في قوله عن الطبيعة وعن الحياة انها رداء - رداء حتى نسج ولا يزال ينسج على نول الوقت - ألا يلح القارىء في هذا الخطر الميكمل الخارجى لفلسفة الملابس بخلافها ؟ اضع الى ذلك أن اخلاق الرجل لم تمد سرا ملتزا ، ألا ترى أن نوعا من الالباء الحى مقتربا بنوع من الخشوع القياض يبرزان من وسط الكثيف من الغموض ويزفان خلال المظلم من الابهام كأنهما الدعامتان الخليقتان بأن يؤسس فوقهما ويشاد عليهما كل ماعداها ؟

بل ألا يصح القول بأن ترجمة تيوفلسدورخ - وإن لم تكن فيما ترجح الا صورة رمزية - تعرض علينا مع ذلك صورة رجل كأنما أعدته المقادير لفلسفة الملابس ؟ لقد كان في جميع أطواره مسوقا سوقا ومدفوعا دفعا للنظر خلال مظاهر الاشياء الى ذات الاشياء ، وكان كل ما جرى له من تقلبات الحظ وتصرفات الايام من شأنه أنه يقوى في نفسه تلك النزعة السلبية التي انطبعت فيه منذ نعومة اظفاره ، وكان مثله في المجتمع كالزيت في الماء محرما عليه أن يمتزج بافراده في عمل أو في اجتماع ، فلا غرو أن يكون نصيبه العزلة والاستغراق في التأمل . والواقع أن جميع قواه ظلت طوال سنين عدة منحصرة في عمل واحد : تحمل الألم ان لم يجد الى شفاائه سبيلا . وكذلك ظلت مظاهر الاشياء أينما راح وحيثما اقتنص تفضله وتكربه وتهدهد بالمعطب التبريع والهلاك القطيع ، فلم يكن يجد الى السلام والراحة سبيلا الا باقاز نظره خلال مظاهر الاشياء الى الاشياء ذاتها . ولكن اليس مجرد النظر خلال

المظاهر- وهى بمثابة الملابس- الى الأشياء ذاتها هو المقدمة والتمهيد لفلسفة
الملابس؟ ألا تلمح فى كل هذا بوادر الفرض الحقيقى الاسمى من هذه الفلسفة
والشكل الذى يجب أن تتخذه فى يد رجل كهذا وفى عهد كمهدنا هذا ؟
وما نحسب القارىء الكريم ، وهو على أبواب الكتاب الثالث يجهل
الآن كل الجمل أين يساق. وما نظن أنه سيعوزنا ، مع كل ما لا بد أن نخوضه
من متاهات ومضال ، أن نلمح الحين بعد الحين وميض نجم قطبي ثابت .

الكتاب الثالث

الفصل الاول

أعظم حادثة في التاريخ الحديث

لقد رأينا تيوفلسدروخ منذ الفصول الأولى من كتاب الملابس يتكشف شيئاً فشيئاً عن رجل يحب للمحب ، منقب عن المحب . وكان من دواعي النهش أن نراه ، بالرغم من غموضه واستفلاقه ، يخلص الى لباب الكائنات يصير نافذ وبصيرة ثاقبة ، فلا يجد في الظواهر الحسية مهما كانت رفيعة عالية ، الا أردية قشبية أو بالية ، ولكنه من ناحية أخرى يري تحت هذا الظاهر جوهر ا روحانيا ابرز للعيان ، بفضل هذا الأردية والخلقان . وبناءً على تقدمه يخرق المادة بما حوت من زخرف وزبرج إذا به يرفع الروح الى أعلى المراتب ، ويضعها فوق هام الكواكب ، ويسببها بمخشوع واجلال ، وان تراعت له في أحقر الاشكال . أما ما يري اليه المؤلف من لقاء ناره الاغريقية بهذه الكيفية في خزانة ملابس الوجود ، أما ما سوف يؤدي اليه هذا الاحراق والتزريق لكل ما اشتملت عليه الحياة من مظاهر وظواهر فذلك ما سوف يستكشفه القراء الآن ، ذلك في الواقع هو الفرض الأسمى والمرمي الأقصى لفلسفة الملابس :

ولكن لا يتوهم القارئ أنه سيقع على هذا الفرض مكشوفاً مستنبطاً ، بل كل ما ينبغي أن نرشده الى مكان وجوده لكي نستنبطه بنفسه . نعم ان مهتنا تنحصر في ارشاد القارئ الى هذا الأعظم القبح الجديد ، وفي دلائلهم

على مواقع المناجم ، ولكن ليس علينا أن نتعب فيها بانفسنا ونستخرج منها
ملحوت من سبائك ، بل هذا واجب القراء ، فليهم ان يتقنوا بانفسهم ،
ويحملوا من التبر ملوحت حقائبهم .

ولا يحسن القارىء مع ذلك أن مهمتنا الآن قد أصبحت أيسر مشقة
وأهون عناء ، وأما خريون بأن نسير الى غرضنا بخطو واسع حيث في
طريق مبدى طول . كلا ! فلهمة لا تزال كما جهدنا عناء وشدة ، والطريق
لا تنفك غلضة وعرة ، وكل امنا أن نلتقط الخطوات الثقاطا وثمة وثمة ،
وان نختار لمواطى . أقدامنا المواقع المناسبة ، علنا يربط هذه المواقع بعضها
الى بعض . نستطيع أن نهيى للقارىء (على حد التشبيه القديم) وسط هذا
الحضم المضطرب جسرا صالحا للعبور . ولنبدا الآن بالتقاط التبعات لا يتقاطعا
جديرة بالاختيار :-

« ريمكانت أعظم حادثة فى التاريخ الحديث لاجمع ورمس^(١) ولواقعة
«أوستلقر» ولامركة «ووترلو» ولاملحة «يترلو»^(٢) ولا اية واقعة أومركة
سواها ، وأما هي حادثة أهمل ذكرها أكثر المؤرخين ، ولعل اليها بعضهم مع
الاستخفاف والتحقيق - وأعنى بها خصف «جورج فوكس» ثوبا من الجلد
ليتحققه لنفسه راء !

« كان هذا الفنى اسكنا ، وكان أحد الذين يصطفيهم الله فيميط عن
بصائرهم حجب الجباله ، ويبتك عن اقتداتهم غشاوة الغرور ، فيبصرون

(١) مجمع عتيه البابا فى سنة ١٥٢١ ودعا اليه بولوك أودوا وإمرأها بالنظر فى أمر

«لوتر» متبع المذهب البروتستانتي

(٢) كل هذه أسماء مسارك حرة لتالبيون الاكبر

الحقيقة وجهها لوجه ، و يرونها ساطعة رائعة في بهجة الجلال ، ونهاه الجلال ،
قد صوم بارة أنبياء الله ومهاط وحيه ، ورفعهم تارة الى مراتب الآلهة .
« وكان هذا الإسكاف يجلس في حايونه الحفير ، مكبا على رقعة الاديم
يقدها وفريها بين ركام مركوم من الخارز والاشافي ، والخيط والقرء وما
اليها من مختلف الادوات والآلات . ولكن كانه بين جنبه نفس جياشة
كبيرة ، وكان تحت عينيه كتاب منزل قديم ، تطلع روحه من خلال آياته ،
كما تطلع العين من خلال النافذة ، فتطلع اعلام وطنها البعيد ، وتشم يشم
سماها المقدسة . وكانت هذه النفس الشريرة أكبر مطمحا من ان يقننها
صنع ازواج الأجنحة وحقق صناعة النعال و احراز مسك الخوايف بل فالت
تسمع من خلال الطرق على الاديم والقرع بالشرك اصواتا وافعة من ذلك
الوطن البعيد ، وتلمج روايق وروائع تلوح في هاتيك السماء المقدسة . ولا
غرو فان هذا الاسكاف كان - كما قدمنا - انسانا ، وكان يرى هيكل الوجود -
ذلك الذي ارسل اليه ليكون من سدته قد افهم مقدس الاسرار ومظهر للمعاني .
وفرنى الفتى وجهه شطر قساوسة الى المتوطنين بشرح هذه الامرار
والمعاني ، ولكن القساوسة كانوا كلما جاء يلتمس منهم الرشد يصنفون اليه
وعلى وجوههم ملل ظاهر وضجر مبين ثم ينصحونه بغير الامر بان ينفي عن
ففيه هذه الوسوسة ، وتطرد من ساحة صدره تلك الهواجس ، عما فرقت
الخان ، والرقص مع الحسان . فلهذا لم من محي يتودون محيا الامر بالهذه
تجمع المشور لم ويحي ، ويتخط لم تلك اللابس والقانيس ونسوي ،
وتشبه للمعابد والكنايس وتبي ، اذا كان الانسان عزدا كذا عاضدة وكانت
الوطن وليلقاتها هي الحقيقة العظمى ؟ فامر من عني من كس فزدد اشرف

ودموع هائلة ، واقبل على ناله وتمسك بأنجيله . وليت هذه النفس مقبورة تحت هضاب وجبال ، من الموم والاثقال ، ولكنها نفس أية قوة لن تمكث دهرها في ذلك السجن المطبق ، والرمس المرقق . فكم من نهار أفنت نياضه ، وكم من ليل أمضت سواده ، وهي تجاهد في طلب الحرية جهادا صامتا ، وتكافح في سبيل الخلاص كفاحا عنيفا . وبالله كيف كان ذلك السجن الهائل يرتج بنيانه ، وتميد أركانه ، وهو في يدى تلك النفس الجبارة تهز ذات اليمين وذات اليسار حتى تقسخ وتبدى ، فإذا هي قد خرجت من دجى الظلماء الى نور السماء ! ولو كشف الله عن بصر الناس لوجدوا ذلك الحانوت الحقير حيث كان يجلس ذلك الاسكاف المسكين اشرف من «فاتكان» البابا^(١) وأقدس من معبد «لورنو»^(٢) . وقد كان مما يحدث به نفسه «انى اذا لبثت هكذا مشدود العينين ، مغلول اليدين ، مقيد الرجلين ، بأنواع التكليف واللبائات ، وضروب الموم والحاجات ، فلن أستطيع حرا كما ولن أبلغ مراما ، بل أعيش مأعيش أسيرا مذللا ، واموت اذا أموت جاهلا مضللا ، على حين أن الاجل طائر عجلان ، والجنة عالية ، والنار هاوية ! ايها الانسان أجل في مالك الفكرة ، ان كان في رأسك من العقل ذرة ! أى مانع يمنعك من الخلاص ، أى حائل يحول بينك وبين النجاة ؟ الحاجة ! الحاجة الى ماذا ؟ اتحسب كل مافى الارض من اثمنا الاحذية مستطيا اجازتك الى دار البقاء ؟ كلا فلن يستطيع ذلك الا التامل والاعتبار ، والخلوص لوجه الله والادكار الى الغايات ، الى الغايات ! حيث تأوي بطون الاشجار ، وتغذي الفواكه البرية والثمار ، وتكفي

(١) قصر البابا في روما ويعد من مفاخر العالم

(٢) «لورنو» مدينة في إيطاليا مشهورة بكنائسها التي يزورها سنويا كثير من الحجاج

من الثياب أن أخضع لنفسى ثوبا أبديا من الجلد يرافقتى مدى العمر ويكون
لى نعم الكفن متى حم القضاء »
ثم يستمر الاستاذ قائلا « ما كان فن التصوير بالزيت من الفنون التى
مارستها قط ، لذلك لأدري إن كان ذلك الموقف الذى وقفه جورج فوكس
يوم أمسك قطعة الأديم وجعل يخفض منها ذلك الثوب المجيب هو من
المواقف التى يسهل على المصور تصويرها . بيد أنى مازلت أحسب أن انبثاق
جفر الحرية والهمة فى قلب الإنسان ، واستفاضته فى شعاب نفسه شيئا فشيئا
وانتشاره فى أنحاء كيانه رويداً رويداً ، حتى يرد ظلمة الضلال التى كانت
تبتلمه فى جوفها الرغيب ، وتلتقي عليه بهولها الرهيب ، ضياء لامعا ، ونهارا
ساطعا - مازلت أحسب أن هذا الانقلاب هو أحق شئ فى تاريخ الإنسان
بالتمجيد والتعظيم ، لأنه مظهر الرضة الصادقة وبرهان المجد الصميم . إذن
فلينهض أبرع المصورين وليرسم لنا بنظر نافذ وفهم ثاقب صورة جورج
فوكس وقد بسط بين يديه رقعة الأديم لآخر مرة ، وشرع يفريها على مثال
لم يسبق له نظير ثم جعل يخفضها ويهيئ منها رداء شاملا هو خاتمة مصنوماته
الجلدية ، وآخر مجهوداته الدنيوية . الا بوركت أيها الرجل النبيل ! صمدا فى
عملك صمدا ! ان كل وخزة من وخزات مخصفك الصنير لتشك فؤاد النذل
والعبودية ، وتصبي كبد المطامع الدنيوية ، وتصيب مقتل الفتنة النهيية ،
وان ساعديك إذ يتحركان ، لأشبه بساعدين مقتولين يسبحان ، وإن كل
حركة لهما لتحملك عبر خندق السجن حيث النلة والفرور والفوارة ، وتدنو
بك خطوة الى ملكوت الحرية والنور والهداية ! أما والله لو تم عملك هذا
لكان فى أوربا كلها رجل واحد جر ، ولكنته أنت !

«وكن تلك لايزاله الانسان واجداً من الخفيض الاسفل ، مرتقى الى
الملك الاعزل ، ولا يزال الفقراء واجدين كتاباً منزلاً فيملئ الناس هدايقه وارشاده
والنكاح كان ممياً الشهير دياجونيوز^(١) هو أعظم الاقدمين ، على ما كان ينقصه
من رقة ولين ، فأحر بجورج فوكس أن يكون أعظم الأولين والآخرين .
لقد كان يشاطر سلفه دياجونيوز فضل الوقوف على صخرة الحقيقة ، مستقلاً
عن كل عون وساعد ، مستغنياً عن كل رافد وسائد ، ثم عتاز عنه بأنه لا يتشتم
الارض بنظرة الكبرياء ، ولا يلخطها لحطة شزراء ، بل يقتدر ما تسدى اليه
في الماء كل والمشرب والملمس من نعمة ، ويرفع بصره الى السماء وقلبه يفيض
عطفاً ورحمة . فلهذا ذلك الرداء الجللى اقلن كان برميل دياجونيوز منبراً
شرفاً تلقى عليه خطبة تمجيد الانسان بلهجة الحكم والازدراء ، فلهذا كان
ذلك الرداء منبراً أعترف وأعلى إلا كانت تسمع منه تلك الخطبة ولكن
في غير نهكم وازدراء وقسوة ، بل في حنان وعجبة ورقة »

لقد مضى الآن نصف قرن ان ذلك الرداء الابدى كما يدعو الاستاذ
قد لي وانذر ، ولم يبق له في الوجود أثر ، فليت شعري ماذا تراه يمشي اليوم
من استشارة ذكره هذه العبارة الرنانة ، بعد التمهيد لها بتلك المقدمة الطنانة ؟
أريد الاستاذ أن يحمّل الناس على الاقتداء بجورج فوكس ، وهل يرى من
المستطاع في هذا العصر ، عصر التألق والرفاهية ، أن جانباً كبيراً من الناس
يقدمون على التجلبب برداء شامل من الجلد ، وذلك كما يقول «أصابة لمقتل
الفتنة النهيية ، وفرا من سجن النذل والعبودية ؟ إنها وإيم الله لفكرة مضحكة .

(١) الحكيم الاغريق الشهير ، صاحب القصة المعروفة مع الاسكندر ، وهو
للقلب بصاحب البرميل ، لأنه كان يمشي فيه احتقاراً منه للعالم وزهادة في الدنيا .

هل يرضى صاحب الجلالة بأن يخلع رداء الملك وحلته ، وهل ترضى ربة الجلال
بأن تنبذ وشى الحسن وحلته ، لكي يتخذ لنفسينها لها باثانيا من الاديم
المدبوغ فوق لها بهما الطبيعى ؟ وهل تحب هذا التبديل إذا تم يكون له من
أثر سوى بوار المنازل ومعلم النسيج ورواج المدايح ومصانع الجلود ؟ لقد
يتوهم الأستاذ أن هذا الانقلاب جدير بأن يؤدى إلى التسوية بين مختلف
الطبقات ، وإزالة ما بينها من الفوارق والميزات ، وبذلك تجنى الإنسانية
فوائد مذهب « التجرد » السياسية دون تعرض لآفاته الصحية وغير الصحية .
ولكن غاب عنه أن الداء أشد تفللا من أن ينجم فيه هذا العلاج السطحي ؛
وإن الفوارق التي يحنسها لن تلبث بالرغم من ذلك الملاج أن تنجم واضحة
جلية ، إذ يرى السراة والاعتياء ، يحتالون في أحسن الجلود والقراء ، وريبات
الحسن والجمال يتبعون في المصنعات الزاهيات من الجلد المراكشي البديع ،
مبطنة بالشموالة الأخر الضئيل ، ولا يبقى للفقراء الاجراء ، غير جلود البقر السوداء .
أم هل ترى فيلسوفنا يرمى إلى غرض أبعد وأعمق ، فهو يصفها
في سره من هذه التعليقات والانتقادات ؟

الفصل الثانى

الملابس الدينية

يمتاز هذا الفصل الذى عقده الأستاذ عن الملابس الدينية بأنه أقصر
فصول الكتاب فنحن نقله هنا برمته : —
« لست أعنى بالملابس الدينية بزائنات القسوس ومنسوج الرهبان ، كلا

ولا أقصد بها التياب القشبية التي يرتديها القوم في أيام الآحاد ، وإنما أريد بها تلك الصور والاضاع التي مازال الناس في كل عصر ومصر يلبسونها للفكرة الدينية فيظهرونها بها - أي أنهم يمدون إلى السير المصون المحرك لهذا الوجود فيلبسونه جسما محسوسا ملموسا ، يظهر فضله بينهم ، فيكون هو الكلمة العليا : مصدر الحياة ومانر الهدى .

« هذه ولا شك أهم أردية الحياة البشرية . وأول من ينزل هذا النوع من الملابس وينسجه هي أم المجائب : الهيئة الاجتماعية . فإن الدين ، وإن كان مركبا في أصل الخلقة متصلا بجوهر النفس بحيث لا يمكن انفادامه البتة ، إلا أنه يظل كما نأخفيا لا يظهر ولا يتجلى إلا باجتماع اثنين فأكثر من أبناء آدم . عند ذلك يظهر الشعور الديني مجيما في الحفلات المقدسة . عجيب والله ، بل معجز وأكثر من المعجز ، أمر هذه المفاوضة بين الروح والروح وكلاهما يتطلمان إلى السماء ! هذا حقا مقام تاجي النفوس ، قلبيس الألفي النظر نحو السماء (على أي وجه أوكت هذا القول) لا في النظر إلى الأرض ، يستطيع الناس أن يحققوا معنى الاتحاد والتآلف ، والاجتماع والتعاطف . وما أصدق نوافل حيث يقول : في اللحظة التي استطيع فيها اقناع غيري بما اعتقد يزاد تمسكي باعتقادي ازديادا لا حذله ، بل انظر انت إلى وجه أخيك وتأمل في عينيه المتلائين بأنوار الحب المشرقة ، أو المتهبتين بديران الغضب المحرقة ، واعتبر كيف تسرع إليك عدواه ، فإذا بنفسك الهاذئة قد انتقل إليها على غير اختيارك قيس بما تراه ، فلا يزال كلاهما تنقدان ، و يمس كل منكبا على أخيه ناره أو نوره ، حتى يصير ما بينكما شعلة مشتركة من الخنان والود ، أو من الكراهة والبغض الأول ! فقل لي إذن أي تأثير خفي عجيب هذا الذي ينفذ

من العين الى العين ، ويسري من النفس الى النفس ؟ وإذا كان الامر كذلك من خلال الاغلفة الكثيفة المحيطة بهذه الحياة الارضية ، فإليك اذا كان موضوع الحديث بين النفس والنفس هو الحياة الدنية والاسرار الالهية وقد تصافح القلبان ، وتلامس الروحان !

« وكذلك ترى ان اول من غزل الملابس الدينية وحاكها هو المجتمع . فالديانة الظاهرة نشأت بفضل المجتمع ، وبفضلها صار من الممكن وجود المجتمع ، بل ما من مجتمع يستطيع تصويره في غابر أو حاضر الا ويمكن اعتباره من جميع الوجوه كنيسة حقيقية تلتحق بأحد الأقسام الآتية : - أولا كنيسة منطلقة اللسان بالدعوة والنبوة وهي افضلن ، ثانيا كنيسة تجاهد كي ينطلق لسانها بالدعوة والنبوة ولكنها لا تستطيع ذلك بمدى حتى يحل عيد موقعها (١) ، ثالثا كنيسة اصبحت من فرط الهرم خرساء أو هي تهذي وتخرف عما هو نذير الانحلال . فمن توهم أنى في هذا المقام أقصد بالكنيسة مجرد الصوامع والكاتدرائيات والدعوة والنبوة مجرد الكلام والترتيل فدعه يقرأ فارغ القلب خلى البال .

« أما عن الديانة الصحيحة والملابس الدينية فأقول ولا أخشى في الحق لومة لائم انه بغير هذه الملابس والنسائج المقدسة ما وجد المجتمع ولن يوجد . فلتكن كانت الحكومة للمجتمع بمثابة جلله الظاهر الذي يضم اجزائه و يقيه ، ولئن كانت طوائف المال وتقايات الصناعات سواء أ كانوا يعملون بأيديهم

(١) عيد اللوقف هو عند اليهود العيد التذكاري لتزول الشريعة على موسى ، وهو عند النصارى العيد الذي كاري للهبطة الكبرى وهي الحفلة التي تبين فيها رسل المسيح ان سيدهم حي لم يمت وأنه في قبيته اقرب اليهم منه في مشهده .

أم بادمفتمهم هي بمثابة الذسائج المضنية والمظنية (الكائنة تحت ظاهر البشرة) والتي بفضلها يستطيع المجتمع أن يقف على قدميه ويعمل بيديه، فإن العناية التي بمثابة النسيج العصبي النخيل والجهاز السموى الباطن يثبت الحياة في جميع الاعضاء، ويثبت الدم جاريًا في كل الاجزاء. فيغير هذا النسيج العصبي والجهاز السموى تصوير النظام والمضلات (واعنى متنوع الصناعات) الى الجود والشلل، فان تحركت فائما يكون ذلك بفضل تيار كهربائي لا بدافع روح حقيقي، ويصبح الجلد قشرة ذابلة ذاوية أو اهابا غفناً حيث الراحة ويمود المجتمع جثة هائنة أحق شئ منها البفن - حيفئذ يكون اجتماع الناس لا بداعنى الشماطف والتآسى ولكن كما تجتمع الهائم، وهذه الحال لا يمكن مع ذلك أن تدوم، بل لا بد أن تنتهى تدريجياً الى تباعض فتتقاطع تقشرق، وبذلك يبقى المقاء حتى على رمة المجتمع. ذلك بمعنى ما اللباس الدينية على المجتمع من فضل، فكلما تأملت ملاك حياة. وقوام نظامه.

ولكن من المحزن أن هذه اللباس الدينية قد أصبحت في عصرنا الراهن اسما لبالية، بل أصبحت شرًا من ذلك، فكل كثيرًا منها قد صار مجرد اشكال جوفاء، وجوهر مستعار، لا تجول فيها حياة ولا تسكنها روح، بل يفض جوفها يحويش من التاكب البشع والمخافس القفرة، بينما الوجه للاستعارة يحدث اليك باعينه الزجاجية، محاولا بشكل مرعب أن يحكي الحياة بمد ان انسجبت منه الروح الدينية، واعتكفت في زاوية منزلة، تنسج لنفسها أروية جديدة سوف تظهر فيها مرة أخرى، فتباركنا نحن أو أولادنا أو أحفادنا. وكما ان الامام الصادق هو افضل الرجال واعلام، فان الامام الكاذب أحط الرجال وأذنام، ومهما راك على جسده من طيالس وبرانس وقلانس

فلسوف تنزع عنه يوماً من الأيام ، لكي تتخذ منها ضادات لجراحات الإنسانية ، أو لكي تحرق وتندى رماداً للاغراض العلمية أو الطبيعية .

الفصل الثالث

في الرموز

قد يكون في بيان نظرية الاستاذ عن الرموز ايضاح لمعنى ما تقدم من اقوال غامضة ، بيد اننا لا نطمح في ايراد نظريته هذه كاملة جلية ، فانك لن تراه اشد استغلاً واستغلاً واستغلاً منه عند الكلام على اليوم ، وأثره في حياة الانسان ، وكيف « ان الانسان وان كان في الظاهر يقوم في نطاق المنظور المحدود يضرب بمروقه ، بفضل اليوم ، في اعماق غير المنظور ذلك الذي لا قرار له ولا غاية ، والذي ما الحياة نفسها إلا رمز له وإشارة » فلنعم اذن هذه التأملات المالية على مثالنا ، ولنقصر عملنا على ان نلتقط (سواء من الاضابير المخطوطة أو من الكتاب المطبوع) ما قد نعثر عليه من عبارات منطقية ، محاولين بكل جهتنا ان ننظم منها كلاماً منسقاً مقبولاً : -

« من ذا الذي يتحدث عن مزايا الاختلاف ، أو يتغنى بفضائل الصناعات والتمكين ! لا جرم ان تبني الهياكل لتجديدها ، لو كانت هذا عصر بناء الهياكل . الصب هو المنصر الذي تنشأ فيه جلائل الامور ، حتى اذا استكملت صورتها ، واستتمت روعتها ، برزت الى ميدان الحياة تصرف زمامه ، وتدير احكامه . وليس ولم^(١) الضامت بالرجل الوحيد الذي كان يحتجن فضل منطقته ،

(١) ملك هولانده الذي حررها من النفوذ الأسباني ، كان مشهوراً بصمته

ويربأ بنفسه عن التحدث بما يصنع والتشقق بما يفعل ، بل كل من اعرف
من عظماء الرجال ، حتى الذين لم ابعث الناس عن فنون السياسة واجهلهم
بأبواب المسكر والخداع ، كانوا كذلك أكثر دهرهم صامتين .

« بل انظر الى نفسك ، وانت تتخبط في مشاكلك التافهة ، واخزن
لسانك ولو يوماً واحداً ، تعلم في الغد كيف استنارت اغراضك واستبانت
واجباتك وكما اكتسح اعوان نفسك الصامتون من القفورات والنفايات ،
حينما انقطعت عنهم متطفلات الاصوات والهوشات .

« ليس الكلام كما يزعم الفرنسيون صناعة اخفاء الفكر وستره ، وانما هو
صناعة احماده وبثه ، حتى لا يعود هناك فكر يستوجب الاخفاء . الكلام
جليل عظيم ، ولكنه ليس الاجل الاعظم . وكذلك يقول المثل الالماني :
الكلام من فضة والصمت من ذهب ، أو كما اقول انا : الكلام وقتي فان ،
والصمت أبدي باق .

« لا يعمل التحل إلا في الظلام ، ولا يشر الفكر إلا في السكون ، كذلك
الفضيلة لا تحيا إلا في الخفاء . وقد جاء في التنزيل : لا تطلعن يسراك على
ما تصنع يمينك ، ولا تبج لقلبك الذي بين جنبيك بتلك الاسرار التي يعلمها
كل انسان . أليس الحياء تربة كل فضيلة ، وأصل كل مكرمة وخلة حميدة ؟
الفضيلة كالنبات لا تنمو ولا تزكو الا اذا اختفى اصلها تحت الثرى ، واختجب
عن عين الضحى ، لا يكاد الضوء يطل عليه ، بل لا تكاد انت تنظر خفية
ليه ، الأجب وذوى ، فلا بهجة ولا زهرة ، ولا روق ولا نضرة اياه يا اخواني
ذا نظرتم الى روضة الزواجر مزدانة بقود الازهار واكليل الزمان ، تحيط
لحياة بهالة من الوان السماء وعبق الجنان ، ثم رأيتم من جاء يقطبها من اصولها

وبريكم ، وهو ضاحك السن مخربة وهزؤا ، اللمنة التي منها نشأت ،
وفوقها ربت واهتزت ، أَيْكم بأني إذ أن يضرب على يدي ذلك الفاتك
الخيث ؟؟ فما بال الناس - لا ألهم - يكترون التحدث بمنافع الصحف
والاطالع ، فأين هذه من فوائد الملابس وابرة الخياط ؟

« وثم شيء آخر اجتمعت له مزايا الانحاء الكثيرة مع مرافق اسمي
وفضائل اسمي : الا وهو الرمز . فالرمز هو مجمع الاعلان والسكران ، وملقى
الصمت والبيان ، يحل فيه بالاقتران شأنهما ، ويتضاعف بالاتفاق خطرهما ،
واذا كان البيان سديداً عالياً ، والصمت شريفاً مناسباً ، فقل في اجتماعهما !
« ذلك بأنه في الرمز ترى الخيال بملكوته المحيى متجلياً في نطاق
المحسوس الضيق الخفير ، بحيث يمتزج به امتزاجاً ، ويندمج فيه اندماجاً . والواقع
أن كل رمز صحيح ، يتضمن على درجات مختلفة من الغموض والوضوح ، شيئاً
من تجلى الابدية وتجسم اللانهاية - فالطلق يمتزج فيه بالملحود حتى تراه
امامك منظوراً ، بل يكاد يكون ملموساً . وبفضل الرموز يهتدى الانسان
وينقى ، ويسعد ويشقى . وهو اينما اجال بصره الى نفسه عاظاً برموز
بعضها معروف وبعضها مجهول : وما العالم اجمع إلا رمز واسع كبير يشير
الى بارئه ، بل ما الانسان نفسه ، إلا رمز يدل على خالقه . وما كل مسمى
يبنله ، وكل عمل يعمله ، إلا رمز يبرز فيه للمشاعر الظاهرة ، بفضل مواهبه
الباطنة . وما كل كوخ يبنيه ، فضلاً على كل قصر يملئه ، إلا وهو جسم
لملوس لفكرة معنوية ، وعلان مناع لإسراخفية ، أو كما يقول الريانيون :
دلالة رمزية كما انها حقيقية »

ثم يقول الاستاذ في موضع آخر بلهجة متأنية كل المنافسة لهذه الالهجة

العالية المحلقة في عنان السماء :والانسان يطعمه يشبه اليوم من بعض نواحيه ،
ولعل اقرب ملقيه من وجوه الشبه الى اليوم تلك الفكرة التي تملكك اليوم :
فكرة للمادية وارجاع كل شيء الى اصلين اوباعثين من الم والملة . اطلال لب
الانسان الاعيب حمة وحيلة غريبة في كل زمان ومكان ، فلقد توهم نفسه كل
شيء حتى لقد توهم نفسه في وقت ما كتلة حية من الزجاج ، ولكن ان توهم
نفسه ميزانا ميتا من الحديد لوزن الآلام واللذات : هذه وأيم الله هي البذعة
التي كان القدر يخفيها لهذا الزمن الاخير . هنالك يقف الانسان وهو لا يرى
في العالم بحفايره الامفودا هائلا قد شحن علفا وشوكا يوازن بينهما ، وانه
يلسترعى الأذنين طويلا : وارحمتك أيها المسكين ! لقد كتب عليك
ان لا تنطق ابدا مطية الاشباح والاهام ، ففي ذلك المصير تركبك المجائر
والساحرات ، وفي ذلك المصير يركبك القسوس والرهبان ، وفي جميع النصور
لا يزال يركبك الشيطان . والآن هاهو مارد المادية قد جثم على صدرك اشد
وطأة من الكابوس الكار ، حتى لقد اوشكت روحك ان ترهق ولم يبق
فيك من الحياة الا قوة هائنة آلية . فاصبحت لا ترى في الارض وفي السماء
الا آلة كبرى لا تخشى سوانها ولا ترجو سواها .

« آه لحي على رقية افك بها عن الانسان عقدة السحر فها هو الآن أقول
له افتح عينيك وانظر حتى يعود بصيرا ! بالله حدثني في أي عصر وفي أي
عصر رأيت الانسان يعيش بمعزود هذه البواعث من الم والملة ؟ أين اخبر
نصور البيانات ، والفروسيات والاصلاحت (١) ، وانا شيد المارسيينات ،

وعهود الإزهايات^(١) ؟ بل انظر الى هذا للبشر الملحي نفسه ، لو لم يزر قلبه طائف الحب ؟ دعه يا صاحبي للوقت انه كليل بشفائه .

ويقول الاستاذ في مكان آخر : « نعم يا اخواني ! انما الانسان خاضع لمملكته الخيالية ، وليس لمملكته المنطقية الحاسية . وانما الخيال في الانسان نبي صادق يسمو به الى جنة النعيم ، أو ساحر دجال يهوى به الى قرارة الجحيم . وما المادة - حتى عند أبله الماديين - الا آلة يستخدمها الخيال وكأس يشرب فيها . ولا يزال في حياة الانسان ، هما بلغت من الخول ، لمة الالهام أو من الجنون (وانك لتخبر بينهما الى حد محدود) تنفذ اليها من محيط الابدية ، وتنفذ الواتها على جزيرة الوقت الصغيرة . واذا كان الفهم هو نافذتك - ولا يمكن ان يكون زجاجها شفافا اتم الشفوف - فان الخيال هو عينك التي تصطبغ بنورها الاشياء ، والتي قد تكون صحيحة أو رمداء . لو لم اشاهد بسني رأسي خمسمائة جندي يمزقون اربا ، ويقطعون للفرمان لقما ، من اجل قطعة من القماش يسمونها « العلم » لوعرضت في السوق لما زاد ثمنها على درهماث ثلاثة ؟ ألم تنهض الامة للهجرة بأسرها ، كما ترخر امواج البحر تحت المظلل القمر ، لأن القيصر يوسف^(٢) وضع في جيبه تاجهم المديني ، وهو على رأى أهل النظر لا يرو على نمل الفرس حجبا وقيمة . وكذلك دأبها الانبياء يعيش بفضل الرموز وحجبا ، ويسهل ويسمى ، شمر بفلك أبيهم يشعرون . وان اشرف البصير تلك التي تدرك بفضل الرموز ، وتجلبها من القيمة اسماءها ،

(١) اشارة الى حكم الارهاب في عهد الثورة الفرنسية .

(٢) هو القيصر فرعونيا جوزيف . ابنه يولور النعماء والمجور . فقهري . انت الحرب المظلمة في اواخر ايامه .

ومن المكاة استناها. فان الميز البصيرة لتجد في كل رمز قبساً من الانوار اللدنية اما ساطعاً باهراً ، واما كليلًا قاتراً.

« بيد انه قد يكون للرموز فضيلتان : عرضية وجوهرية ، وان كان الغالب أن لا يكون لها الا فضيلة عرضية ، مثال ذلك الاعلام الحربية والملابس العسكرية وما ينضم اليها من صنوف الشعارات والدلالات التي تتخذها الشعوب والطوائف . فجميع هذه وما شا كلها ليس لها فضيلة ذاتية بل احرزت فضيلة مكتسبة بأنها صارت لواء يجتمع في ظله الجماهير لأغراض شتى ، تتفاوت نزاهة وطهارة . على أن في هذا الاجتماع بذاته معنى من الفضل السماوى . والواقع ان جميع الرموز ذات القيمة العرضية ، لا تزال منطوية على وميض من الفكرة الآلهية ، كما هو الشأن في الاعلام الحربية ، فانها تدل على فكرة الواجب المقدس والاقدام الشريف وتشير في بعض الأحيان الى الحق والى الحرية . « ولكن الأمر يكون بخلاف ذلك اذا كان للرمز فضيلة جوهرية ، وكان هو في ذاته جديراً بأن يجتمع الناس حوله . دع النور اللدنى يتجلى للحواس البشرية ، دع الابدية تطل في وضوح او غموض من خلال الصورة الوقفية ، فخلق بالناس ان يجتمعوا حول ذلك المظهر ، ويسبوا الله امام ذلك الرمز ، ويضيفوا اليه على كراياهم ومر الليل شرفاً جديداً وفضلاً طريفاً .

« في سلك هذا النوع الأخير من الرموز تتجلى بدايع الفنون والصناعة ، فمن خلال هذه يلوح الانسان (ان كان ممن عيّن البحث من الذين والتكلف من المطبوع) بهاء الأبدية مطلاً من الزمن ، ويرى نور الحقيقة مكشوفاً للبصر . وربما انضاف الى هذا الصنف من الرموز أيضاً عملة هر فضيلة كما رأينا »

كثيرا من الالياذات ^(١) وما مانلها يستفيد خطرا على خطر في مدى ثلاثة آلاف من الاعوام . واشرف ما في هذا النوع من الرموز حياة الأبطال للمهمين : ولاغرو فأية بدبعة من البدائع هي أشرف من حياتهم واقدم ؟ وكذلك موتهم الذي هو تاج حياتهم ولا كليل مجدم ، ألا تلحظ فيه معنى عميقا ورمزا جليلا ؟ ألا إن في ذلك السكون الرائع - سكون الفوز المبين - السائد على الخفا المحبوب - يتبين الانسان (ان امكنته من ذلك سوابق الدموع) التقاء الوقت بالابدية .

« وارق انواع الرموز تلك التي يرتفع بها صاحبها وصانها الى عليا مراتب النبوة ، فيخرج للناس هدى ونورا ، يخرون له سجدا وركوعا : أعنى الرموز الدينية . وكثير ما هي هذه الرموز التي نسميها الاديان ، وهي تختلف باختلاف درجات الانسان في الرقي وبحسب مقدرته على تفهم الامرار الدنيوية ، وتصوير المعاني الربانية . فبعض هذا الصنف من الرموز يكون له فضيلة جوهرية ولكنها سرية الزوال ، وبعضها لا تكون له الا فضيلة عرضية . » واعلم ان الرموز ان كانت تزداد على مضي الوقت شرفا وتقديسا ، فهي اذا تمادى بها القدم عرضة لليلى والفناء . لانها كسائر الظواهر الارضية غير مصنوعة من المهرم ، ولا معصومة من العدم . فالإيالة هو ميروس مثلا ، وان كانت لا تزال صادقة ، قد صارت نائية عن قلوبنا ، غريبة عن شؤوننا ، وامست منا على مسافة قصوى ، كأنها نجم غائر يزداد شامعا كلاله ، وان كان يتضاعف صفاءه ، حتى ليعتذر على المرء ان يتبين انها كانت ذات يوم

(١) جم الياذة، وهي القصيدة الشهيرة للذرية للشاعر اليوناني هوميروس ، واطلقها المؤلف هنا علما على كل قصيدة قديمة لها شأن كبير ولها اسما جميعا .

شمساً عظيمة باهرة ، مالم يستمن على ذلك بمجهر علمي يقرب معانيها البعيدة ويوضح اسرارها الغامضة . وكذلك ترى انه ما من رمز من الرموز إلا وله اجله المحدود ، ويومه الموعود ، حين يدرج في طي الكتمان ، ويهمل في زاوية النسيان . ولا عجب فجميع الاشياء حتى الكواكب السماوية ، ومن باب أولى النيارك الجوية ، لها شروق ومتوع وافول »

ثم يقول الاستاذ بعد ذلك « وخلاصة القول انك اذا أردت الابد والآزال فابحث عنها في ملكات الانسان العميقة المطلقة : في القلب والوهم . واذا أردت الأيلام والاهوام فابحث عنها في ملكاته السطحية المحدودة : في العقل والفهم . لهذا كان من حق الملهمين من الشعراء والفنانين ان ندعوم سلاطين هذا العالم وامراءه ، لانهم يصورون للناس رموزاً جديده وقبسون لهم من السماء نوراً يهتدون بهديه . ولن تخلو الدنيا من أمثال هؤلاء في عصر من المصور ، ولعل عصرنا هذا لم يخل منهم . بيد انا جديرون بأن نمنح لقب المشرع أو الحكيم لمن يستطيع أن يثبت للناس أن هذا الرمز أو ذاك صار بالياً فأصبح غير صالح للاعتداد به ، والاعتماد عليه ، ثم يزيله من امامهم في لطف ورفق . »

الفصل الى ابع

مجد العمل

« اذ ان لا ثالث لها جدير ان مندى بالاكرام ، حقيقان بالاعظام : أولهما ذلك العامل المكمدود ، يكدح بما أوتي من قواه الجسدية وآلاته الارضية في فتح مفايق الارض واخضاعها لحكم الانسان ، فما أشرف عندي تلك

اليد المجلة ، الموجة الخشنة ، فان فيها من صادق الرفعة وبارع الفضل ما يليق بصولجان هذا الكوكب السيار ، وكذلك ما أشرف وما أنبل ذلك الوجه الاشمت الأغبر ، قد دبغت أديمه الاجواء ، واشترقت من خلال شحوبه لمحات ساذج الذكاء ، فما هو الا وجه الرجل يعيش عيشة الرجل ، بل ما أجلك وما أشرفك من اجل خشونتك وسذاجتك وبعالا تزال تقتضينا الرحمة كما تقتضينا المحبة ! أيها الأخ الممرض لبأساء الحياة ! لأجلنا ما قوست فتاتك المعتدلة ، ولأجلنا ما شوهت اعضاؤك المنتظمة ، انت الذي وقمت عليه القرعة ، فراح يحارب دوننا وقائع الدهر ، ويمطى عنا حقوق الكريمة ، فتباك من الكدوح ما نابك ، وأصابك من الجروح ما أصابك . ان فيك لبذرة الهية لو استطاعت الى النماء سيلا ، وأصابت الى التفتح مسافا ! ولكن قضى عليها ان تبقى دفينه تحت مترام أطباق المل واثقال الموم ، وكتب على روحك ، كما كتب على جسمك ، ان لا تنفوق طعم الحرية . ومع ذلك صبرا يا اخي صبرا ! وصمدا الى غرضك صمدا ! انما انت قائم بواجبك المفروض ، ليعدل عنه من يعدل ، انما تكدح لما لا منه بد ، ولا عنه حميد : لاحراز قوت اليوم .

« أما ثاني الرجلين ، وهو عندي أشرف منزلة وأرفع مقاما ، فالذي يكدح لتحقيق ما لا يغناه للروح عنه : لاحراز قوت العمر ، لا قوت اليوم . اليس هو أيضا قائما بواجبه ، عاملا في سبيل الوفاق الباطني ، ساعيا بما أوتي من قوة روحانية وعدة سماوية في فتح مغالق السماء واخضاعها لحكم الانسان ؟ أنذا وجب على الفقير الوضع أن يكدح لكي نحصل على حاجتنا من القوت ، أفلا يجب على السرى ارفع أن يكدح أيضا لكي يحصل الفقير على حاجته

من نور وهدايتو حرية وخلود ؟ - هذان على اختلاف المراتب والدرجات أجلاهما من صميم قلبي ، أما من هداها خفالة وهباء ، دع الريح تذروه أينما نشاء .
« يد أن الروعة كل الروعة ، والرفعة كل الرفعة ، في أن يلتقي المجدان ،
ويجتمع السؤددان ، قترى النقى يكدح ليكنفى الانسان من حاجاته أدناها ،
يكدح أيضاً ليكنفيه من مطالبه أسماها . وهل في الدنيا شيء هو أرفع وأسمى
من قدس فلاح ؟ إنه يرجع بنا الى عهود الوحي والالهام ، قترى جمال السماء
ينبتق من أحماق الارض ، كالنور الضاحك في الظلام الحالك . »

ثم يقول الاستاذ في موضوع آخر . « لامن أجل كده ونصبه أرتى
للفقير وأحزن له ، فكلنا قد كتب علينا ، أما أن نكد وننصب ، وأما أن
نسرق وننصب ، وذلك شر وأدهى . وما كان المخلص من الماملين ليجد
عمله ملهى وملعباً . وإذا كان الفقير عسى جائعاً عطشاً نافعاً قد أعد له طعاماً وشراباً ،
وإذا كان يبيت متعباً حسيباً فأنه يرسل عليه من النوم سباتاً ، فإذا هو في
كروحه الحفير قد حوته سماء من الراحة ندية صافية ، تلوح فيها بوارق
الاحلام بديمة زاهية . وانما النقى من أجله أجزن وأرتى أن يطفأ في الفقير
سراج روحه وأن يعيش ما يعيش في ظلمة داجية لا يأنس فيها شعاعاً من
العلم السماوى كلا ولا الأرضى ، يقضى حياته وقد اكتشفه من الخوف والحنق
شبحان مرعبان ، لا يفارقانه لحظة من الزمان . وآسفاً ! أينما ينو الجسم
هذا النمو العظيم ، فيروح مجدول المرأر والمصب ، وفى الألواح والقصب ،
تبقى الروح قننة مثنية مضغوطة مكروبة ، تسكاد من الضيق تزهق ؟
أهذه أيضاً نفقة من روح الله أطلقت من السماء ولكن كتب عليها
أن تظل في الارض حبيسة لا تتطلق ، ومطوية لا تنتشر ؟ أما لى لا هدم موت

كل إنسان يموت على الجهل مع استطاعته استيعاب العلم بأساة كبرى وفاجعة عظمى ولو تكرر وقوعها في الدقيقة الواحدة عشرين مرة كما تؤكد بعض الاحصاءات .

الفصل الخامس

(النقاء)

لقد يظهر مما تقدم في هذه الفصول الاربعة المحيية وفي كثير سواها من التلميحات والتصريحات المنشورة ثراً في تضاعيف هذا التيه الواسع من الكتاب أن الاستاذ هو أحد الذين يرون المجتمع قد أصبح جثة هامدة أو يكاد ، وأنه لولا ماركب في طباعنا من غرائز التماثر ، ولمورثناه عن أسلافنا من مادات المخالطة ، لقضى على هذه الهيئة الاجتماعية بالانحلال فالتوال ، وذلك حيث يقول :

« أتدعو ذلك مجتمعا حيث لا يوجد للروح الاجتماعية أدنى أثر وحيث الفكرة السائدة ليست فكرة الاقلية في بيت واحد مشترك ، بل فكرة المبيت في خان مزدحم ، حيث ترى كل إنسان في عزلة أياها عزلة ، معرضا عن صاحبه معاديا لأخيه ، يحتفظ كل ماثاله يده ثم يصبح (متاعى وملكي) ويدعي أنه عائش في سلام وأمان ، لأن المكابرة والمهاوغة التي فيها نشق الأكياس وتحز الاعناق لا تقع بواسطة الخناجر والمسدس ، بل بأسلحة هي أذرع فتكا ، حيث المؤاخاة والصداقة قد صارت أضغاث أحلام وحديث خرافة ، حيث أقدمس عشاء رباني ، هو أكلة في مطعم شعى ، يكون فيه

الطباخ هو المبشر الانجيلي ، حيث الواظ لم يخلق له لسان ، إلا لكي يلحق
الصحان ، حيث مرشدوك وحكامك لا يستطيعون لإرشادك بل يصيحون
من جميع الارباء ملء أشداقهم (دع الناس وشأنهم) ؟ ناشدكم الله أيها القوم
أن تربحونا من هدايتكم وتعاوننا من إرشادكم ، فثل هذا النور أشد ظلمة
من حالك الظلام ، في الليل الطامس الاعلام . وأما أنتم فكلوا أجوركم وغطوا
في سباتكم ،

ثم يستمر قائلا : « وكذلك تلاحظ العين البصيرة في كل مكان هذا
المنظر المبهج للانشجان : فقراء كالانعام المهلة يهلكون جوعا وهزا والوتبا ،
وأغنياء أسوأ حالا وأشد بؤسا يهلكون كسلا وكظة وبشما ، يمضي أرفع
الناس مرتبة لا ينال من أوضعهم أقل احترام ولا أدنى تكريمة ، اللهم إلا
كلمات من التزلف والملتق تصدر عن الالسة دون الافئدة ، كذلك التي يحد
بها خادم المنزل على ثقة بأنه سيضيف قيمتها إلى قائمة الحساب » .

ولقد يحق لنا أن ننساءل هنا : أيوجد بيننا معشر الانجيلي أو يين غيرنا
من الاقوام كثير من هذه « العيون البصيرة » التي تتجلى لها تلك الظواهر
الاسيفة ؟ أم تلك مناظر لا يتاح لاحد أن يراها الا من ذلك المرقب الالمني
الرفيع ؟ إن الاستاذ يزعم انه يرى في كل مكان ، أعراض انحلال المجتمع يادية
للعيان ، ويقول فيما يقول : « انظر مثلا أليست فضيلة الفضائل الآن ، وعمل
المفاخرة واللباهاة في هذا الزمان ، ذلك الشيء الذي يدعونه الاستقلال ؟
ألا ترى الى احقر حقير كيف يرفع عقيرته بالتبرؤ من كل شبهة للخضوع
للكبراء ، والاجلال للرؤساء ؟ ويحكم أيها الحق المنفلين ، أما والله لو كان
كبراؤكم أهلا لأن يحكموا ، ولو أنكم اتم كنتم أهلا لان تطيعوا ،

كان في اجلالكم لهم واحترامكم اياهم سبيلكم الوحيد الى الحرية .
ثم يقول الاستاذ في موضع آخر « اما وقد فارقت الروح جسم المجتمع
فهل بقي الا أن يعنى بحرق الجثة صوتاً لها من الثمن ؟ اني لا أنظر طوائف
الاحرار والاقتصاديين والنفعيين يحملون نعشها وهم يرتلون الادعية والانشيد
ميممين كومة الخطب حيث يوقد على الجثة للوقرة بين عويل القليلين وهتاف
الاكثرين . أو قل بمباراة أخرى انه لم يبق اليوم شك في أن أولئك القوم
التي ينسمون بالاحرار والنفعيين وما الى ذلك سوف يلغون مرامهم من
تفكيك أوصال المجتمع وتدمير معظم انظمتهم وهدم أكثر مؤسساته .

« الاترى الى جمهور المال والصناع تلك الطوائف المنتشرة في كل
مكان ، المثلة من همة وتعاون ونشاط ، كيف تنفث يديها هذه المباني
المادية والمذاهب النفعية كأنها نوع من السكب ذريع لا يزال تنتشر عدواه ،
وتنم بلواه ، حتى يعود وجار الدنيا وقد شمله الوباء ؟ فالويل اذن للصيادين !
لقد كان واجباً عليهم أن يسمفوا هذه المجامات بللاء — ماء العلم والحياة —
قبل أن تضع الفرصة وتنشب القصة .

« والواقع ان الدنيا تكابد الآن عملية اتلاف وتدمير . وسواء أمرت
هذه العملية بأدوار التآكل الصامت للملح البطيء ، أم بادوار الاحتراق الصاخب
المفاجيء السريع ، فلا بد أن تنتهي بآبادة أوصاع المجتمع التقديعوا عاصنته منها
أوصاعاً جديدة . هذا حكم القضاء ومن يستطيع أن يعارضه ؟ من ذا الذي
يستطيع أن يقبض بيده على عجلة القدر ، فيقول لروح الزمن « ارجعي
التهقري ! » خير لنا وأولى أن نستسلم لما لا منه بد ، ولا عنه عيص ، بل خير
لنا وأولى أن نرى الخيرة كلها فيه . »

والظاهر أن تيوفلسدروخ قد آثر لنفسه هذا الاستسلام عن طيب خاطر . فلقد رأيناه يقول ان العالم كله قد اصبح « سوقاً هائلة للاسمال البالية » وان « خرق الرموز القدعة » كانت تنهافت في كل مكان ، كالطرهتان ، حتى لكادت تنفصره وتحرقه . فلا عجب أن ينظر بعين الرضى الى عملية اكتساحها واتلافها مادامت تحصل في رفق ولطف . نعم لقد كان يسره أن يشاهد ، وهو آمن في مرقبه ، وحش المادية والنفعية ينطلق - وانما بعد أن يزوم ويخطم ، ويقيد ويلجم - لكى يطأ بسنا بكة المريضة الثقيلة ما هناك من قصور متخربة وهياكل متهدمة حتى يسويها بالتراب ، تمهيداً لتشييد غيرها مما هو خير وابقى . وهذه المناسبة يقول الاستاذ :-

« ليس المجتمع بميت ، فان هذه الجثة الهامدة التى تسميها المجتمع الميت ان هى إلا رداؤه البالى ، نزعته عن نفسه ليرتدى ما هو اشرف وأسمى . أما المجتمع ذاته فلن يزال فى تطور مستمر وارتقاء مستديم ، من حسن الى أحسن ، ومن رفيع الى أرفع ، حتى ينغمس الوقت فى الابدية . فأينما اجتمع اثنان فأكثر من بنى آدم فهناك يكون المجتمع ، أو هناك سيكون ، بمعاداته الدقيقة ومنشأته الجلييلة ، منتشرة على أديم هذا الكوكب الصغير ، ومتصلا بأعلى السماء وقرارة السعير . فانك لن تراه يد الدهر خالياً من ظاهرتين خطيرتين : احدهما تشير الى الله والاخرى الى الشيطان : المنبر والمشتقة . »

ألم يتحدثنا الاستاذ فى غير هذا الموضوع عن « الروح الدينية منعكفة فى بعض الروايات المنعزلة ودائبة فى نسج اردية جلييلة لنفسها ؟ . لعل تيوفلسدروخ نفسه كان أحد أنوالها .

وهنا يشير الاستاذ الى تلك الحكمة المأثورة عن القديس سيمون ، حيث

قال « ان العصر الذهبي ، ذلك الذي وضعت الاساطير المياف في الزمن الماضي ، هو في الحقيقة أملنا في الزمن الآتي ! »

ولكن دعنا واستمع الى ما يقوله في موضع آخر حيث يشبه المجتمع بمنقاء الاساطير ، تلك التي كانت تقدم نفسها قربانا للنار في كل حقبة ، ثم لا تكاد تحترق حتى تنهض من الرماد بمجدة الشباب : -

« وهل عجب أن يتطايّر الشرر حينما ترفرف المنقاء بأجنحتها على الخطب الملتهب ؟ و يلاّ لقد رأيت بضعة ملايين من الرجال ، وفيهم امثال نابليون ، يحترقون كالفراس المتهاافت في ذلك اللهب المندلع . واني ما زلت اخشى ان يلفح شواظ تلك النار بعض الذقون غير المحترسة .

« أما متى ينتهي هذا الاحتراق والتجديد فعلمه عند ربى . لان الانسان يكره التغيير بفطرته ، ومن أرسخ الفرائض التثبت بالتقديم ، فهو قلما يفادر بينه العتيق حتى يتداعى فوق رأسه . ولقد رأيت من الجلالات ما يتلوم كرمميات ، ومن الرموز المقدسة ما يتلوم كظاھر فارغة ، الى مدى نيف وثلاثمائة من الاعوام بعد ان تلاشى منها كل أثر للقداسة والحياة . فليت شمري أفلو عرضت علينا المقادير ان تنجز لنا هذا الاحتراق والتجديد في ظرف قرنين مثلا ، بحيث نجد انفسنا بعد اقضاء هذه المدة عائشين في مجتمع حى وقد فرغنا من الحرب والنضال وأقبلنا على العمل والانتاج ، أفلا يحسن بنا أن نقبل هذا المرض ونغضى الصفقة ؟ »

الفصل السادس

الملابس القديمة

لقد ذكرنا آتقاً ان الاستاذ تيوفلسدروخ ، على ما في ظاهره من خشونة وعجرفة ، هو في الحقيقة من أرق الناس حاشية وافرهم أدبا ، يفيض صدره بمواطف الاحترام ، وينوب قلبه لينا ومائة . والواقع أنه قد أوتي من حسن الأدب المطبوع ما يمد حلية لغريب اطواره وشواذ خصاله ، كما يتعلل بسنا الفجر مدلم السحاب ، فيصير ابهى روتقا من وشى الربيع وآتق بهجة من وشاح السماء ، وكما يصطبغ بأشعة الشمس دخان لندن ، فيعود من فرط اللآلاء ، كالذهب الوضاء . وحسبك على هذا دليلا ما يقوله عن فضيلة التأدب والاحترام :-

« ترى هل سببق واجب الاحترام أخرى الدهور لا يؤديه الا الاغنياء ولا يؤدي لغير الاغنياء ؟ لست أرى اى تلازم بين الحسب والنسب ، وبين الترية الصحيحة وحسن الأدب ، بل عندى ان الترية الصحيحة والآداب الفاضلة هى شىء كامن فى الفطرة ، وان واجب الاحترام مفروض على جميع الناس لجميع الناس ، لا فرق فى ذلك بين فقيرهم وغنيهم ، بلويهم وحضرهم . والواقع أنه لو كان القائلون بأمر تهذيبنا يؤدون واجهم بنصح واخلاص ، لو كانوا هم اهلا لتأدية هذا الواجب الشريف ، لأصلح هذا الفساد مع كثير سواء من الفاسد والاغلاط . نعم ولصار كل انسان لأخيه معلما ناصحا ، ومثالا صالحا ، حتى لا يبق فى العالم قروى جاني الآداب غليظ الطباع ولا قروى جاهل بأسرار علم النبات وبأن الارض التى يفلحها كان بدء خلقها فى السماء .

«أولست يا صاحبي سواء أ كنت تقبض على صولجان الملك ، أم على
محراث الأرض ، انسانا حيا ، ومخلوقا آلهيا ؟ يقول نوفاليز « ليس في الدنيا
الا هيكل مقلمس واحد ، هو جسم الانسان ، لا شيء في الأرض اطهر منه
طهرا وأقدس قلما . وعندى أن من ينحني بين يدي هذا الهيكل الرفيع
فاتما ينحني بين يدي الروح الالهية ، متجلبية في هذه البنية الآدمية . وأنتك
إذ تضع يدك على جسم انسان فاتما تلمس بها عنان السماء . »

« لهذه الاعتبارات كان بوى أن افعل ما لم يفعل احد سواى ، فلا اقتصر
على الانحناء للرؤساء الروحانيين ، ومن يلبس فلانس اصحاب الدين ، كما كان
يفعل الدكتور جونسون الانجليزى ، ولكنى اتحدى أولئك الى كل
انسان يلبس اية فلنسوة ، أو لا يلبس فلنسوة ما . ولا غرو افلا تزال - وإن
لم ينتسب الى زمرة الروحانيين - هيكل مقلمسا ، تتجلبى فيه القدرة الآلهية ،
وتسطع الآية السماوية ؟ ولكنى وأسفاه اجد هذا الانحناء لجميع الناس بلا
تمييز ليس يجدى نفعا . لأن فى قلب الانسان شيطانا كما ان فيه ملاكا ،
والشيطان وحده هو الذى يفوز بالانحناء فى أكثر الاحيان ، اذ يضرب
الغرور بها فى جيبه ، والغرور اجلى مظاهر الشيطان ، فى هذه الازمان . لهذا
السبب وجب علينا أن نحفظ بانحنائنا وأن لا نجود به البتة .

« يدأتى اذا كنت امسك عن اداء واجب الاحترام للانسان ، فلشد
ما اغتبط بان أودى هذا الواجب لتلك القشور والاصداف التى تنزع عن
جسم الانسان ، فتمرض على العين هيئتها لصة ثقية ، غير مشوبة بشئ من
شهوات الشيطانية : تلك القشور هي الملابس المتينة أو الثياب المطروحة .
بل ألا ترى فى الواقع ان أكثر الناس انما يؤدون واجب الاحترام للملابس

بمعناها ، وليس للحيوان ذى القاعنتين الذي يختال في أذيالها ، من ذا الذي رأى منكم أحداً من اللوردات يحبه الناس بتحيته وهو في اسمال رقة وإطمار بالية ؟ غير أن عبادة الثياب وهي على اجسام لا بسياها لا تكون خالصة لوجه الثياب ، بل ممزوجة بشيء من النفاق والخذيمة ، لأن الجسم يتعدى في كثير من الاحوال على حقوق الثياب فيمتصها ما كان موجها اليها . فمن اراد ان يجتنب الكذب - وهو ام الخبائث - فليعدل بعبادته الى سبيل آخر ، ويعلم انه سيجد في الثياب المزوجة وجها صحيحا لتلك العبادة التي تظل ملتوية معكوسة ، مادامت موجهة الى الثياب الملبوسة . وكما ان العابد الهندي يعتقد ان بيت الآله لا يقل عن الآله شرفا وجلالا ، فكذلك انا اعطى الثياب وهي مزوجة من خالص الأعظام وصادق الأجلال ، مثلما ابذل لها وهي على ابدان لا بسياها - بل ازيد لها واربي ، لاني في هذه الحالة لأخشى على نفسي غرورا ، ولا على غيري خداما .

«لله در الملابس العتيقة ! أية عظمة فيها وأى جلال ، وأية مهابة وأى وقار ! تتواضع في شرفها ، وتتجمل في مجدها ، بحيث لا تفر شرز ، ولا همز ولا لمز . تقابل الدنيا برزاة وسكينة ، وترقب الحوادث في هدوء طمأنينة ، لا تقتضي الناس شمل الأعظام ، ولا رهب ان تقوتها منهم مراسم الاحترام . تحفظ القبة صورة الرأس وهيئتها ، ولكن التروير والنباه ، وما ينم عنهما من هذر وهذاء ، قد غفلت وتولى . ويمتد كم الثوب ، ولكن لا للاذى والضرب . ويتدلى السروال ، في ارياح وانسدال ، غير مشدود ، ولا مجهود ، ولكنه يتعلق تعلقا رخيا ، ويتدرج تدرجا نديا . وينبسط الصدر ، في سكون ووقار ، غير خافق بالشهوات الجانحة ، والاطماع الجامحة ، لا يأنس للجوع سمارا ، ولا

للمطش اوارا . وهكذا تجدد الثياب تقية مطهرة ، لا تعلق بها ادران الشهوات ، ولا تشوشها خواجج الزفلفت ، فكانها وهى راكبة على مشجيبها ملاك روحاني ، أروخيالى تقي ، هبط الى الأرض على صهوة براق سماوى !

« ولقد كان من عاذق - وأنا مقيم في مركز الحياة المتحضرة - حاصمة بلاد الانجليز - أتأمل في أحوال البشر ، وأسائل القضاء والقدر ، تحت سماء ذلك الضباب الفاحم ، والدخان الكثيف المترآكم ، كأنه بحر حالك من المداد ، - اقول كان من عاذق يومئذ أن أيمم سوق الملابس القديمة ولا قصد لى الا التذكر والعبادة . فأطوف بالخوانيت المملوءة بالثياب اللييسة ، وكأني لفرط الخشوع أطوف بما كف الارواح الطاهرة . وأظل أتأمل تلك الملابس في سكوتها الفصيح وانذكر كم شاهدت وكم باشرت من افراح وارتاح ، وشهوات وزرعات ، وفضائل ورفائل ، وكل ما ينطوى عليه سجن الحياة من خير وشر ، وحسنات وسيئات . ايه ياخوانى اياكم وذلك الانسان الذى لا ينوب قلبه خشوعاً في حضرة الملابس البالية . وانظروا بعين الاجلال الى ذلك الاملم الاكبر ^(١) الذى يدعوها اليه بصوته المبحوح ، من كل فج طموح ، كأنه اسرافيل ينفتح في الصور ، ليبحث من في القبور . انظروا اليه وعلى رأسه ثلاث قبعات كأنه « البابا » ، وعلى ذراعيه الممدوتين أمثال الاجنحة الخفاقة ، ينشرها فتجثم عليها الملابس المدعوة ، وكلما رفع ذراعه في الهواء ارتفع صوته العميق الرهيب كأنه ينبعث من جوف بوق ويصيح : « هلمى الى ياخيالات الحياة فقد حانت الساعة وجاء يوم الحساب ! » تعالى اليه أيتها الخيالات الرفرفة ، واعلمى أنه سيفسك في مطهره ، ويزيل عنك الادلناس

(١) معنى دلال للملابس القديمة .

والادران، بالليام واليران، وابشرى بيوم تخرجين فيه الى الحياة مرة أخرى
نقية الجيب طاهرة ! وأنت أيها الانسان الذى يوشك لهيب الورع
أن ينطلق، بين جنبيك والذى لم تشعرق في حياتك بصباية التعبد ورقة
الخشوع، لذهب يوما الى سوق الملابس القديمة، وطف في أنحائه، وجل
في أرجائه، ونأمل واعتبر، وتبصر وأذكر، ثم خبرنى ألا يزال قلبك خليا
وعيناك جامدتين؟»

لارب في أن أكثر القراء، ونحن معهم، سيرون في هذا الكلام ضربا
من المبالغة، فكثيراً ماتجولنا نحن أيضاً في سوق الملابس القديمة هذه، فما
كنا نشعر بشيء من صباية التعبد ولا ورقة الخشوع، ولعل بعض السبب في
ذلك يرجع الى أن عملية التفكير والادكار كانت لا تزال تسطل عندنا بفعل
أولئك الدلائل والسماسة الذين يقطنون في تلك الكنيسة^(١) ولا يرحون
يتطفلون على المتعبد بافتراحت كلها دنيوية . أما تيوفلسدروخ فالظاهر أنه
كانت تستولى عليه حالة من تلك الحالات التي لاتدع لدلال أملا في بيع أو
شراء، فكان يترك هناك يتلوم ما شاء، لا يمطل تفكيره معطل، ولا يتطفل
عليه متطفل. لشد والله ما كنا نشتهي أن نرى ذلك الشخص الفيلسفى الضئيل
بقبعته المسنمة « بنطلونه » الفضفاض، وقد اشتعل لهيب الصباية في عينيه
ووراح يحوب تلك السوق الموحاه، ذهبا وإياها، منغمسا في أعماق التأملات،
شارد اللب في رائع الاحلام والتصورات الك الله أيها الفيلسوف لقد كنت
تنصت بينما غيرك يصخب ويلغو، وكنت تسمع بأذانك للرهفة حتى
نحو المشب وهو يهو !

الفصل السابع

النسائج المعنوية

لقد يظهر لنا نحن الذين كان من نصيبنا أن نعيش في الدنيا وعناء المجتمع تحترق ، وتحترق في بقاء شديد ، حتى ليكون من نعم الله علينا لو تم هذا الاحتراق في ظرف قرنين كما يزعم تيوفلسدروخ - تقول لقد يظهر لنا وهذا شأننا أنه ليس امامنا الا مستقبل رمادي ، وانه لن يتاح لنا أن نشاهد في مدى حياتنا غير مظاهر التخریب والتدمير . ولكن هو عليك فالاستاذ يرى غير هذا الرأي ، وذلك حيث يقول :

«ما كان التغيير ليم عادة في أى شيء حتى الا على التدرج ، فالأفمى مثلاً لا تكاد تسليخ رداءها القديم حتى يكون قد حيك تحته رداؤها الجديد . ولشدهما تحطىء اذا كنت تحسب أن سبيل عقاء المجتمع في التبدل هي أن تحترق أولاً حتى تصير ركاباً من الرماد الخامد ، وعندئذ تثب العنقاء الجديدة وثوباً كأنها خلقت بأعجوبة فتطير حلقة في الفضاء . كلامها هذه بسبيلها ! إن عمليتي الأناشاء والافناء يجران سوياً في تلك الزوامة النارية ، فينما ينفى في الهواء رماد القديم تكون النسائج المعنوية للجديد في سبيل التكوين ، ومن خلال عصف الرياح وثوران الزلازل توافي اذنك نغمات أنشودة المماتة الرخيمة منتمية بنغمات أنشودة الميلاذ التي هي ارخم وأعذب ، بل انظر بينك في الزوامة تجد ما أنا واصفه »

اذن فلم أيها القارئ، ننظر بأعيننا في الزوامة . أنه لا أمل لنا معشر الضماف المساكين أن نمر قرنين حتى يتاح لنا أن نستمتع برؤية العنقاء

الجديد متمكنة الحلقة . اذن فلا أقل من أن تنظر إليها وهي في طور التكوين ،
ولنبداً بهذه الملاحظات التي يوردها الأستاذ عن النوع البشرى بوجه عام . -
« عينا ما تحاول انكار الحقيقة : انت اخي برضاك او رغمك . ان
ما تستشعره لي من حقد أو حسد ، وإن ما تقتره عليّ في ساعات غضبك من
أكاذيب سخيفة ما هو الا عطف معكوس . افلو كنت آلة بخارية ،
أكنت تكثر بافتراء الأكاذيب عليّ ؟ كلا وربك ! بل كنت ادور وأطحن ،
غير محتفل بي ولا ملتفت اليّ سواء أسأت الطحن أو أجدته
« عجيب والله امر تلك الملائق التي تربطنا ببعضنا ببعض اما بعري
المودة الناعمة ، أو بسلاسل الضرورة الآتمة او كثيرا ما قلت في نفسي وقد
صادفت شعبا من تلك الاشباح المتبخرة الغريبة ، التي تبث في ذهن
رائيها كل ما شاكلها من الخواطر الغريبة ، « أيه يا أخي أفلو كهؤلاء عليك
بفتة أناء من الزجاج كأعظم ما يتصوره المتصور - أي حادث يكون
ذلك لا بالنسبة اليك خاصة بل بالنسبة الى العالم كله عامة ؟ اذن لرأينا
خطابات البريد ترد اليك بقة أو كثرة ، من كل صوب وحذب ،
فتمصطلم بحيطان الزجاج ولكنها تسقط ولم يقرأ منها حرف . اذن
لا تقطعت رسائلك عن الناس اجمعين لا يصل اليهم منك سؤال ولا جواب .
اذن لا نجست افكارك في خاطرك لا يتلقاها مع محب ولا قلب ودود .
اذن لحرم الناس ثمرات عملك وتحتاج يديك . اذن لا تقطعت عن أن
تكون قلبا حيا ذا أوردة وشرايين يأخذ ويعطي ، ويمت سياله جاريا في
انحاء المكان ، وأثناء الزمان . نعم اذن لقد حدث فتق في رداء الوجود العظيم
العميم ، فصار واجبا رفوه !

« لأن دورة العروق والشرابين ، وأخى تلك المطالبات والاشارات والرسائل الشفوية والطرود البريدية التى ترد اليه وتصدر منه ، لأن هى الاكدورة دموية ظاهرة للعيان . أما الدورة المصبية ، ذات المسارب الخفية ، تلك التى بفضلها لا ينهب شئ من فعاله معادق ، الا ويترك في جميع الناس أثره الأذق ، والتى بفضلها يُدخل بما يرسم على سحته ، السريرة أو الكآبة على كل من لمح بظفرته ، بحيث لا يزال يولد كل جديد من السررات والكآبات - هذه الدورة المصبية هى مما لا يرى بالعين ، بل يدرك بالوهم . أولم يبلغك أنه ما من هندي من متوحش أمريكي وصائدى كلاهما البحرية يتشاحن مع امرأته الا أصاب العالم من مشاحته بعض الاذى ، فأقل ما فى الامر ان ترتفع أسعار القرو ؟ أليس من الحقائق العلمية ان هذه الحصاة اذا لقيتها من يدى تغير لها مركز ثقل الكون ؟

« واذا كان الجيل الواحد يتواشج افراده بعضاً ببعض هذا التواشج العجيب ، فان ارتباط الاجيال المتعاقبة أحدها بالآخر لا يقل عن ذلك وثاقه ومثاقه . ألم تفكر ملياً فى تلك الكلمة العميقة المغزى : الواوة ؟ ألم تر أننا لا نرت عن أسلافنا مجرد الحياة ، بل نرث معها مآثها وحطامها ، قوالها واشكالها ، وأننا نعمل ونسكلم ، بل نفكر ونشعر ، كما فعلنا أبائنا الاولون ؟ من الذى طبع لك مثلاً هذا الكتاب المتواضع فى فلسفة اللباس ؟ لا تلك الشركة التى تبيع اسمها قوماً دلى خلافة ، بل كادمس صاحب طيبة (١) ثم فوست صاحب منتر ، وآخرون لا يحصى لهم عدد ولا يعرفهم خبر . وكذلك لو لم يوجد بولفيل النوطى ملوجد شاكسمير الانجليزى . أيها الابله !

(١) أول من نقل الحروف الهجائية الى بلاد اليونان واخترع فن الكتابة .

إن الذي صنع ابرة خياطك ، وخطاك رداك ، ليس ذلك الصانع الذي نعرفه ، ولا الخياط الذي تمده ، بل هو توبل كان ، أول من استخلم الحديد في مرافق الانسان !

«حقائق كانت الطبيعة شيئا واحداً ومجموعاً حياً لا يقبل التجزئة ، فالنوع البشري ، وهو الصورة التي تمثل الطبيعة وتنشئها والذي لولاه ما كانت الطبيعة ، هو كذلك من باب اولي . وفي جسم هذا المجموع الآدمي العجيب يجري ، بين الكثير من التيارات الخفية ، ذلك التيار الملموس المرئي : تيار الآراء ، متمثلاً في المعاهد العلمية والمنشآت الدينية وعلى الاخص في الكتب . يدع والله ان تعلم ان الموت لا يعرف الى الفكرة سيلاً ، وان صاحب الفكرة كما يحنيها وينشئها من الماضي برمته ، يورثها ويهديها للمستقبل برمته ! وكذلك ترى ان الفؤاد الذكي والعين الجلية اللذان كانا في القرون الاولى لم ينهبا ولم ينمدا ، بل هما باقيات فينا نحن أصحاب القرون الاخيرة ، فنحن بفلك القلب نشعر ، وبفلك العين نبصر .

«وما هو جدير بالاعتبار ومفيد لتقدم هذا المجموع البشري تقسيمه أجيالا . فالجيل هي للبشرية المتعبة بمثابة الايام ، والوفاة والميلاد هما ناقوسا المساء والصباح اللذان يدعوانها الى النوم ثم الى الانتباه لاستئناف التقسم متمشة الجوارح مجددة النشاط . والذي يستطيعه الآباء يستطيعه ويستمتع به الابناء ، ولكن لهم فضلا عنه عملاً خاصاً بهم وواجباً مفروضاً عليهم . وكذلك ترى كل شيء في تقدم مستمر وارتقاء ، فالفنون والمذاهب والعلوم والآراء ، كل ذلك لم يبلغ كماله ولكنه لا يزال يتدرج اليه . لقد تعلم نيوتن ما استكشفه من قبله كبلر ، ولكن نيوتن قد أوتي قوة سماوية جديدة ،

فلا بد له من الصعود الى درجة أرقى في سلم المرفان . وهكذا أيضاً جاء الرسول المسيحي مكملًا للمشرع الاسرائيلي . وإنك لتجسمثل هذا الترتيب والنووب في اعمال النقص والهدم ، التي هي من آن لآخر فرض واجب وضربة لازب . فلوثر وجد من الغفء كفايته في احراق تذاكر الغفران التي أصدرها البابا ولكن فولتير لم يجد في ذلك الرماد الخالي صلا . كافياً ، فاحتاج الى وقود جديد . ذلك شأن الانسانية اينما وجدت في حياتها في حياة وحركة ، في تقدم بطيء أو سريع ، كالتقاء اما محقة في كبد السماء ، ترفرف بأجنحة مبسوطات تملأ الآفاق بالفتاء ، واما كما تفعل الآن - مسفة الى الثرى ، ملفعة باللهيب والظلى ، كي تعود فتخلق الى أفق اعلى ، وتترد بصوت اصفى . »
وهنا يصرح الناشر بأنه لا يلاقى في مبحث من مباحث هذا الفيلسوف من الدهش والحيرة ، بل من العنت والعناء ، مثل ما يلاقيه كلما تعرض به لموضوع السياسة . لذلك نضرب ممفحاً عن الكثير من اقواله في هذا الصدد ونكتفى بإيراد العبارة التالية عن عبادة الاجطال ، ولعلها احدى النساخ المعنوية التي خرجنا للبحث عنها في هذا الفصل : —

« صحيح ان الانسان في هذا الزمان أصبح قادراً على كل شيء تقريباً الا الطاعة ، وصحيح ان العاجز عن الطاعة عاجز لاعمالة من الحرية ، وعاجز من باب أولى من الحكم ، وان الذى ليس هو أنتى من شيء لن يكون أعلى من شيء ، كلا ولا نظير امساوا لشيء . ولكن اياك ان تحسب الانسان قد فقد مع هذا ملكة الخشوع والاجلال ، وانما هي في رقة لا تلبث ان تستفيق منها ، والحق انه ليس أبغض الى ابن آدم من هذا الاستقلال التائر حينما يصبح ضرورة محتمة . ذلك بأنه ليس الا في مباشرة اخوانه على الصفاء

والهبة يستطيع المرء ان يشمر بالعلمانية ، وليس الا بالانحناء في خشوع امام
الذي هو أعلى منه يستطيع المرء ان يشمر بالرفعة .

« ومن ذا الذي يدري فلعل الوصف الحقيقي لمصرنا هذا الثائر المتنرد
ان الانسان قد تحلى بتاتا عن رذيلة الخوف ، وهى الاخس الادنى ، ولكنه
لم يتحل بمد فضيلة الخشوع وهو الرفع الاسمي ؟

« ولانه لمن عجائب صنع الله أنه حينما وجد شئ جدير بالطاعة ، لم يكن
في وسع الانسان الا أن يطيعه . وانه حينما تجلى السر الالهي ولو في أضنف
لحة ، كان من الحال على الانسان أن يقف أمامه جامداً غير خاشع ، لاسيما
إذا كان هذا التجلي يتراءى له في صورة أخيه الانسان . وكذلك لا يزال
يوجد في القلب الأدنى طاعة دينية صادقة ، كلمنة مستسرة ، بل ظاهرة
جلية - حتى في عصرنا هذا - بمظهر « عبادة البطولة » . عجيبة والله هذه
الحقيقة القائمة وهي أن عبادة البطولة مازالت ولا تزال ولن تزال موجودة
في كل زمان ومكان الا يرى القاريء في هذه الحقيقة حجر الزاوية الذي
يمكن أن تتولد عليه دساتير الشعوب وأوضاع الحكومات على مدى الحقب ؟ »
وهنا يقول الاستاذ « أم هل نسبت باريس وفولتير ، وكيف كان ذلك
الشيخ المتهدم القاني ، مع أنه لم يكن إلا فياسوفا ساخرأ متشككا وشاعرا
متلقا مستجديا ، قد أصبح معبود أهل زمانه ، لالسبب سوى أنهم كانوا
يرونه أعقلهم وأفضلهم ، فكانوا جميعا يتشرفون بالاندماج في حاشيته ،
ويتسابقون إلى المثنى في ركابه ، حتى لكان الامراء منهم يرون الفخر كله
في الفوز بابتسامة من ابتساماته ، كما كان الحسان منهم يودون لو يفرشن

عمورهن مداساً لخطواته ؟ نعم لقد كانت باريس كلها يومئذ هيكلًا لمباداة البطولة ، وإن كان المعبود أشبه بالقرود منه بالإنسان ! »

ثم يستطرد الأستاذ قائلاً : « فإذا كانت هذه الثمرة قد جنت من الشجرة القلابة فأي الثمرات تجني من الشجرة الناضرة ؟ إذا كانت أمثال هذه الفضائل تجلي في أحل فترة من تاريخ الإنسانية ، وفي أحل بقعة من القارة ، لاورية ، يوم كانت الحياة الباريسية لاتمدو أن تكون مجموعة من الاعشاب المجففة والازهار الصناعية ، فأى الفضائل يرجى ظهورها متى عادت الحياة راية مورقة ، مهترقوثة ، وأصبح البطل المعبود آدمياً بحثاً ليس فيمن القرود أدنى شبه ؟ ألا فلتعلم أن في الإنسان نزعة لانتأصل للخشوع أمام كل شئ . يستمد القوة من السماء ، بل أمام كل شئ . يوم بأنه يستمد هذه القوة . وإن كنت في شك بما أقول فاحكك إلأن تقنع أى مغفل من أشد الناس غفلة وغباء ، أو أى مغرور من أشد هم تيه وكبرياء ، بأنه في حضرة نفس اكبر من نفسه وأنا الزعيم لك بأنه لاعالة جاث على ركبيه خشوعاً ، وإن تكن مفاصله من فرط التصلب تحكي الحديد الصلب . »

وهلا يلح القارئ فيما يلي نسايج عضوية من نوع آخر (أقرب الى الحقيقة) تنزل وتحاك ؟

« أقول انه لا توجد الآن كنيسة ؟ أقول ان صوت النبوة قد خرس ؟ إنى أنازعك حتى في هذا . ولكن كيف كان الامر ألا ترى أنه لا زال لدينا من التبشير ما فيه كفاية وغناء ؟ إنك لتجد في كل قرية راهباً مبشراً ، ابني لنفسه متبراً ، يسميه في عرفه جريئة ، ويلقى من ذوابته على الناس عقيدته التي بها يدين ، داعياً إياهم الى الصراط المستقيم . أأست تلقى اليه سمماً صاغياً

وقلباً واعياً ؟ تأمل ملياً تجد في كل مكان طائفة جديدة من التساوسة والناسك
يهيئون لانفسهم نظاماً ، وينهمكون في الارشاد والتبشير بحماسة وحرارة ،
اما في نظير الصدقة واما لوجه الله . انهم دائبون في تحطيم الاصنام القديمة ،
ولئن كانوا هم أنفسهم في الغالب من الآثمين ، شأن عظمى الاصنام في المادة ،
فانهم ليخططون مواقع الكنائس الجديدة لمن يأتي بعدهم من الابرار الصالحين ،
حتى يجد هؤلاء السبيل معبداً ، والمكان لمستتميم مبهداً . أو لم أقل لانه قبل
أن يسلم الرءاء القديم يكون قد حيك تحته الرءاء الجديد ؟

« أقول انه لا يوجد الآن دين ؟ ضلة لك من أحق الى أقرر أن
الدين موجود . ألم تفكر ملياً في هذا السيل الزاخر للمزبد الذي نسميه الادب ؟
لانه ليحوي قطعاً رائعة . من صادق الادعية والاوراد سوف ينسحقها الزمن .
وهلا تدري أن في هذا المصّر نبيا يلبس للمصر لبوسه ويتحدث بلهجة ؟
ألا تدري انه يوجد في هذا المصّر انسان يجلي له الدر الالهى ، في كل رفيع وكل
وضيع من مظاهر المؤلف الساذى ، فراح بدوره يجلوه على الناس في اغان
ملهمة تميد للحياة حتى في هذا المصّر - عصر الخرق والاهدام - ما كان لها
من رفة وقداسة ؟ ألا تعرف إنسانا هذه صفته ؟ إلى أعرفه وأسميه - جوتا ،

الفصل الثامن

الحقيقة الباطنية

في هذا القسم للدهش الخطير من الكتاب يصبح الاستاذ لاول مرة
عارفاً ربابياً يرفع عنه الحجاب ، ويصير الحقيقة واللباب ، ويتكهن أخيراً بمد

طول الرياضة والجهاد ، من تذليل فلسفة الملابس المعصية القياد ، فيقبض على ناصيتها ظافرا موقفا . لقد كان عليه قبل أن يصل الى غرضه أن يكفح ما يمترض دون الحقيقة من مختلف الاشباح ، وكان شر ما يلاقيه منها شبحان هائلان ، بالوجود كله محيطان ، اعنى شبحى الزمان والمكان . يبدأ أنه قد أخذ يتلا بينهما وما زال بهما حتى زقهما تمزيقا . وصفوة القول أنه ما برح يمدق في الوجود حتى ذاب وتلاشى كل ما ينطيه من الاغشية الارضية ، والظواهر المرئية ، فاصبح وقد انكشف لعينه المبهورة السر المصور من قدس الاقداس .

نعم هنا تصل بنا فلسفة الملابس الى الحقيقة الباطنية ، فلما استطعنا أن نتب الوتة الاخيرة الباقية علينا لافئنا انفسنا في أرض الميعاد . إذن فالشجاعة الشجاعة أيها القارىء ! لقد أطلنا التأمل في هذا الفصل من الكتاب فلم نجد غير مفهوم ، كلا بل وأيناه كلما زدناه تأملا زادنا إناوة وإيضاحا . فقم أنت بواجبك مصوبا اليه كل ما أوتيت من روية وتفكير ، كما نحن محاولون أن نقوم بواجبنا بحسن الاختيار والترتيب .

والآن اسمع كيف يبدأ الاستاذ قوله بكل هدوء : « ما أحق منزى المعجزات ، إنه لا بعد غورا من كل ما تتصور اريد أن سؤل الاسئلة إنما هو : ما هي المعجزة ؟ لقد كان ملك صيام يرى في قطعة الخبز معجزة ، فكل من تقدم اليه بمضخة هوائية وزجاجة من الأثير كان في استطاعته أن يقوم لديه بمعجزة . كذلك جواى الذى امتطيه والذى هو أقل معرفة من الملك الآنف الذكر أليس يرى أنى أقوم بمعجزة كما شئت أن أبذل درهمين فافتح له حاجز المكس ؟ ولكنى اسمع الكثيرين يتساءلون « البست للمعجزة الحقيقة إنما هي خرق للنواميس الطبيعية ؟ » وجواى عليهم هو هذا

السؤال «وما هي ويحكم هذه النواميس؟» لقد يلوح لي أن قيام الميت من بين الاموات ما كان ليكون خرقا لها بل تأييدا لو اننا عرفنا منها بعض ما خفي عنا .

« وكأني ييمض المتورين يصيح قائلا . « ولكن هل غاب عنك أن المعروف يقينا عن هذه النواميس أنها ثابتة لا تتغير ، وأن آلة الكون مقيدة في سيرها بقواعد لا تقبل التحوير والتبديل ؟ » لعل الامر كما تصفون يا أصعاني ! بل أنا أيضا لا يسمنى غير الاعتقاد بان الله - الذي يؤكد للملمهون الاقنمون انه لا يتقلب ولا يتحول - هو في الواقع لا يتغير البتة ، وأن الطبيعة ، التي لك أن تسميها آلة الكون ، إنما تتحرك طبقا لقواعد لا تقبل تمديلا أو تحويرا . ولكني ، مع التسليم بكل هذا ، أعود فأوجه اليكم هذا السؤال القديم . « ترى ماذا عسي أن تكون هذه القواعد التي لا تقبل التبديل والتحوير ؟ »

وأراكم ستعيون « انها مدونة في كتب المعلوم ، ومقيدة فيما جمع الانسان من التجارب » أو كان الانسان وتجاريه إذن شاهدين يوم الخليفة حتى أحاطوا خبرا بكل ماجرى يرمثذ ؟ أم هل استطاع علماءكم أن يفوصوا في أعماق الوجود حتى وصلوا إلى قراره ، وسبروا كل شيء في أغواره ؟ أم هل كان الخلق جل شأنه قد أطاعهم على سره ، واستشارهم في أمره ، فوقفوا على خطة تدبير الكون ، وصار في طاعتهم أن يؤكدوا القول بان هذا الشيء . مدون فيها وهذا غير مدون ؟ هيئات لاشيء من ذلك البتة . ان هؤلاء العلماء لم يذهبوا الا حيث ذهبنا ، ولم يبلنوا الا حيث بلننا ، وكل ما

يبتازون به عنا أنهم يستشفون بضعة أشبار من أعماق ذلك الخضم الذي لا قرار له ولا ساحل ، ولا أول ولا آخر .

« إن كتاب لابلاس عن النجوم - الذي بشرح لنا كيف تدور بضع سيارات وتواضعها حول شمسنا الموقرة بسرعة معينة وفي مجرى مخصوص - هذا الكتاب له في نظري من القيمة ماله في نظري أي إنسان سواي ، ولكن أهذا هو الذي تدعونه نظام الكون ؟

« نظام الكون وما ادراك ما نظام الكون : ان اتقّب الناس نظرا واكبرهم عقلا ، مهما اتسع نطاق بصره وامتد قاب فكه ، لا يزال يرى ان الطبيعة ذات عمق لا قرار له وانفساح لا غاي له ، وان كل ملخصه البشر من التجارب والعلوم ينحصر في دائرة قرون معدودة وفراسخ معدودة . لقد وقفنا بمض الشيء على مجرى تصرفات الطبيعة في هذا الكوكب السيار ، ولكن من يدري على اي مجار عميقة اخرى يترتب هذا المجري ، واي تروس ودواليب (من الأسباب) مما هو اجل واكبر ، يدير هذا الترس الأذق الأصفر ؟ ان السمكة الصغيرة قد تعرف وتألف جميع ما احتواه جونها الصغير من تقب وزاوية ، وحصاة وقوقمة ، وظاهرة وحادثة ، ولكن هل تدرك السمكة سر مد المحيط وجزره ، وهل تحيط علما بمجاري التيارات ومهاب المواسف ، وهل لها المام بأحوال الرياح الموسمية وشؤون الرياح التجارية وكسوف القمر وخسوفه ، هل تعرف السمكة جميع هذه الامور التي تتوقف عليها الحال في جونها الصغير ، والتي يجوز لها من أن لاخر أن تقلب نظامه وتنكر أحواله من غير أن يكون في ذلك خرق للنواميس الثابتة ، ولا اتيان لمعجزة خارقة ؟ كذلك مثل ابن آدم في هذا الوجود . فالسمكة الصغيرة هي

الانسان ، والجون الضيق هو هذا الكوكب السيار ، والمحيط الفسيح هو ذلك العالم الذى لانهية لانساعه ، والرياح الموسمية والتيارات القورية هى النواميس الخفية التى تجرى عليها المقادير فى متعاقب الابد .

« لانزال نتحدث عن كتاب الطبيعة . لى انه لكتاب لارب فيه خطه الله بقلمه . أترك تحاول أن تقرأه ؟ هل فى طافتك ، هل فى طاقة أى انسان أن يتهجى حروفه ، ولا أقول أن يقرأ مفرداته وجملة وأن يتلو صحفه الواسعة المنشورة فى عرض السماوات والارض وعلى مدى الدهور والاجيال ، بما حوت من بدائع ثرو شعر ، وروائع فلسفة وحكمة ؟ لى انه لكتاب مقدم مصون ، مسطور بحروف هيروغليفية سلاوية ، فطوبى للانبياء أنفسهم اذا استطاعوا أن يفهموا منه سطرا هنا وسطرا هناك ؛ أما مجامع الفلاسفة ومحافل العلماء فأؤثك يماهدون جهاداً صادقا حتى يوفقوا لى التقاط بعض حروفه المكتوبة بالخط المادى ، لا الهيروغلفى ، يتصيدونها من بين سطوره المقتدة وجملة المتعاطلة فيؤلفون منها ما استطاعوا من الوصفات الاقتصادية ذات الفوائد الجزيلة فى الاغراض العملية . ولكن قليل هم الذين يتصورون أن الطبيعة شىء أجل وأعلى من مجلد ضخم يحتوى ما لا يحصى من أمثال هذه الوصفات ، وقليل هم الذين يدركون أنها شىء أعظم وأسمى من كتاب هائل عن تدير المنزل وصناعة الطهى سوف يتوصل الانسان يوما ما الى استظهار محتوياته واكتناه أسرارها .»

ثم يستمر الاستاذ قائلا « إن المادة لتجعلنا جميعا بها مغرفين . تأمل مليا تجد أن المادة هى أعظم النساجين ، وأنها تنسج لكل ما يصر الكون من أرواح وجنيات غلالل من الهواء ، ترتديها فتظهر بها لاهيتنا وقيم يمتثلن

المصانع والبيوت خدمة امناه ، ومهنة نشاطه . ولكن طبيعتها الروحانية تخفى يد النهر عن جمهور الناس . ولطالما تشكت فلسفة من ان المادة قد عصبت ابصارنا من اول الامر ، ومن اننا نفعل كل شيء بالمادة : حتى لنؤمن بالمادة ، ومن ان سوائر أمثالنا وبهياتنا ان هي الا عقائد تلقيناها بالمادة ولم نكاف أنفسنا الارتياب في صحتها . بل حدثني : ماحقيقة الفلسفة ان لم تكن كفاها مستمرامع المادق ومجهدا متجددا للخروج من دائرتها العمياء ؛ وصدمع قيودها المسراء ؟

« إن ما تأتية المادة من فنون الاضاليل وخدع الشعوة شيء لا يحصى ، ولكن ربما كان امهر حيلها اقناعنا بأن الامر للمعجز يصير بفضل التكرار غير معجز . صحيح اننا بهذه الوسيلة نستطيع البقاء في قيد الحياة ، لا نه لا بد للانسان من ان يعمل كما لا بد له من أن يجب . فالى هذا الحد تكون المادة للانسان مرضعة شفيقة ، تهديه الى مراشده الصحيحة . ولكنها تنقلب مرضعة خرقاء أو بالحرى نصبح نحن رضعا مغفلين اذا تمادينا في تصديق هذه الخدعة اثناء ساعات الفراغ وأوقات التأمل والاعتبار . هل حتم على ان انظر الى الظاهرة المعجزة بجمود وبلادة لاني شاهدها مرتين أو مئتي مرة او مليون مرة ؟ لا أرى سببا يحملني على ذلك ، اللهم الا اذا كنت مجرد آلة صماء . ليست عندها موهبة الفكر المماوية الا كوهبة البخار الارضية بالنسبة للآلة البخارية : أعنى قوة بفضلها ينسج القطن ، وبفضلها يحرز المال وما يقوم بالمال . »
« بيد ان خدع المظاهر المتداخلة وابلقها في اخفاء العجب هما ذلك لاظهاره الرئيسيان ، الهيطان بالحياة من جميع الاركان ، اعنى الزملاء والمكان . انهما وداه ان ينزلان لنا قبل الليلا ويسججان ، فلا تكاد النفس ، تلك النفعة

الالهية تهبط الى هذا الوجود حتى يحيط بها ، ويضاهيها ويسمياها ، فيكونا لها كالرقعة الشاملة يترامى عليها كل ماعداها من التهاويل ، أو قل كاللحمة والسدي يحاك بهما كل ماسواهما من الاشباح . وعبثا نحاول ، ونحن في هذه الحياة الدنيا ، أن نخلعها عن أنفسنا ، بل كل ما نستطيعه أن نشقها شقا لا يلبث إلا ريثما نسترق من خلاله لمحة ثم يعود ملتثما في أسرع من خطف البرق .

« لقد زعموا أنه كان « لقور تينانس » طقية تدعي طقية الاماني ، إذا لبسها وتغنى أن يكون في أي مكان لم تكن إلا لمحة الطرف حتى يجد نفسه فيه . بهذه الوسيلة تقلب فور تينانس على المسكان وأغضمه ، بل أفناه واعلمه . فلم يعد لديه شيء يدعى « هناك » بل أصبح كل شيء لديه « هنا » . فلو أن تاجر قبعات اتخذ لنفسه حانوتا في مدينتنا ، وأنشأ يبيع للناس قبعات كهذه على جميع الاشكال ، أي دنيا عجائب وممجزات يصبح يومئذ هذا الوجود الذي نحون فيه اثم تصور أن تاجرا آخر اتخذ لنفسه في الصف المقابل من الشارع دكانا أخرى ، وجعل يبيع فيها قبعات لأفناء الزمان ، كما جعل زميله يبيع في حانوته قبعات لأفناء المسكان ، أي غرائب وبدائع تصبح يومئذ في منازلنا ! تالله لو تحقق ذلك ما ترددت لحظة في شراء قبعتين من كلا النوعين ولو بأخر درهم معي . يا لله أضع فوق رأسي إحدى القبعتين ثم اتصور مجرد التصور أنني في أي مكان شئت من مملكات الله ، فاهي إلا لمحة الطرف حتى أجدني هناك اثم أضع على رأسي قبعتي الاخرى واتصور كذلك أنني في أي زمان شئت ، فاهي إلا لمحة الطرف حتى أجد نفسي قد انتقلت الى ذلك الزمان ! هذا لمر الحق هو العجب الانغم : هذا

التنقل من مبدأ الخليفة الى متنهاها - في هذه اللحظة أكون حاضرا في القرنه الاول من العهد الماضي آتحدث وجها لوجه الى سنيكا وبولص ، وفي اللحظة التالية أكون حاضرا في القرن الواحد والثلاثين من الزمن الآتي آتحدث أيضا وجها لوجه الى سنيكا ذلك الزمان وبولصه بمن لا يزالون عتبتين في ضمير الغيب ، وسوف تتخض عنهم الايلم بلارب ١

« أم هل تحسب هذا أمرا عالا لا سبيل إلى تصوره ؟ أفي ظنك أن الماضي قد تلاشى ولم يمد الا ماضيا ، وأن المستقبل لا ينفك مدموما وليس إلا مستقبلا ؟ إن الجواب على ذلك ليخاص اليك مقدما من هاتين الملتكتين المجهيتين المركبتين في خلقتك : الله كرى والامل . فن خلال هذين المسرين الخفيين تستطيع أنت أيها الراسف في القيود الارضية أن تستحضر الماضي والمستقبل ، وأن تاجيها وان لم يكن إلا بالعبارات المبهمة والاشارات الصامتة . صحيح أن أستار الامس لا تنفك تنسدل ، وأن أستار الند لا تنفك ترتفع ، ولكن هذا لا ينفي أن الامس والند كلاهما كائنا موجود . أنفذ بصرك خلال هذا النشاء الزماني وأنظر في الابدية ، نعم وصدق ما تراه مكتوبا في قدس الاقداس من سريرة الانسان وما لم يزل المفكرون يقرؤونه في تأمل وخشوع على مدى الازمان : أعني أن الزمان والمكان ليسا هما الله ، وإنما هما صنعه ، وأن عند الله كل مكان قائم هنا ، وكل زمان راهن الآن .

« وبعد أفلا تدرك في هذا لحظة من سر الخلود ؟ يا الله ! أهذا القبر الذي أودعته شخص محبوب بصد أن فاضت روحه بين يدي ، والذي يرفع لي على البعد كأنه علم شاحب حزين من أعلام الطريق ، ينفثي كم قطعت في وحدتي من الفراسخ الموحشة الممتدة - أهذا القبر

لبس الاطفا شاحبا ، وخيالا كاذبا ؟ أوليس في الحق ان الفقيه العزيز على لا يزال قائما مع الله هنا ، كما نحن قائمون واباء هنا ؟ ألا فلتعلم أنه لا يفنى ولا يمكن ان يفنى غير الاشباح الزمنية ، اما الروح الحقيقية لاى شيء كان او يكون اوسوف يكون فقاومة هنا ، الآن والى ابد الأبدن .

ولسنا ننكر ان من الامور المناسبة المادلة التي لا مناص منها ولا محيد ان تكون تصوراتنا وتخيلاتنا وافكارنا في جميع شئوننا العملية مكيفة محدة بتأثير الزمان والمكان ، وهما القالبان الذهنيان اللذان افرغنا فيهما لكي نطبق المباشرة في هذا الكوكب السيار . ولكن الذي لا ندرك وجه الحكمة فيه ان يكون لهما مثل هذا التأثير والسلطان على تأملاتنا الروحية المجردة ، بحيث يعميان ابصارنا عن رؤية المعجائب المحددة بنا من كل صوب وحذب . تأمل مليا في فعل الزمان والمكان ، وانظر كيف يحجبان عنا بفشائهما الرقيق ما يخطف الابصار من نور الرحمن . ألا يكون من المعجزات مثلا أن امد يدي فامسك بها قرص الشمس في كبد السماء ؟ ومع ذلك الا ترائي وميا امد يدي وامسك بها كثير من الاشياء ، ثم ارميها ذات اليمين وذات اليسار ؟ أفأنت لاذن طفل مسن حتى تنوم ان سر المعجزة انما ينحصر في كثرة الاميال ، او في هضم الانتقال ، وينيب عنك ان المعجزة الحقيقية الباهرة انما تنحصر في استطاعتى مديدي ، وفي أن لي قوة امسك بها أى شيء . هذا مثل واحد من الامثلة التي لا تحصى على ما يفعله بنا المكان من صنوف الخلدع وضروب التمويه . « وأما من جهة الزمان فالامر أسوأ حالا وأضل سبيلا . فاذا سئلت عن الساحر الأكبر وغنى العجب الاعظم ، فقل هو الزمان الخادع ، ولو كانت لدينا طقعة لاختفاء الزمان نلبسها ولو مرة في العمر ، لرأينا أنفسنا في عالم من

المعجزات لا يقوم أملمه كل ماورد في أساطير الاولين من عجائب السحر وبدائع المخلوقات . ولكنا لسوء الحظ لانك مثل هذه الطقية ، والأنسان مخلوق عاجز لا يستطيع رؤية شىء بدونها .

« ألبس من العجب العجائب مثلاً أن يشيد ارفيوس جدران طيبة لاشىء سوى نجات القيثارة ؟ إذن خدتنى عن شيدهم المدينة التى أسكنها ، فوطد اساسها ، ورفع سمكها ، ودعم عمداتها ، وهندس بيوتها ، ونظم طرقها وأسواقها ؟ اليس هو ارفيوسا آخر ، أعلى من الاول كلة وأرفع صوتا ، أقام بين الناس فى سالف الدهور ، فهدام إلى الحصار والنور ، بنجات مواعظه البالغة ، وموسيقى حكته المنزلة ؟ إن ارفيوسنا الاسمى كان يطوف فى البقعة المقدسة منذ ثمانية عشر قرناً ، وكانت الحانة المذبة السهاوية تقرر آذان الناس فتأخذ بمجامع قلوبهم وألبابهم ، ولا تزال حتى اليوم ، بما فيها من الاخلاص والصديق ، ترن فى مسامعنا ، وتفيض فى قلوبنا ، قهديننا إلى الخير والحق . أ يكون الامر عجبا إذا تم فى ساعتين ، ثم لا يكون عجبا إذا تم فى دهرين ؟ ليست طيبة بالمدينة الوحيدة التى رفعت بانيانها موسيقى ارفيوس ، بل مامن مدينة تبني ، ولا من محل جليل يؤدى ، إلا ويكون السرفيه ، والموحي به موسيقى ارفيوس ملهم .

« امط من بصرك غشاء الزمان ، وتعقب بنظرك إن كنت ذا عينين المسبب القريب الاذني ، إلى سببه البعيد الاقصى . هل الدفعة التى يسري أثرها متقللا فى سلسلة طويلة من مرن الكرات ، تختلف فى جوهرها عن نفس هذه الدفعة لو أنها وجهت مباشرة إلى آخر كرة فارسلتها طائحة فى الفضاء ؟ لحني على طقية لاختفاء الزمان انقلك بها من البدايات إلى النهايات الاذني

لا تكشف النطاء عن بصيرتك ، ولتفرق فؤادك في بحر من النور والسجب ، ولا تضع لك أن هذا العالم البديع هو ، حتى في أحقر مظاهره ، مدينة الله ذات القبة للزدة بالكواكب والدرارى . لاذن لرأيت مجدالى القدير يسطم في باهر ضيائه ، وبارع لألآئه ، من كل نجم في الخضراء ، وكل نجم في النبراء . ولكن ما الحيلة ، والطبيعة التي هي رداء الله الزمانى لا تزال تخفيه عن أعين الجهلاء ، وإن كانت تجلوه لبصائر الحكماء ؟

« ثم هل في الوجود شئ هو أدخل في باب العجب المعجز ، من طيف حقيقى يرى بالمعين ، ويلبس باليدى ؟ لقد ظل الدكتور جونسون طول عمره يتوق إلى مشاهدة طيف كهذا ، فاستطاع إلى بغية سبيلا ، مع أنه طالما اختلف إلى ظلمات القبور ، وقرع توابيت الموتى . ضلة له من غي احمق ! هلا خطر بباله أن يحيل طرف القلب ، كما يحيل طرف الدين ، في تيار الحياة الزاخر الامداد ، الذى مازال يحبه من صميم الفؤاد ؟ هلا خطر بباله أن ينظر مرة ، ولو إلى ذات نفسه ؟ أنت بعينك أيها الدكتور التقي ، طيف حقيقى ترى بالمعين وتلمس باليد كما يشتغى قلبك ، والقرب منك ملايين من الاطيف تعبى الطريق على جانبيك . ها أنا ذا أعيدها مرة أخرى ، أمط عن البصر غشاه الزمان ، واختصر عمر الانسان إلى ثلاث ثوان : ثم قل لى ماذا كنت أنت ، وماذا تكون نحن ؟ ألسنا أرواحا ، أو أطيافا سر بلت هياكل الابدان ، فبرزت للميان ، وماهى الأطراف العين حتى تتلاشى كالهباء ، وتدرج في طى الخفاء ؟ حقيقة علمية ليست باستمارة ولا مجاز : أننا ننشأ من الدم ، ونظهر في صورة البدن ، ونحن بمد أطياف تحيط بها الابدية ، والدقائق عند الابدية أجيال وآزال . أغلا تهبط الينا أغاني الحب والايان كأنها تتناثر من

أوتار عيدان سماوية ، أو كأنها نشيد المقيمين في عليين ؟ ثم أفلا نسمع لناه
في لفظ الخصومة والجدال ، صريراً وعزيفاً كاصوات الجان ، وهلاترانا
طوراً تنساب في الخفاء ، ضعافاً مشوئين خفيفين ، وطوراً تدور في مراقصنا
الموجاء ، صخابين متوثبين مرعبين - حتى ينفجنا الصباح بنسيمه يدعونا
الى دار القرار ، ويستيقظ الليل الهاجس مسفراً عن وجه النهار ؟ أين
الاسكندر المقدوني ؟ أين الفوارس تهتف حوله في حمس الوغى ؟ أين
الكتائب تلعب أسننها في رونق الضحى ؟ هل أقامت بدمه ، أم اقتفت
أثره ، قتلاشت كلها واختفت ، كما تختفي المفاريت اذا أزعجت ؟ أين نابليون
وجحافلُه ؟ أين الوقائع والملاحم ، أين الانتصارات والمزائم ؟ هل كان كل
ذلك الاقتصا للأطياف وطرادا ، أو حش الليل بضجيجه المرعب ثم أمس
املاًساً ؟ - أطياف ! ان منها في هذه اللحظة نيف وألف مليون يدبون على
أديم النعرا ، والشمس في كبد السماء ، يخترق منها بضع خمسين ، ويظهر منها
بضع خمسين ، قبل أن تدق ساعة جيبك دقة واحدة .

« يا لله ! ما أعجب هذا الامر وما أهوله ! أكلنا سيكون طيفا في
المستقبل ، بل كلنا في الواقع ذلك الطيف المستوهل ؟ انى لنا بهذه الجوارح
والاعضاء ، ماهذه القوة العاصفة ، والدماء الحامية ، والشهوات المتلهية ، كل
هذا غبار ، بل هباء : جهاز من الظل يحيط بالنفس ، ويكون من حين الى
حين مبهطاً للوحي . أنظر الى ذلك الفارس المستلثم ، ممتطياً جواده العتيق
ونار الحية تلتهم في عينيه ، والبأس والقوة يجيشان في قلبه وساعديه :
ولكن الفارس والجواد ليسا الاخيالا يتراءى ، وقدرة تتجلى . يطآن الارض
في رزاة وثبات ، كأن الارض مهاد وثيق : ضلة له ! ان هي الاغشاء رقيق ،

ينشق في لمح البصر ، فاذا الفارس وجواده في قمر هاوية لا ينالها مسبار .
مسبار ؟ كلا ان الوم نفسه ليكل دون تمقبها . فيا للمجب منذ قليل من الزمن
لم يكن لهما وجود ، وبعد قليل من الزمن لم يصر لهما وجود ، غنى عليهما
الفناء ، ولم يترك منهما حتى الغفاء .

« وكذلك سنة الله في خلقه من البداية الى النهاية . جيل بعد جيل
يكتسي رداء الجسم ، ويخرج الى عالم الشهادة من ضمير الغيب ، حاملا رسالة
الله بين يديه . يينك كل ما رزق من حول ومن أيد ، فواحد في طاحون
الصناعة ناسب ، وآخر على جبال العلم البواذخ صاعد ، وثالث على صخرة
الشعناء يتحطم وأخاه في كفاح ناشب - وما هي الا كرة الطرف حتى
يدعى الرسول الى وطنه المماوى ، فيسقط عنه الرداء الديويج ، وعلس
عن الميون املاس الطيف الخنى . كذلك يمر موكب البشر برعودم وبروقهم
في قطار تباع ، وصفوف سراع ، يخترقون أعماق الابدية كأنهم فيلق علوى
يحمل صواعق السماء ويراتها ا كذلك نطلع معشر البشر من ظلام الغيوب ،
فنمبر الارض ، وهى مأخوذة ذاهلة ، مسرعين في جلبة وقصيف ، ثم نفطس
مرة أخرى في ظلام الغيوب . فاذا جبال الارض من عبورنا قد نسفت ،
واذا بحار الارض قد ردمت : ومن للارض بدفنا ، وهى مادة فانية ، ونحن
أرواح من الحق باقية . لنا أثر في كل بقعة يجمل ، وطبع قدم في كل صخرة
جلد ، نقرأ ساقنتا المستأخرة ، ما خلف الطلائع المستقدمة . ولكن ناشدتك
الله ! من أين والى أين ؟ الشاعر لا تدرك ، القلب لا يعرف ، انما ننقل من
الغيب الى الغيب ، من الرب الى الرب :

المبش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى . »

الفصل التاسع

نظرة استعراض

هنا يمرض هذا السؤال الخطير : ترى هل أتيح لكثير من القراء أن يطلعوا معنا أرض اليعباد ، وهل شرعت فلسفة الملابس تتكشف أخيراً عن غوامضها ، وتفصح عن بواطنها ؟ لقد كانت الرحلة طويلة شاقة ، حيث ابتدأت من تلك الاغلفة الملموسة للبتلة من قطنية وصوفية يضمها الانسان على ظاهر جسده ، ثم انتقلت الى أرديته اللحمية العجيبة وأجهزته الاجتماعية المدهشة ، حتى أوغلت الى أردية نفسه وغلاثل روحه : الى الزمان والمكان ذاتهما . والآن وقد زعت عن جوهر الانسان الابدى الروحاني تلك اللغائف والاعطية ، أراه قد شرع يتكشف عن حقيقته ؟ هل في استطاعة كثير من القراء أن يلمحوا ، كما سن خلال زجاجة كدرة ، عناصر الطبيعة الالآمية ، وأن يميزوا منها ما هو ثابت دائم ، وما هو قلب حوّل ؟

ان ناشر هذه الصحف ما كان يتوقع توقعاً جدياً ؛ بل كان يمتنى مجرد التمني ، ان يتمكن كثير من القراء من اجتياز ذلك الجسر المضطرب الذي لم يسمع بمثله في الاوان ولا الآخرين ، والذي قد وفق الناشر بمعونة المولى الى انهائه ، ان لم يكن الى اتمامه . نعم ما كان في استطاعتنا ان ننشئ فوق ذلك الخضم المعجاج ، عقداً راسخ الدعائم معبد المنهاج ، بل كان كل ما في طاقتنا ان نلقي على صدره الرجراج سلسلة متموجة من الارماث العائمة ، متجسدين في ذلك من المشاق ما تجشمتنا ، ومكابدين من المخاطر ما كابدنا .

ولكن هل من المستبعد ان يوجد هنا وهناك في الالف واحد من ذوى البصائر الثاقبة قد تمكن هو وأمثاله القليلون من اجتياز هذا الجسر بالرغم من كل صعوبة ؟ ايه يا معشر الاخوان الموفقين ! أهلا بكم وسهلاً ! وصداً فى عملكم صمداً ! ان العين بالرغم من هذا الظلام الحالك لن تلبث حتى تألف ما يحيط بها ، وان اليد لن تلبث حتى تهتدى الى أغراضها ، ولن يعصى إلا القليل حتى يلحق بكم سواكم ، وحتى يبني غير هذا الجسر جسور أخرى ، بل من يدرى فلعل جسرنا هذا الواهن المضطرب قد يصلح ويرم اثنا اجتيازكم اياه جيئة وذهاباً ، فيصبح متيناً غاية المتانة ، وصالحاً للعبور حتى للمرج ؟

يبد أنه لا يسعنا إلا ان نتساءل : أن ذهبت تلك البقية التى لاتحصى ممن بدأوا معنا هذه الرحلة لموئنا جذلاً وأملوا ولكننا لانراهم الساعة بجانبنا ؟ ان أكثرهم قد نكص على عقبيه ، ثم وقف يحقق اليأس عن بعد ، مندهشاً من أقدامنا على هذا المسير المجهول . وكثيرون غيرهم كانوا أوفر من هؤلاء شجاعة فأخذوا يتقدمون ولكن عثرت بهم أقدامهم ، فسقطوا فى غمار اليم تتقاذفهم أمواجه ، بعضهم نحو هذا الشاطئ ، وبعضهم نحو ذاك . وهؤلاء حقيقون بأن ندالهم يد المساعدة ، أو بأن توجه اليهم على الأقل كلمة التشجيع . أو دعنا نقول فى غير استعارة ولا مجاز - والحق ان الاستاذ قد عدنا بهذا الاسلوب - هل يمكن ان يخفى علينا ان كثيرين من القراء يقرؤون الآن هذا الكتاب مصدعى الرؤوس يتساءلون فى حيرة : ما النرض الذى اليه يرمى ، وما الفائدة التى منه ترجى ؟

اما ان كان القصد تموين كبسك أو مساعدة أداتك الماضية من أى

طريق آخر فاعلم أيها القارئ، ان هذا الكتاب لا يؤدي الى غرض ما، ولا
ترجى منه فائدة ما . بل هو على المكس من ذلك ، لانه يكلفك بعض الشيء .
ولكن اذا كانت الاستاذ ، ونحن عن طريقه ، قد سرنا بك الى وادي
الاحلام ، فاستطعت أن تنظر ولو خلسة من خلال سجوف الملابس
الى مملكة المعجائب ، وان تشاهد وتحس ان حياتك اليومية عاطلة
بالمعجب ، ومبنية على المعجب ، وان كل ما يخلق بك ، حتى هذه اللفة
والسرويل ، هي معجزات وخوارق - اذن لكنت قد افدت فائدة
لا تقوم بحال ولا تقدر بشئ .

وفوق هذا أو لم يتبين لك الآن أن كل الرموز ان هي إلا ملابس ،
وان كل المظاهر التي يترامى فيها الروح للبصر أو البصيرة ان هي إلا ملابس .
ومن ثم كانت فلسفة الملابس هذه فلسفة عالية ، خليفة اذا انت درستها أعمق
الدرس بان توثق ثماراً شهية ، وجديرة بان توضع في صف واحد مع العلوم
القانونية والاقتصادية ، بل بان تشرف عليها من عل باعتبارها مصدر روحها
ومبعث روحها ؟

واذا نحن تركنا جانباً هذه الناحية العالية من فلسفة الملابس فاننا لنجد
أية ناحية أخرى مها اذنت الآ ولها شأنها وخطرها ، الا وهي خليفة بان
تؤدي لدى البحث الى نتائج عملية جمة . فلنصرف النظر عن تلك الخواطر
الخصيبة من خلقية وسياسية ورمزية التي تزدحم على ذهن فيلسوف الملابس
وهو لما يتجاوز حبة مباحته ، ولنغض الطرف عن تلك الفكر الفنية التي
تنطوى تحت كل ذي وطراز والتي سوف تتمجج متى أحسن ابرازها
عن تطورات خطيرة - لنضرب صفحاً عن كل هذا ولنجل الطرف لحظة

فما يمكن ان يدعى القمص اللباسى من ابناء آدم - فى تلك الطائفة التى يصح ان تسمى حيوانات الملابس ، تلك المخلوقات التى تعيش وتعيش فى الملابس وتستمد مادة حياتها وغذاء روحها من الملابس : أعنى المتأقين والخياطين .

والحق ان هذه الطائفة لاتزال تاتى من رأى العام ، الذى لما هتد بنور الفلسفة ، ظلموا وعتك . ذلك بانه لا ينفك يسىء فهمها ، بل لا يبرح يتهك حرمة الانسانية فى حقها ، كما سوف يتضح لك من كلام الاستاذ فى الفصلين التالين .

الفصل العاشر

عشيرة المتأقين

يحسن بنا بلدىء بدء أن نأتى على تعريف المتأقى تعريفا علميا دقيقا . فالتأقى هو انسان يلبس الملابس ، انسان لأم له ولا شاغل ، ولا غرض له ولا مأرب إلا لبس الملابس ، فكل ملكة من ملكات عقله وروحه وكل موهبة من مواهب كبسه وجسمه قد وقفت وكرست بشجاعة وبطولة على هذا المطلب الأوحد والغاية القلقة : لبس الملابس بحكمة ولباقة . فهو يمشى ليلبس اذا كان سواء يلبس ليمش ، قد أدرك بالفطرة وعفو البديهة من خطير شأن الملابس ما مجرد لشرحه فى مجلد ضخيم فيلسوف من فلاسفة الالمان منقطع النظير فى سمة اطلاعه وتوقد قريحته ، حتى لتحسب ذلك الانسان قد نزل عليه من الملابس وحى والهام ، فهو شامرها للقلق وصاحب

فكرتها المبدع ، وهو شأن كل صاحب فكرة لا يقر له قرار أو ينفذ ما يمحش في صدره من خلجاتها .

غير عجيب إذن أن يعمد المتأنيق وهو ذلك المتحمص المبدع الى ابراز فكرته من حيز القوة الى حيز الفعل ، واذ يخرج الملام في زى معين وأن يحش بين الناس شاهداً وشهيداً للملابس من زوايا خالصة وفضل مبین . لقد دعونا شاعراً وهل في ذلك من بدع ؟ ألا تراه يتخذ من جسمه قرطاساً منشوراً يرفم عليه بداد من بارع الادب يغ مصيدة غزلية لشيقته ، بل ملحمة حماسية للناس أجمعين ! بل اذ سلمنا بما هو جائز وقلنا إن المتأنيق لا يعلم نصيبه من موهبة التفكير وأنه لم يعض الشيء بحقيقة الزمان والمكان ألا ترى حينئذ أن في اخلاصه المنتاهي للملابس وفي تصوره لتضحية الابدی في سبيل الوقتی والباقي في سبيل الفانی - تقول ألا ترى في ذلك نوعاً (وان كان معكوساً) من ذلك المزج والتوحيد بين الوقت والابدية ، ذلك للمزج الذي رأيناه سر النبوة وجوهرها .

ثم انظر ماذا تراه يطالب من الجزاء على هذا الاستشهاد وعلى ما يقدم للناس من آثار شعر وآيات نبوة . انه لا يبتنى على ذلك أجراً غير الاعتراف بوجوده والتسليم بأنه كثر حتى ، شيء منظور ، أو جسم يمكنه أشعة النور . هو لا يبتنى منك فضة ولا ذهباً ، ولا جاهاً ولا حسباً ، وانما يلتصق نظرة من نظراتك ، ويستتبع لفظة من لفظاتك . أنظر اليه وسواء عليه أفهمت أم لم تفهم مآثيه الباطنية ، وفطنت أم لم تفطن الى منازيه الروحية ، بل حسبته منك أن تنظر اليه وكفى . ألا بعداً لهذا العالم الجحود وبؤساً ! يبعثر قواه البصرية ذات اليدين وذات اليسار دوراً على التماسيح المصبرة وتارة على

الخاليق المشوهة ، ثم يضن ، ألا بلعة عجل أو بلعطة شزرا ، على أعجوبة
المعائب وخارقة الخوارق : الانسان المتأنيق .

عجبا والله ! يهمل المتأنيق هذا الاعمال ، فلا يبنى علماء الحيوان بتعيين
منزلته بين فصائل ذوات الثدي ، ولا يحفل علماء التشريح بتشريحه ، ولا
تهم الحكومات بوضع نماذج منه في المتاحف ، ولا تنبأ المحافل العلمية بحفظ
انواع منه في ممتل السوائل ! يبالغ المتأنيق في تزيين شخصه وتظريف
هندامه ولكن عينا تذهب أتباعه ، فان الجمهور الاعمى مشغول عنه بطلابه
الحيوانية وحوائج البهيمية ، قد أعرض عنه صفحا ، وطوى ثوبه كشعا .

حقا لقد مضى عصر التطلع كما مضى من قبل عصر الفروسية ، ولكننا
نرجو أن تكون فترة نرم لا انقطاع ، فها هي فلسفة الملابس قد نهضت
تبعث الاول من مرقده ، وتنشر الثاني من ملحمه . ومتى فقه الناس أسرار
هذه الفلسفة تكشف بصائرهم حقيقة المتأنيق ، فانكروا معانيه الخفية ، وحلوا
رموزه الباطنية . ونحن رجاء ذلك نسوق لهم فيما يلي قطعة منقطعة من كتاب
الفيلسوف عالم يستمينون بها على تفهم الموضوع واستجلاء غوامضه :

« في هذه الاوقات المضطربة التي طردت فيها الروح الدينية من أكثر
الكنائس ، فهي لما قد قبعت غنينة في قلوب الصالحين تنطلق وتتشوف
وتعمل للتجلى في صورة جديدة ، واما قد خرجت هائمة في احاء الارض
كأنها الروح الحائر يلثس التمس في الجسم المناسب له - في هذه الاوقات
المضطربة فير عجيب ان تعمد الروح الدينية الى التمس على سبيل التجربة
في كثير من الظاهر النورية - مظاهر التعصب والخزفيات . فترى البدعة

تخرج اثر البدعة ، والشيعية تظهر بعد الشيعة ، ولكنها لا تثبت ان ثلاثي متجولة الى مظهر جديد .

« واطهر ما يشاهد هذا في بلاد الانجليز ، لأنها ، وهي اوسع البلدان نروة واسوأها تعلما ، قد احتوت اصلح العناصر (واعنى عنصرى الحرارة والظلمة) لتوليد أمثال هذه الخزعبلات . ومن احدث ما نجم هنالك من هذا القبيل شيعة المتأقين ، واذ كان المذهب هذه الشيعة ارتباط وثيق بموضوع هذا الكتاب فقد رأينا من المناسب ان نثبت هنا ما جئناه منها من قليل المعلومات . .

« صحيح ان بعض الصحفيين الانجليز ، وم قوم لا يفقهون من الروح الدينية شيئا ، يتبرون هذه الطائفة أصحاب مذهب دنيوى لامذهب دينى . ولكن صاحب العين البصيرة لا يلبث أن يتبين ما ينطوي عليه من مذهبهم من معانى الزهد والتقوى بل من معانى التضحية والبذل . علي انى لست أدري بعد الى أى فريق تنتمى هذه الشيعة : ألى عباد الاوتان ، أم الى عباد الابطال ، أم الى القائلين بتعدد الارباب . وأكبر ظنى ان مذهب المتأقين هذا هو صورة جديدة مطابقة لمقتضيات العصر من ذلك المذهب القطرى العتيق : مذهب « عبادة النفس » . لهذه الاسباب وبحسب ما انضح لى حتى الآن ، ليس لى اعتراض على من شاء أن يسمى هذا المذهب صورة جديدة من عبادة الشيطان .

« وكيفما دار الامر فأصحاب هذا المذهب - شأن أصحاب كل مذهب جديد - هم قوم متحمسون ، يظهرون كثيراً من الشجاعة والجلد ، ويتعاشون التدنس بمخالطة غيرهم ، ويميزون أنفسهم بنوع مخصوص من

اللباس وأسلوب مخصوص في الكلام . وجملة القول انهم مخلصون لمذهبيهم يحاولون أن يعيشوا عن الدنيا بعزل ، وأن لا يصيبهم من أوجاسها قذى . « وهؤلاء القوم معايدهم ، وتسمى في عرفهم : معارض الازياء ، أو أبهاء الرقص ، وأكثر ما يقيمون مناسكهم في جوف الليل ، ولهم كهانهم وكاهناتهم ، ولكن هؤلاء لا يتقلدون مناصبهم طول العمر . وهم يتكثرون شعائرهم كل التكتم . ولهم أيضاً كتبهم المقدسة . وهي في عرفهم الروايات الحديثة . » ولقد وفقت ، بتكبد شيء من التفقة طبعاً ، الى احراز طاقة من هذه الكتب ، فأكبت على قراءتها محاولاً تفسيرها ودراستها بكل ما أوتيت من فهم وما عندي لموضوع الملابس من تحمس . ولكن تعبي ذهب ادراج الرياح ، ولاول مرة في حياتي وجدت أن ملكة القراءة ، تلك التي مازلت اعتدبها ولا أحسب أحداً ينكرها عليّ ، قد عجزت ولم تمن عني شيئاً . فعبثاً ما كنت أستجمع كل قواي ، وعبثاً ما كنت أبذل أقصى مجهودي ، اذ كنت لا أكاد أتناول الواحدة من هذه الروايات وأقضى في مطالعتها لحظة حتى أحس كأن دويهاً ثلثياً صمخ أذني ، وكأن دمدمة مرعبة تمزق غشاء مخي ، ثم يدقب ذلك سبات مغناطيسي كأشد ما يكون السبات اجهاداً للاعصاب وازعاجاً . فاذا حاولت أن أدافع هذا الكابوس عن نفسي ، وأن لا أستسلم له الاستسلام كله تولاني شعور لم يخالجنى أبداً من قبل مثله ، فأحس كأنني هابط في منحدر الهذيان ، وكأنني أوشك أن ينسي عليّ انحاء يفقدني كل احساس . وأخيراً بناء على أمر الطيب ، وخشية أن تصاب كل قواي العقلية والبدنية بالتلف وأن يحل بينتي انحلال عام ، أقلمت كارها . ولكن مصماً ، من هذه المحاولات للملكة العقيمة . عجباً والله اهل في

الامر سر ؟ هل ههنا أمثال تلك الارصاد التي يزعمون انها تحرس هياكل المؤمنين من تهجم الكفار ؟ بيد انه كيفما دار الامر فانحسب القارئ ، بعد هذا الاخفاق بالرغم من هذه المجهودات ، الا مفسحا لنا ساحة العذر اذا جاءت الصورة التي نحن موردوها عن تشيرة المتأقين مبتورة غير وافية « واذ كنت غير مستغن لاعتى حياتى ولا عن حواسى فليس في الارض قوة تستطيع حمل على ان افتح مرة أخرى رواية من هذه الروايات . ولكن من حسن الحظ ان تمتد الي ، واني لفي هذه الحيرة ، يد من السحاب جاءتني ، ان لم يكن بالفتح المبين ، فلي الاقل بالخلاص . ذلك اني كنت ذات يوم أفض لقافة بها بعض المطبوعات الواردة من بلاد الانجائز ، فوجدت بين الطيات الداخلة من غلافها بعض الاوراق المطبوعة كهاى المادة ، فلم استنكف ان انظر فيها بنوع من الاحترام كذاي يستشعره المسلمون حتى للاوراق المنبوذة ، حيث يصادف أحياناً ان يقف الاستاذ على معلومات طريفة . فليتصور القارئ دهشتي اذ وجدت على بعض هذه الاوراق السائبة التي تخيل الى انها جزء من مجلة انجليزية ما يشبه ان يكون مقالا عن نفس هذا الموضوع : موضوع الروايات الحديثة . فسرعان ما أخذت في قراءته وبجته ، فاذا به على غموضه يتضمن هنا وههنا لمحات نيرات في صميم مذهب المتأقين ، وأم ما عثرت عليه من هذا القليل بيان بما يصح ان يسمى اركان ملة الاناقة أو وصاياها المقدسة . واذ لم يكن عندي ادنى شك في صحة المصدر المستقى منه هذا البيان قاني أثبتة هنا بنصه ، ومبالة في الحيلة من الوقوع في الخطأ ها أناذا أترجه للقراء بحرفه : -

« أركان الملة »

- (١) غير مباح ان يكون في تفصيل الثياب شيء على هيئة المثلث ، وغير مباح كذلك ان يكون فيها شيء من التجمد من الخلف .
- (٢) الياقة أمر مهم جداً ويجب ان تكون منخفضة من الورا .
- (٣) لا شيء أدل على سلامة ذوق المرء من خواتمه
- (٤) مباح للناس ، مع مراعاة بعض القيود ، ان يلبسوا صدارات بيضاء .
- (٥) يجب ان يكون البنطلون ضيقاً جداً حول الفخذين .

« يناقض شيعة المتأقين هذه على خط مستقيم شيعة بر يطانية أخرى ، اصل منشئها في ايرلندة ولكنها آخذة في الانتشار في كل مكان من الجزر البر يطانية . واذ لم يكن لهذه الشيعة كتب دينية تفسر ملتها وتوضح مذهبها فانه يحيط بها من الغموض مثل ما يحيط بشيعة المتأقين التي وان تكن لها كتب مقلدة الا انها كتب كدمها لا يستطيع العقل البشري ان يفهم من اسرارها شيئاً . واعضاء هذه الشيعة يتسمون باسماء مختلفة باختلاف أماكنتهم ، ولكن هنالك اسماً عاماً يطلق على المشيرة كلها وهو الفقراء الارقاء ، فنكتفي به ونضرب عن سائر الاسماء صفحاً .

« وانه ليكاد يكون من المتعذر ان نهتدى الى ما نعتقه هذه المشيرة من معتقدات فطرية ، وان نقف على آرائها في الكون وفي الانسان وفي حياة الانسان ، وأن ندرك ما يحتاج الفرد من اعضائها من العواطف وهو ينظر خلفه الى الماضي أو يتلفت حوله في الحاضر أو يتطلع أمامه الى المستقبل . وانه ليلوح للتأمل في نظام هذه المشيرة انه مصطبغ بصبغة الرهبنة ، فانك تراهم مقيدون بنفزين من نذور الرهبان : نذر الفقر ونذر الطاعة . وهم

يتسكون بهذين النذرين ، ولا سيما نذر الفقر ، أشد التمسك . بل لقد علمت
انهم منذورون للفقر حتى قبل مولدهم . أما النذر الثالث من نذور الرهبنة وهو
نذر العفاف فليس ثمة ما يحملنى على الظن بأنهم يتقيدون به .

« والظاهر انهم يقلدون عشيرة للتأتين في مبدأهم الاعظم وهو اتخاذ
لباس مخصوص . بيد انه لا أمل للقاريء في ان يجد هنا وصفا لهذا اللباس
الذى لا سبيل الى وصفه بهذه الأداة العاجزة : أداة اللغة . والواقع انه ليس
الاجمعة لا تحصى من الخرق والمزق والرقع متخذة من جميع أصناف
الاقشة وجميع ضروب الالوان ، وهم يدرجون أجسامهم في طيات تعاريجها
وتلافيفه بطريقة غريبة غير معروفة . واجزاء هذا اللباس مترابط بعضها
ببعض بمجموعة من الازرة والاربطة يضاف اليها في كثير من الاحيان
حزام من الجلد أو من الكتان أو من القش يلف حول الخصر . والظاهر
انهم يفضلون القش ، حتى لقد يتخذون منه نعالهم في أكثر الاحيان .

« ولقد ينجل الى التأمل أن هؤلاء القوم هم من عباد الارض ، فأنهم
لا يخرجون عن أحد فريقين : فريق دائم على الحفر فيها منغم بالعمل في
جوفها ^(١) ، وفريق محبوس في خلوات خاصة لاعمل له الا التأمل في المواد
المستخرجة منها ومعالجتها ^(٢) ، ولذلك تراهم كلما يرفعون أبصارهم نحو
السموات كالبسملوية ، وان فعلوا في جود لا تحتلجهم عاطفة . وهم يعيشون في
مساكن مظلمة ، بل لقد تراهم يمدون الى تكسير زجاج نوافضهم حيثما
يجدون شيئا منه ، ثم يسدون بها يعض الخرق أو ماعداها من المواد الكثيفة
حتى تمود الى المسكن ظلمته المناسبة . وهم ، شأن كل عباد الطبيعة ، معرضون

لاقتحارات من الخمس تبلغ حد التوحش ، فتراهم يحرقون الآدميين ،
ان لم يكن في كبان الاوثان الخشبية ، فين جدران الأكوخ الطينية .
«وهؤلاء القوم من حيث المأكل قواعد راعونها ، فهم جميعاً على ما يظهر
من أكلة الجنور ، وقليل منهم يأكلون السمك المملح ، أملما هذا ذلك من
أصناف اللحوم فحرم عندهم . على أنهم يحلون أكل الحيوان القوي يموت
موتاً طبيعياً ، فهم في ذلك يتأقضون المسلمين والبرامحة . وأكثراً ما يأكلون
الجنور المعروف بالبطاطس ، يأكلونه قفاراً بلا ادام . وأما شرايهم فلونان
متناقضان أشد التناقض : الابن وهو أرق السوائل مزاجاً ، و«البوتين» وهو
أعنف الأشربة سورة . ولقد اتيج لى أن أذوق هذا الشراب فاذا به يحوى
نوعاً من الكحول في أعلى درجة من التركيز ، واذا به على الجملة احرق مادة
تفوقها لسانى ، ولك أن تسميه اذا شئت ناراً سائلة . على أنهم يستهلكون
منه كيات غزيرة ، ووجوده يوفرة أمر لا بد منه في جميع حفلاتهم الدينية .
ولقد أعطانا أحد السياح الارلنديين صورة لداخلية بيت أهله على
ما يظهر من اتباع هذه الملة . وهكذا سيتاح للقراء من الالمان أن يشاهدوا فقيراً
ارلندياً ، كأهم يرونه بأعينهم ، بل أن يشاهدوه وهو يتناول طعامه . وكنا
قد عثرنا في تلك الصحيفة القيمة التى وجدناها في غلاف اللقافة على صورة
لداخلية بيت لأحد المتأقين . فرأينا من باب المقابلة أن تثبهاى الاخرى هنا .

وصف لمسكن فقير

« يشتمل الاثاث على قدر كبيرة من الحديد ومنضدتين من الخشب
ومقعدتين وكريسين وزق للبوتين . والجزء الاعلى من المسكن عبارة عن

صندلية يصعد اليها بسلام وينام فيها أهل البيت . أما القسم الاسفل فشطور
شطرين : واحد للبقرة والخنزير والاخر لجلوس أهل البيت والضيوف .
ولما دخلنا البيت وجدنا أهله يتناولون الطعام ، وكانوا احد عشر شخصا ،
وكان الاب جالسا في صدر المائدة والام في الناحية المقابلة له والاولاد
مصطفون على الجانبين ، وكانت المائدة عبارة عن كتلة من الخشب في وسطها
تقره تلقى فيها عتويات قدر البطاطس ، وعلى أبعاد متساوية بطول دائرتها
تقوب صغيرة يوضع فيها الملح . وكان فوق المائدة وطاب مملوء لبنا . أما عدا
ذلك من الاهوات كالملاعق والشوك والصحاف ، ومن اطايب الاطعمة
كاللحوم ولباب البر والجمة فكل هذا قد استخفى القوم عنه . وكان رب
البيت رجلا عريض الالواح ، أغبر السحنة ، شديد الاسر ، يمتد شدة من
الأذن الى الأذن . أما زوجته فامرأة ملوحة البشرة ولكنها مليحة التقاسيم ،
وكان الصنار عرايا يهتمون الطعام بشبهة العقبان .

وصف لمسكن متأنق

« غرفة «تواليت» فاخرة الرياش ذات ستائر بنفسجية وكراسي واراتك
من اللون عينه ، وبها منضدة على جانبيها مرآتان بطول الانسان ، وفي ناحية
أخرى منضدة أصفر حجبا مرصعة بالصدف وعليها زجاجات عدة مملوءة
بأنواع الطيوب والمطور ومرتبة على نظام بديع . وفي الجهة المقابلة ادوات
الاغتسال وكلها من خالص الفضة . وعلى اليسار خزانة الملابس من خشب
الصننل الماطر نفص بما أودعت من فخر الثياب وتحتل رفوفها السفلى ازواج
عدة من الاحذية هي النفاية في صغر الحجم ودقة الصنع . وعلى اليسار باب
منخفض يلمح منه الناظر غرفة الحمام تتألق بمحتوياتها تألقا ،

« هاتان هما الشيعتان اللتان تقسمان فيما بينهما الشطر غير المستقر من الشعب البريطاني - والظاهر أن شيعة الفقراء ، أولا الاجراء كما يدعون أحيانا ، آخذة كل آن في الازدياد عددا وقوة . أما شيعة المتأقين فلبس من طبعها ان تسمى لا كسباب الانصار ، ولكنها اتتمد على مواردها الوراثية العظيمة ، وهي قوية باتحادها خلافا لشيعة الاجراء التي لا تزال متفرقة احزابا لا تجمع بينها رابطة . ولذلك ترى المتأقين يقتحمون الاجراء بعيونهم ، ولكن لعل ساعة الامتحان اذ يتبين بجلاء أى الشيعتين أحق بأن تقسم الاخرى بنظرها ليست بعيدة كل البعد .

« والذي يلوح لى أن هاتين الشيعتين ستقسمان بلاد الانجليز فيما بينهما يوما من الايام ، بعد أن تضما اليهما كل ما هناك من الطبقات التي هي الان فاصلة بينهما ، وغير متمية الى أيهما . عندئذ نجد الشعب البريطاني قد انشطر الى معسكرين : معسكر المتأقين ومن يلوذ بكنفهم ، ومعسكر الاجراء الارقاء . ومن ينضوى الى لوائهم . وأنى لاشبه هاتين الشيعتين بدوامتين فوارتين قد انفجرتا على الجانبين المتقابلين من الارض اليابسة تبداوان الآن كأنهما حينان هدارتان مزبدتان لا يعجز الانسان ودعها ، ولكن تأمل فيها مليا ، تجد قطريها يزدادان اتساما في كل آن ، انها في الواقع فوهتا بركان متصل باحاق الهاوية التي ماهذه الارض اليابسة الاقشرة رقيقة على منها الموار . وهكذا تجد الارض الفاصلة بين الدوامتين آخذة كل يوم في الانهيار ، كما تجد كلا من الفوهتين آخذة كل يوم في الاستنهار ، حتى لا يبقى فاصل بينهما الا برزخ أدق من الصراط ، ثم لا يلبث هذا حتى يكتسح أيضا ، وعندئذ -

عندئذ لا يروحك الا أبواب الجحيم قد انفتحت ، فاذا الطوفان الذى يفرق
طوفان نوح فى ضحضاحه ا

« أو قل اذا شئت إن هاتين الشيعتين هما أشبه شيء بآلتين كهربائيتين
هاتئتين لا نظير لهما ، مشتملتين على بطاريات متضادة : احداها وهى شيعة
الاجراء ذات بطاريات سلبية ، والاخرى وهى شيعة المتأقين ذات بطاريات
ايجابية ، فهذه تجذب اليها كل مافى الامة من كهربائية ايجابية (أعنى المال)
وتلك تجذب اليها كل مافى الامة من كهربائية سلبية (أعنى الجوع) . ولئن
كنت لم تلح فيما يندما حتى الآن الاشارات متقطعة جزئية ، فانتظر قليلا
حتى تصبح الأمة كلها فى حالة متكررة ، حتى تعود الكهربية الحيوية
باسرها ، لا كما كانت فى حالة تعادل صحى ، بل منشطرة شطرين منزعجين
من ايجابي وسلبي (من مال ومن جوع) كل منهما مشحون بمفرده فى بطارياته
الخاصة . لاذك يكتفى أن يحرك طفل أصبعه حتى يلتقى الضدان ، وعندئذ
- عندئذ تقع الواقعة التى تذر الارض فى دما دمها رمادا هائيا ، فاذا الشمس قد
فقدت أحد كواكبها السيارة ، واذا القمر أصبح لا يرهب خسوفاً !
« أو قل اذا شئت ... »

كلا ! بل حسبنا تشبيهات واستعارات لا تدرى فى الواقع ابناً ، نحن ام
الاستاذ ، قد بذ صاحبه فى ميدانها .

لطالما عتبنا على الاستاذ ليله الى الاسهاب والاعراق ، ولطالما آتسنا منه
نزته الى الباطنية والى تأمل كل شيء من الناحية الدينية ، ولكن الحق أن
هذه النزعة وذلك الميل لم يفسدا عليه نظره ، الذى عهدنا به ان يقب من الشهاب ،
كما أفسده عليه فى هذا الفصل المنون « بشيرة المتأقين » . ام هل ترى الاستاذ

لا يقصد بقوله هذه الى الجذ ولكن الى التهم ، وانه ليس من النبوة والمشاورة بحيث يتكلف أن يكون ؟ أما لو كنا زاءا نسان عادى لما ترددنا في الرد بالايجاب ، ولكن بالنسبة لرجل غريب الاطوار كاللا-تاذ لا يستطيع المرء أن يخلص من الارتياب .

والآن نورد ملاحظات الاستاذ عن طائفة الخياطين ، ومن حسن الحظ ان رأينا هنا يتفق تعلم الاتفاق ورأي الفيلسوف كما دونه في الصفحة الأخيرة من كتابه ، اذن فلنتركه يدلى الى القارىء بكلماته الختامية : -

«لابد أن ينقضي نصف قرن ونزاع الحرية الدائم مشوب لظاه ، وشيطان الظلم ينهب بضحاياه ، وملاك العدل يأخذ شهداءه ، قبل أن يعترف للخياطين بحقوقهم في الآدمية ، وقبل أن يندمل بهذا الاعتراف آخر جرح في جسم الانسانية .

« والواقع أنه اذا كان في تاريخ النبوة شيء يدهو الي العجب ، فهنا يحق لنا أن نقف ونعجب . لقد نبئت فكرة انتشرت اياما انتشارا ، واستقرت في الأذهان اياما استقرارا ، مؤداها أن الخياط ليس بأنسان ، وانما هو جزء من الانسان . فأصبح الخياط وكل ما يلبسه موضع الازدراء ، حتى لو أنك نبزت امرأة بلقب خياط لاجتلبت بذلك عداوته اللداء .

« ولكن اذا لم يكن سهرى اليسالى الطوال ، ومواصى البحث بلا تعب ولا ملال ؛ سيذهبان أدراج الرياح فلست أشك في أن الدنيا ستنبذ الآن هذه الفكرة الخاطئة ، وفي أنه سوف يتضح للناس بكل جلاء أن الخياط ليس انسانا نجس ، بل هو بمعنى ما خالق أو آله .

لقد قيل عن فرانكلن انه اثنع الصاعقة من السماء والصولجان من الملوك ، ولكنى أقول متساؤلا : ايها أعظم شأننا ، الذى يعطى ويمنع ، ام الذى يسلب وينزع ؟ الا ترى الى الخياط كيف يتناول الانسان حاريا فيخرج من يديه كلسيا ، عليه رداء ، لامين مجرد الصوف أو القطن ، بل من المجد والملاء ، والسودد والسناء ؟ اليس هذا النسيج البديع ، نسيج الهيئة الاجتماعية بما حوى من حلل ملوكية وطيالس كهنوتية انتشلت الانسانية من حالة العرى والتفرق فنظمتها هيئات متعاونة وجماعات متضامنة. اليس هذا النسيج من صنع الخياط وحده ، كما أقننا على ذلك غير مرة الدليل الساطع ، والبرهان القاطع ؟ بل حدثنى اليس كل شعرائك و، حلييك الروحانيين ضربا من الخياطين المجازيين ؟

«وهذا اذن هو الذى يجلس فى حاتوته منكس الرأس ، قد ضربت عليه المسكنة ، وتناولته من كل ناحية نظرات الاحتقار اياه أيها المضطهد المستضعف ! ارفع رأسك وانظر بعين الامل المشرقة ، وابشر بقدم عهد سعيد . لظالما جلست فى حاتوتك مكبا على عمالك ، كانك ناسك فى صومته ، مستغرق فى العبادة ، يستنزل من السماء أطيب بركاتها على عالم يسخر منه ويهزأ به . ولكن صبرا ! صبرا ! هاهى تباشير الفجر قد لاحت من خلال السحب السوداء ، مبشرة بان ظلمات الجهل توشك أن تتمزق ، وبان وجه الصباح يوشك أن يشرق ، وعندئذ تودى اليك الانسانية دينها المطول مضاعفا ، ويصبح الناسك المزدرى معبودا مبجلا ، نعم ويصير الكسور رقا صحيحا ، بل مرربا ومكعبا .»

(تم الكتاب بعون الله)

فهرست الكتاب

رقم الصفحة

(الكتاب الاول)

الفصل الاول . مقدمة	٩
» الثاني . مصاعب في سبيل النشر	١٤
» الثالث . ذكريات	١٧
» الرابع . مميزات وخصائص	٢٨
» الخامس . الدنيا في الملابس	٣٥
» السادس . في المبالل والملابس التاريخية	٤٠
» السابع . الدنيا مجردة من الملابس	٤٢
» الثامن . في التجرد	٤٩
» التاسع . المادية والروحانية	٥٣
» العاشر . نظرة الى الامام	٥٨

(الكتاب الثاني)

الفصل الاول . المنشأ	٦٨
» الثاني : عهد الطفولة	٧٤
» الثالث . عهد الدراسة	٨٣
» الرابع . في سبيل البحث عن عمل	٩٧
» الخامس . عهد الغرام	١٠٨

رقم الصفحة	
١٢٣	الفصل السادس . احزان تيوفلسدروخ
١٣٢	» السابع . استحكام اليأس
١٣٨	» الثامن . في سبيل الشفاء
١٥٠	» التاسع . انبلاج الأمل
١٦٢	» العاشر . الختام
	(الكتاب الثالث)
١٦٩	الفصل الأول . أعظم حادثة في التاريخ الحديث
١٧٥	» الثاني . الملابس الدينية
١٧٩	» الثالث . في الرموز
١٨٦	» الرابع . مجد العمل
١٨٩	» الخامس . العنقاء
١٩٤	» السادس . الملابس القديمة
١٩٩	» السابع . للنساء المضوية
٢٠٦	» الثامن . الحقيقة الباطنية
٢١٩	» التاسع . نظرة استعراض
٢٢٢	» العاشر . عشرة المتأقين

اصلاح خطأ

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٨	١٩	ذهنى	ذهن
٢٤	١٤	الفيلسوف	للفيلسوف
٢٦	١٢	علمنا	علمنا
٣٧	٩	الصفات	الصفة
٤٦	١٣	بموتة	بموتة
٤٧	٨	وتصاوير	تصاوير
٥٥	٣	المشوهات	الشوهات
٧١	٨	ليجدان	ليجديا
٧٤	١٦	أبى	أبى
٨٤	١٧	كان	كانه
٨٧	١٠	التقيل	التقيل
٨٨	٦	السرو	السرو
١١٠	٩	مائلة	مائلة
١٢١	١	تسمى	ونظرات تسمى
١٢٣	١٤	الخبرة	الخاوية
١٤٠	٢	يلحفك	يلحفك
١٥٣	٣	ستاره	ستائر
١٥٨	١٥	وعلى	وتعمل



0483961